عباس محمود العقاد

عبقرية عمر

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

الطبعة الثالثة

١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى : بشارع محمد علي بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

مُقَدّمَةُ الطّبْعَةِ الأُولى

تمَّ تأليف هذا الكتاب فى أحوال عجيبة هى أحوال بأس وخطر . فلا غرابة بينها وبين موضوع الكتاب الذى أدرته عليه ؛ لأننا لا نتكلم عن عمر بن الخطاب إلا وجدنا أننا على مقربة من البأس ومن الخطر فى آن .

فما شرعت فى تحضيره وبدأت فى الصفحات الأولى منه حتى رأيتنى على سفر بغير أُهبة إلى السودان . فوصلت إليه وليس معى من مراجع الكتاب إلا القليل ، وكانت الصفحات الأولى التى كتبتها فى القاهرة مما تركته مع المراجع الكثيرة فيها ، فأعدت كتابتها فى الخرطوم ومضيت فيه هنالك حتى انتهيت من أكبر شطريه . واستغنيت بمراجع الخرطوم عن المراجع التى أعجلنى السفر عن نقلها ، لأن أدباء السودان وفضلاءه يدخرون جملة صالحة من هذه المراجع ، ويجودون بها أسخياء مبادرين إلى الجود ، فلا أذكر أننى طلبت كتاباً فى المساء إلا كان عندى فى بكرة الصباح .

وإنى لأتوفر على كتابته وأحسبنى منتهياً منه فى السودان إذ رأيتنى مرة أخرى على سفر بغير أُهبة إلى القاهرة ، فعدت إليها بالطائرة ألتمس العلاج السريع ، لأن يدىّ أوشكتا أن تعجزا عن تناول القلم بما عراهما من ثآليل « الخريف » .

فعدت وما يشغلنى عن إتمامه شاغل فى السفر والمقام ، ولم أحسب هذا البأس فى الحالتين من موانعه وعراقيله ، لأنى ألِّفت بعض كتبى الكبار فى أحوال تشبه هذه الأحوال . فألفت كتابى عن « ابن الرومى » بين السجن ونذره ومقدّماته ، وألفت كتابى عن « سعد زغلول » وأنا غير مستريح من كفاحه ، وكلاهما من آثر الكتب عندى وأكبرها فى الموضوع وفى عداد الصفحات .

إنما حسبت هذا البأس من مطابقاته وموافقاته ، ومن وضع الشىء فى موضعه على نحو من الأنحاء ، ولم أعدده من حرج التأليف كما عددته من مهيآت جوّه ، ولا سيما حين ألفيتنى أدرس آثار الحركة المهدية وأتقلب بين مشاهدها وميادينها ، وأستخرج العبرة من القتال بين الراجلين والفيلة فى مواقع

فارس ، ومن القتال بين الراجلين والسفن المسلحة فى مواقع الخرطوم وأم درمان . فهذه عقيدة وتلك عقيدة ، ولكن العقيدة التى ظفرت كان معها حليفٌ من الغد المأمول ، ولم تكن العقيدة التى فشلت على وفاق مع الغد ولا مع الأمل .

ولكن الحرج كل الحرج فى التأليف إنما كان فى محاسبة عمر بن الخطاب ، أو ليس الحرج فى الحساب أيضاً من العمريات المأثورات ؟ !

فالناس قد تعودوا ممن يسمونهم بالكتّاب المنصفين أن يحبذوا وينقدوا وأن يقرنوا بين الثناء والملام ، وأن يسترسلوا فى الحسنات بقدر لينقلبوا من كل حسنة إلى عيب يكافئها ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها ؛ فإن لم يفعلوا ذلك فهم إذن مظنة المغالاة والإعجاب المتحيز ، وهم إذن أقل من الكتاب المنصفين الذين يمدحون ويقدحون ، ولا يعجبون إلا وهم متحفزون للملام .

عرض لى هذا الخاطر فذكرت قصة العاهل الذى تحاكم إلى قاضيه مع بعض السوقة فى عقار يختلفان على ملكه فحكم القاضى

للسوقة بغير الحق ليغنم سمعة العدل فى محاسبة الملوك ، وعزله العاهل لأنه ظلم وهو يبتغى الرياء بظلمه . فكان أعدل عادل حين بدا كأنه يحرص على مال مغصوب ويجور على تابع جسور ... لأنه أنصف وهو مستهدف لتهمة الظلم ، وقاضيه قد ظلم وهو يتراءى بالإنصاف .

قلت لنفسى : إن كنت قد أفدت شيئاً من مصاحبة عمر ابن الخطاب فى سيرته وأخباره فلا يحرجنك أن تزكى عملا له كلما رأيته أهلا للتزكية ، وإن زعم زاعم أنها المغالاة ، وإنه فرط الإعجاب .

وهذه هى الأسوة العمرية فى الحساب .

فالحق أنى ما عرضت لمسألة من مسائله التى لغط بها الناقدون إلا وجدته على حجة ناهضة فيها . ولو أخطأه الصواب .

وإن أعسر شىء أن تحاسب رجلا كان أشد أعدائه لا يبلغون من عسر محاسبته بعض ما كان يبلغه هو فى محاسبة نفسه ، وأحب الناس إليه .

ذلك رجل قل أن يجور عن القصد وهو عالم بجوره ، وقل

أن يتيح لأحد أن يكسب دعوى الإنصاف على حسابه ، إلا أن يكسبها أيضاً على حساب الحق والنقد الأمين .

فإذا عرفت منحاه من الخلق والرأى ، وسلمت له مزاجه ووجهة تفكيره ، فكن على يقين أنه لن يتجافى عن النهج السوىّ ولن يتعلق بأمر يعدوه الصلاح ويشوبه السوء .

وذاك أحرج الحرج الذى عانيته فى نقد هذا الرجل العظيم وتلك حيطة معه إن لم يستفدها الكاتب وهو مشغول بعمر ونهج عمر فشغله عبث ذاهب فى الهواء .

وعلم الله لو وجدت شططا فى أعماله الكبار لكان أحب شىء إلىّ أن أُحصيه وأُطنب فيه وأنا ضامن بذلك أن أُرضى الأثرة وأُرضى الحقيقة ، ولكنى أقولها بعد تمحيص لا مزيد عليه فى مقدورى : إن هذا الرجل العظيم أصعب من عرفت من عظماء الرجال نقداً ومؤاخذة ، ومن فريد مزاياه أن فرط التمحيص وفرط الإعجاب فى الحكم له أو عليه يلتقيان .

وكتابى هذا ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التى تقصد بها الحوادث والأنباء ، ولكنه وصف له

ودراسة لأطواره ودلالة على خصائص عظمته واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة ، فلا قيمة للحادث التاريخي جل أو دقّ إلا من حيث أفاد في هذه الدراسة ، ولا يمنعني صغر الحادث أن أقدمه بالاهتمام والتنويه على أضخم الحوادث ، إن كان أوفى تعريفاً بعمر وأصدق دلالة عليه .

وعمر بعدُ رجل المناسبة الحاضرة في العصر الذي نحن فيه ، لأنه العصر الذي عاشت فيه عبادة القوة الطاغية وزعم الهاتفون بدينها أن البأس والحق نقيضان . فإذا فهمنا عظيما واحداً كعمر ابن الخطاب فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه ، لأننا سنفهم رجلا كان غاية في البأس وغاية في العدل وغاية في الرحمة ... وفي هذا الفهم ترياق من داء العصر يشفي به من ليس بميؤس الشفاء .

وإنه لجهاد جديد لعمر بن الخطاب ، يطيب لنا أن نوجزه في كتاب ؟

عباس محمود العقاد

عبقريّ

« ... لم أر عبقريًّا يفرى فريَّه (١) ... »

كلمة قالها النبي عليه السلام فى عمر رضى الله عنه ، وهى كلمة لا يقولها إلا عظيمٌ عظماء ، خُلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال »

فمن علامات العظمة التى تحيي موات الأمم أن تختص بقدرتين لا تعهدان فى غيرها ، أولاهما أن تبتعث كوامن الحياة ودوافع العمل فى الأمّة بأسرها وفى رجالها الصالحين لخدمتها ، والأخرى أن تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفوس فتعرف بالبديهة الصائبة والوحى الصادق فيم تكون عظمة العظيم ، ولأىّ المواقف يصلح ، وبأى الأعمال يضطلع ، ومتى يحين أوانه وتجب ندبته ، ومتى ينبغى التريث فى أمره إلى حين .

كلتا القدرتين كان لها الحظ الوافر فى سيرة عمر بن الخطاب .

فأين — لولا الدعوة المحمدية التى بعثت كوامن العظمة فى أمة العرب — كنا نسمع بابن الخطاب ؟ وأى موضع له كان من مواضع هذا التاريخ العالمى الذى يزخر بكبار الأسماء ؟

إنه الآن اسم يقترن بدولة الإسلام ودولة الفرس ودولة

---

(١) فرى الجلد : قطعه ليصلحه ، وفرى الفرىّ أتى بالعجب . والمعنى أن عمر عبقرى منفرد فى عمله فلا يقدر أحد على أن يصنع مثل صنيعه .

الروم وكل دولة لها نصيب فى التاريخ . فأين كنا نسمع باسم عمر لولا البعثة المحمدية ؟

لقد كان ولا ريب خليقاً أن يستوى على مكان الزعامة بين بنى عدىّ آله الأقربين ، أو بين قريش قبيلته الكبرى ، ثم ينتهى شأنه هناك كما انتهى شأن زعماء آخرين لم نسمع لهم بخبر . لأنهم عظموا أو لم يعظموا ، يعطون البيئة كفاء ماتطلب من جهد ودراية ، وهى تطلب منهم مايُذكرون به فى بيئتهم ، ولكنها لاتطلب منهم مايذكرون به فى أقطار العالم البعيد .

وقد كان عمر قوىّ النفس بالغاً فى القوة النفسية ، ولكنه على قوته البالغة لم يكن من أصحاب الطمع والاقتحام ، ولم يكن ممن يندفعون إلى الغلبة والتوسع فى الجاه والسلطان بغير دافع يحفزه إليه وهو كاره . لأنه كان مفطوراً على العدل وإعطاء الحقوق والتزام الحرمات ما التزمها الناس من حوله . وكان من الجائز أن يهيجه خطرٌ على قبيلته أو على الحجاز ومحارمه المقدسة فى الجاهلية فينبرى لدفعه ويبلى فى ذلك بلاء يتسامع به العرب فى جيله وبعد جيله ، ولكنه لايعدو ذلك النطاق ولا هو يبالى أن يمعن فى بلائه حتى يعدوه .

بل كان من الجائز غير هذا وعلى نقيضه .

كان من الجائز أن تفسد تلك القوة بمعاقرة الخمر والانصراف إليها . فإنه كان فى الجاهلية كما قال « صاحب خمر يشربها ويحبها » وهى موبقة لاتؤمن حتى على الأقوياء إذا أدمنوها ولم يجدوا من زواجر الدين أو الحوادث مايصرفهم عنها ، ويكفهم عن الإفراط فى معاطاتها .

فعمر بن الخطاب الذى عرفه تاريخ العالم وليدُ الدعوة المحمدية دون سواها . بها عرف وبغيرها لم يكن ليعرف فى غير الحجاز أو الجزيرة العربية .

أما القدرة الأخرى التى يمتاز بها العظيم الذى خلق لتوجيه العظماء فقد أبان عنها النبى عليه السلام فى كل علاقة بينه وبين عمر من اللحظة الأولى ، أى من اللحظة التى سأل الله فيها أن يُعزَّ به الإسلام ، إلى اللحظة التى ندب فيها أبا بكر للصلاة بالناس وهو ـ عليه السلام ـ فى مرض الوفاة .

سبر غوره واستكنه عظمته ، وعرفه فى أصلح مواقفه فعرف الموقف الذى يتقدم فيه على غيره والموقف الذى هو أولى بتقديم غيره عليه .

وليست هى مفاضلة بين رجلين ولا موازنة بين قدرتين ... ولكنها مسألة التوفيق بين الرجل والموضع الذى ينبغى أن يوضع

فيه ، والمهمة التى ينبغى أن يندب لها ، والوقت الذى يحين فيه أوانه .

وربما رأينا فى زماننا هذا رئيساً يوصى لنصيرٍ من أنصاره بالوزارة ويوصى لغيره بقيادة الجيش ، فلا نقول إنه يفاضل بين النصيرين أو أنه يرجح أحدهما على الآخر فى ميزان الكفاءة . وإنما يختار كلا منهما لموضعه فى الوقت الذى يحتاج إليه ، ولا غضاضة على أحد منهما فى هذا الاختيار .

فالنبى عليه السلام كان يعلم من هو أبو بكر ومن هو عمر . وقد عادل بينهما أجل معادلة حين قال : (إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال : « من تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم » ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ومثلك يا عمر مثل نوح قال : « ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّارا » ومثلك كمثل موسى قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ») .

كان النبى عليه السلام يعلم كما قال أن عمر أشد المسلمين فى الله ، ويعلم أن فى أبى بكر ليناً وهوادة . فجمع للإسلام

المزيتين حين اختار أبا بكر للصلاة وضَمَّن هـذا الاختيار معنى من معانى الاستخلاف . . . أو كما جاء فى بعض الروايات أنه نص على استخلاف أبى بكر بالقول الصريح .

فتعزيز الإسلام بعد نبيه كان فى حاجة إلى كثير من الهوادة والمجاوزة ، وكان كذلك فى حاجة إلى كثير من الشدّة والصرامة ، ولن تذهب شدّة عمر إذا احتاج إليها أبو بكر فى محنة يشتد فيها اللين الوديع . إنما الخوف أن يذهب لين أبى بكر إذا اشتد عمر ، ولا خوف من أن يلين عمر وأبو بكر شديد . فإن الموقف إذا استنفد حجج الرحمة حتى يلجأ فيه أبو بكر إلى البأس ويصر عليه فأقرب شىء أن يعدل عمر عن لينه وأن يثوب إلى المعهود من صرامته ولدده .

وكان النبي عليه السلام يعلم أن احتمال التبعة أو « المسئولية » خليق أن يبدل أطوار النفوس فى بعض المواقف والأزمات ، فيجنح اللين إلى الشدّة ويجنح الشديد إلى اللين . لأننا إذا قلنا إن رئيساً أصبح يشعر بالمسئولية فمعنى ذلك أنه أصبح يراجع رأيه فلا يستسلم لأول عارض يمليه عليه طبعه ، ولا يقنع باللين أول وهلة إذا كان من دأبه اللين ، ولا بالشدّة أول وهلة إذا كان من دأبه الشدّة . ومن هنا ينشأ الاختلاف بين موقف

الرجل وهو مسئول وموقفه وهو غير مسئول .

وهذا الذى ظهر أعجب ظهور فى موقفى الصاحبين من حرب الردّة . فإن عمر الشديد قد آثر الهوادة وأبا بكر الرفيق قد آثر القتال وأصرّ عليه . وكان عمر يقول : « إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحى والملائكة يمدّه الله بهم وقد انقطع ذلك اليوم » ثم يقول للخليفة « الزم بيتك ومسجدك فإنه لا طاقة لك بقتال العرب » وكان أبو بكر يقول متسائلا : « أئن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ؟ والله ليظهرنّ الله هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون ، قوله الحق ووعده الصدق « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » ... « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » . والله أيها الناس لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت عليهم بالله وهو خير معين ! »

هنالك بلغت التبصرة بوجوه الرأى المختلفات غاية مداها ، وجاء عمر بقصارى ما عنده من حجج الرأى الآخر حتى وضحت المناهج واستقرّ العزم والتقى الصاحبان عليه فكانت شدتهما فى الحق شدّتين .

وهب الأمر مع هذا قد اختلف فى موقف الصاحبين فمال

أبو بكر إلى السلم والمسامحة فأين كانت شدّة عمر ذاهبة عنه فى هذه الحال ؟ أغلب الظنّ أنه هو الذى كان يتولى يومئذ أن يبسط وجه الشدّة فى معاملة المرتدين . لأنه يعلم أنه المسئول عن بسط هذا الوجه دون غيره . فلا تفوت الإسلام مزية من مزايا الصاحبين .

إن محمداً عليه السلام قد عرف من هم رجاله وما هو الموقف الذى هم مقبلون عليه بعد وفاته . فعرف الموضع الذى يضع فيه كلا منهم والعمل الذى يتولاه خير ولاية فى ذلك الموضع . ولم يفته أن يحسب حساب التبعة وما فى احتمالها من ضمان للأخلاق الصالحة والعقول الراجحة ، وأبو بكر وعمر من خيرة أصحاب هذه الأخلاق وهذه العقول .

ولا يحسبن حاسب أننا نفسر الأمور بما كشفته لنا الحوادث بعد وقوعها ولم يكن مقصوداً فى النيات قبل ذلك . فإن الذى يحسب هذا الحسبان يخطئ تلك الخطأة الشائعة التى لا تثبت على أقل نصيب من الروية والمراجعة : يخطئ فى وهمه خطأة الذين يتخيلون أن هذه السياسات العالية من بدع الزمن الأخير وليست هى من البدع فى زمن كان . لأن العظمة لم تكن قط وقفاً على العصر الحديث ، ولا سيما العظمة التى ترجع إلى الفطرة القويمة والبديهة النافذة والنظر السديد .

فكلُّ هذا التقدير الذى أجملنا شرحه كان تقدير قصد وتدبير ، وكان مفهوماً على البداهة بين ولاة الأمر فى تلك الآونة ، ملحوظاً بينهم فى مناجاة النيات قبل أن نلحظه نحن فى عصرنا هذا من تفسير حوادث التاريخ .

وإلى ذلك أشار عمر فى قول صريح حين قال لمن هابوه وتحدّثوا بخوف الناس منه : « بلغنى أن الناس هابوا شدّتى وخافوا غلظتى وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، ثم اشتدّ علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق . فقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه . وكان من لا يبلغ أحدٌ صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله : بالمؤمنين رؤف رحيم ، فكنت بين يديه سيفاً مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى . فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد . ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا ينكرون دعته وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدّتى بلينه ، فأكون سيفاً مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى ، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله

عز وجل وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد . ثم إنى قد وليت أموركم أيها النــاس فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ولـكنها إنمـا تـكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين : فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعض لبعض ... » .

بل ظهرت آثار الشعور بالتبعة بُعيد موت النبي والحال على أشده فى يوم السقيفة ، والمسلمون مختلفون على من يلى الأمر بعد محمد حتى قيل فيما قيل : من الأنصار أميرٌ ومن المهاجرين أمير !

ففى تلك المحنة التى تشخص فيها الأبصار وتعظم التبعات وتودى زلة الساعة فيها بالـكثير الذى لاتستدركه الأعوام ، كان عمر الحادُّ الشديد يخشى بوادر الحدّة من أبى بكر ويهيئ الـكلام اللّيِّن ليعالج الأمر بالرفق والتؤدة ، ويقول فيما رواه عن محنته ذلك اليوم : « وكنت أدارى منه بعض الحدّ — أى الحدّة — فلما أردت أن أتـكلم قال أبو بكر : على رسلك ! فـكرهت أن أُغضبه . فتـكلم أبو بـكر فـكان هو أحلم منى وأوقر » .

عمر الحادّ الشديد يحاذر من بوادر أبى بكر ، وأبو بكر الحليم الوديع يـكف عمر عن الـكلام ، فيطيع !

هؤلاء رجال يعرفهم صاحبهم ، وهـذه مواقف يعرفها

صاحبها ، وهذه مسألة فصل فيها الزمن ولم يبق لنا نحن الذين نعود إليها ونستخلص عبرتها إلا أن نراقب ما فيها من آيات الإعجاز ، وسوابق النظر البعيد .

ما وُضع أبو بكر خيراً من موضعه وهو يلى الإسلام والخطر من داخل أهله ، والطب الذى يطبهم به هو طب التآلف والإحجام عن السطوة ما كان إلى الإحجام عنها سبيل .

وما وضع عمر خيراً من موضعه وهو يلى الإسلام والخطر عليه من أعدائه المحدقين به ، والطب الذى يطبهم به هو طب الصلابة والحزم الذى لا ينكل عن صراع .

وكأنما توقع النبي أن أيام أبى بكر معدودات ولكنها الأيام التى تحتاج إليه وتكفى لإنجاز عمله . وتوقع أن يأتى عمل عمر فى حينه المقدور فلا يفوت الإسلام أن ينتفع بمقدرته فى عهد أبى بكر ولا فى عهده ، نقول هذا على الترجيح ومن حقنا أن نقوله على التوكيد ، لأن حديث النبي فيه غنى عن التخمين والتأويل . قال عليه السلام : « أريت فى المنام أنى أنزع بدلو بكرةٍ على قليب (١) فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً (٢) أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً

(١) بئر . (٢) دلواً .

فلم أر عبقرياً يفرى فريّه حتى روى الناس وضربوا بعطن[١] » .

وفهم فقهاء الإسلام أن ضعف النزع هو قصر المدة وانصراف العزم إلى حرب الردة ، وأن فيض الرى على يد عمر هو فيض العبقرية التى ينفسح لها الأجل وتنفسح أمامها منادح العمل ، ويؤتى لها من السبق مالا يؤتى لغير العبقريين .

ولنا أن نفسر العبقرية بمعناها الذى يفهمه الأقدمون أو بمعناها الذى نفهمه نحن المحدثين ، فكلا المعنيين مستقيم فى وصف عمر بن الخطاب ... أتراها على كلا المعنيين شيئاً غير التفرد والسبق والابتكار ؟ كلا . ما للعبقرية مدلول يخرج عن صفة من هذه الصفات . ومن يكتب تاريخ عمر فقد يجد فى النهاية أنه يكتب تاريخاً « لأول من صنع كذا وأول من أوصى بكذا » حتى ينتهى بسرد هذه « الأوليات » إلى عداد العشرات .

وتلك هى العبقرية التى لا يفرى فريها أحد كما قال صاحبه وأعرف الناس به ، صلوات الله عليه .

---

(١) مربط الابل حول الماء .

رجل ممتاز

يوصف عمر بالعبقرية إذا نظرنا إلى أعماله ، ويوصف بها إذا نظرنا إلى تكوينه الذى جعله مستعداً لتلك الأعمال مضطلعاً بتلك القدرة . وإن لم يكن من اللازم اللازب أن تقترن القدرة بالعمل الذى تستطيعه . لما يتفق أحياناً من وقوف العوائق بينها وبين الإنجاز أو الاتجاه إلى ذلك العمل .

إلا أن عمر كان رجلا ممتازاً بعمله ، ممتازاً بتكوينه ، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد فى عرف الأقدمين والمحدثين ، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين .

إذا وصفته للأقدمين الذين يقيسون العبقرية بالفراسة والخبرة عرفوا من صفته أن الذى يوصف لهم رجلٌ ممتاز أو رجل نسيج وحده .

وإذا وصفته للمحدثين الذين يقيسون العبقرية بالعلم أو مشاهدات العلماء عرفوا من تلك الصفة أنه رجل ممتاز ، أو رجل موهوب .

كانت نظرة إليه ـ قبل السماع بعمل من أعماله ـ توقع فى الروع أنه من معدن فى الرجال غير معدن السواد ، وأنه جدير بالهيبة والإعظام ، خليق أن يحسب له كل حساب .

كان مهيباً رائع المحضر حتى فى حضرة النبى الذى تتطامن عنده الجباه ، وأولها جبهة عمر .

أذن النبى يوماً لجارية سوداء أن تفى بنذرها « لتضربنّ بدفها فرحاً إن ردّه الله سالماً » فأذن لها عليه السلام أن تضرب بالدف بين يديه .

ودخل أبو بكر وهى تضرب ، ثم دخل علىّ وهى تضرب ، ثم دخل عثمان وهى تضرب ، والصحابة مجتمعون .

فما هو إلا أن دخل عمر حتى وجمت الجارية وأسرعت إلى دفها تخفيه ، والنبى عليه السلام يقول : « إن الشيطان ليخاف منك ياعمر ! » .

وروت السيدة عائشة رضى الله عنها أنها طبخت له عليه السلام حريرة ودعت سودة أن تأكل منها فأبت . فعزمت عليها لتأكلنّ أو لتلطخنّ وجهها . فلم تأكل ، فوضعت يدها فى الحريرة ولطختها بها . وضحك النبى عليه السلام وهو يضع الحريرة بيده لسودة ويقول لها : لطخى أنت وجهها . ففعلت .

ومرّ عمر فناداه النبى : ياعبد الله ! وقد ظنّ أنه سيدخل فقال لهما : قوما فاغسلا وجهيكما !

قالت السيدة عائشة : فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله

صلى الله عليه وسلم إياه .

ومن تلك الهيبة أنها كانت رضى الله عنها تتحفظ فى زيارة قبره بعد موته ، وحكت ذلك فقالت : « مازلت أضع خمارى وأتفضل فى ثيابى وأقول : إنما زوجى وأبى حتى دفن عمر بن الخطاب ، فلم أزل متحفظة فى ثيابى حتى بنيت بينى وبين القبور جداراً فتفضلت بعدُ » .

وإن من أدب الرسول عليه السلام أنه كان يرعى تلك الهيبة رضًى عنها واغتباطاً بأثرها فى نصرة الحق وهزيمة الباطل وتأمين الخير والصدق وإخافة أهل البغى والبهتان .

وقد كان الذين يعرفون عمر أهيب له من الذين يجهلونه ... وتلك علامة على أن هيبته كانت قوة نفس تملأ الأفئدة قبل أن تملأ الأنظار . فربما اجترأ عليه من لم يعرفه ولم يختبره لتجافيه عن الخيلاء وقلة اكتراثه للمظهر والثياب . أما الذين عرفوه واختبروه فقد كان يروعهم على المفاجأة روعة لاتذهبها الألفة وطول المعاشرة ، ومن ذاك أنه كان يمشى ذات يوم وخلفه عدّة من أصحاب رسول الله إذ بدا له فالتفت . فلم يبق منهم أحد إلا وحبل ركبتيه ساقط !

وتنحنح عمر والحجام يقص له شعره فذهل الحجام عن نفسه

وكاد أن يغشى عليه . فأمر له بأربعين درهما .

فهى هيبة من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد . إلا أنه مع هذا كان فى منظر الجسد رائعاً يهول من يراه ، ولا يُذهب الخوفَ منه إلا الثقةُ بعدله وتقواه .

كان طويلا بائن الطول يُرى ماشياً كأنه راكب ، جسيما صلباً يصرع الأقوياء ويروض الفرس بغير ركاب ، ويتكلم فيسمع السامع منه وِفاق ما رأى من نفاذ قول وفصل خطاب .

تشهد العيون كما تشهد القلوب أنه لمن معدن العظمة ، أو معدن العبقرية والامتياز بين بنى الإنسان ، وللمحدثين علامات فى العبقرية تتصل بالتكوين وتركيب الخلقة كما تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال .

فالعالم الإيطالى « لومبروزو » ومدرسته التى تأتم برأيه يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا تخطئها على صورة من الصور فى أحدٍ من أهلها ... وهى علامات تتفق وتتناقض ولكنها فى جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة .

فيكون العبقرى طويلا بائن الطول ، أو قصيراً بيِّن القصر ، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين . ويلفت النظر بغزارة

شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهود فى سائر الناس . ويكثر بين العبقريين من كل طراز جَيشانُ الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارئ ، فيكون فيهم من تفرط سورته كما يكون فيهم من يفرط هدوءه ، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يُلحظ تارة فى الزكانة والفراسة ، وتارة فى النظر على البعد ، وتارة فى الحماسة الدينية أو فى الخشوع لله .

ومهما يكن من الشك فى استقصاء هذه العلامات والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع فهى بلا ريب صادقةٌ فى حالات ، مقاربةٌ فى حالات ، غير أهل فى كل حال للتصديق التام ولا للنبذ التام ، ولا سيما عند ما تتفق فيها الظواهر والبواطن وتتلاقى فيها ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور .

وفى عمر بن الخطاب من هذه العلامات كثير .

كان كما تقدم طويلا يمشى كأنه راكب ، وكان أعسر يسراً يعمل بكلتا يديه ، وكان أصلع خفيف العارضين ، وكان كما وصفه غلامه وقد سأله بلال : وكيف تجدون عمر ؟ فقال : خير الناس ، إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم .

وكان سريع البكاء إذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدى الله ، وأثر البكاء فى صفحتى وجهه حتى كان يشاهد فيهما خطان أسودان

ومن فرط حسه وتوقد شعوره أنه كان يميز بين بعض المذوقات والمشمومات التى لايسهل التمييز بينها . سقاه غلامه ذات يوم لبناً فأنكره . فسأله : ويحك ! من أين هذا اللبن ؟ قال الغلام إن الناقة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها فحلبت لك ناقة من مال الله .

وقد عرفنا أهل البادية وعرفنا أنهم جميعاً أصحاب إبل وألبان ، ولكننا لم نجد منهم إلا قليلا يدعون أنهم يفرقون بين لبن ناقة ولبن غيرها هذه التفرقة السريعة ، ولا سيما فى المناخ الواحد والمرعى المتقارب .

وكانت له فراسة عجيبة نادرة يعتمد عليها ويرى أن « من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه » ... وتُروى له فى أمر هذه الفراسة رواياتٌ قد يصدق منها القليل وتتسرب المبالغة إلى كثير ، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لاشك فيها ، وهى أنه اشتهر بالفراسة وحب التفرس والاستنباط بالنظرة العارضة ، فمن ذلك أنه كان جالساً فمر به رجل جميل فقال مامعناه : أحسبه كان كاهنهم فى الجاهلية . فكان كذلك .

وأنه أبصر أعرابياً نازلا من جبل فقال : هذا رجل مصاب بولده قد نظم فيه شعراً لوشاء لأسمعكم . ثم سأل الأعرابى : من

أين أقبلت ؟ فقال من أعلى الجبل . فسأله : وما صنعت فيه ؟ قال : أودعته وديعة لى . قال : وما وديعتك ؟ قال : بنيٌّ لى هلك فدفنته قال : فأسمعنا مرثيتك فيه . فقال : وما يدريك ياأمير المؤمنين ؟ فوالله ماتفوهت بذلك ، وإنما حدّثت به نفسى ، ثم أنشد أبياتاً ختمها بقوله :

فالحمـــد لله لاشريك له   فى حكمه كان ذا وفى قدره

قدّر موتاً على العباد فما   يقدر خلق يزيد فى عمره

فبكى عمر حتى بلّ لحيته . ثم قال : صدقت يا أعرابى !

وكان عمير بن وهب الجمحى وصفوان بن أمية يذكران مصاب أهل بدر فقال صفوان : والله ما إن فى العيش بعدهم خير . فوافقه عمير وهو يقول كالمعتذر من تخلفه عن الثأر : أما والله لولا دَينٌ علىَّ ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله .

فقال صفوان يحرّضه : علىَّ دَينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم مابقوا ، لايسعنى شىء ويعجز عنهم .

فوقع كلامه من نفس عمير ، فأسرَّ إليه بعزمه على الغدر بالنبى وشحذ سيفه وسمه ، ثم انطلق حتى قدم المدينة .

فما نظر عمر إليه متوشحاً بالسيف حتى أوجس منه وهمس

لمن معه : هذا الكلب عدوّ الله عمير بن وهب . ما جاء إلا لشرّ وهو الذى حرَّش بيننا وحزرَنا للقوم يوم بدر . ثم دخل على النبي فأخبره خبره وعاد إلى عمير فأخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببه بها . وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون . ثم دخل به على رسول الله فلما رآه وعمر آخذٌ بحمالة سيفه فى عنقه قال : أرسله يا عمر ! ادنُ يا عمير !

وجعل رسول الله يسأل عميراً وهو يراوغ حتى ضاقت به منافذ الإنكار فباح بسرّه ، وأعلن الإسلام والتوبة .

هذه الفراسة وشبيهاتها هى ضرب من استيحاء الغيب واستنباط الأسرار بالنظر الثاقب . وما من عجب أن تكون هذه الخصلة قرينة من قرائن العبقرية فى حاشية من حواشيها ... إذ ما هى العبقرية فى لبابها كائناً ما كان عمل العبقرى المتصف بها ؟ ما هى الحكمة العبقرية ؟ ما هو الفن العبقرى ؟ ما هو دهاء السياسة فى الدهاة العبقريين ؟ من هو :

الألمعى الذى يظنُّ بك الظنَّ كأنْ قد رأى وقد سمعا ؟

كل أولئك يلتقى فى هبة واحدة هى كشف الخفايا واستيضاح البواطن واستخراج المعانى التى تدق عن الألباب .. . فاتصالها

بالفراسة وشبيهاتها أمر لا عجب فيه ، ولا انحراف به عن النحو الذى تنتحيه .

والذى يعنينا من الفراسة وشبيهاتها فى صدد الكلام عن عمر رضوان الله عليه أن نحصى الخصال الأخرى التى هى كالفراسة فى هذا الاعتبار ، وهى التفاؤل والاعتداد بالرؤيا والنظر أو الشعور على البعد أو « التلباثى » كما يسميه النفسانيون المعاصرون ولكل أولئك شواهد شتى مما روى عن عمر فى جاهليته وبعد إسلامه إلى أن أدركته الوفاة .

جاءه رسول من ميدان نهاوند فسأله : ما اسمك ؟ قال قريب وسأله مرة أخرى : ابن من ؟ فقال ابن ظفر ! فتفاءل وقال : ظفر قريب إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله .

وروى يحي بن سعيد أن عمر سأل رجلا : ما اسمك ؟ قال : جمرة ! فسأله : ابن من ؟ قال : ابن شهاب . فسأله : ممن ؟ قال من الحرقة ، وعاد يسأله : ثم ممن ؟ قال : من بنى ضرام ، وهكذا فى أسئلة ثلاثة أو أربعة عن مسكنه وموقعه ، والرجل يجيب بما فيه معنى النار ومرادفاتها حتى استوفاه . فقال عمر : أدرك أهلك فقد احترقوا .

وقد يكون التأليف ظاهراً فى هذه القصة ولكنها مع

تأليفها لاتخلو من الدلالة على اشتهار عمر باستكناه الألفاظ في معرض التفاؤل أو الإنذار .

أما الرؤيا فآخر ماروى عنه من أخبارها أنه رأى قبيل مقتله كأن ديكا نقره نقرتين فقال : يسوق الله إلىَّ الشهادة ويقتلنى أعجمى فإن الديك فى الرؤيا يفسر برجل من العجم .

على أن المكاشفة أو الرؤية (Vision) كما يسميها النفسانيون المحدثون إنما تظهر بأجلى وأعجب من هذا كثيراً فى قصة سارية المشهورة ، وهى مما يلحقه أولئك النفسانيون بهبة التلباثى (Telepathy) أو الشعور البعيد .

كان رضى الله عنه يخطب بالمدينة خطبة الجمعة فالتفت من الخطبة ونادى : ياسارية بن حصن ! الجبل ... الجبل ... ! ومن استرعى الذئب ظلم .

فلم يفهم السامعون مراده ، وقضى صلاته فسأله علىٌّ رضى الله عنه : ماهذا الذى ناديت به ؟ قال : أو سمعته ؟ قال : نعم . أنا وكل من فى المسجد .

فقال : وقع فى خلدى أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم ، وأنهم يمرون بجبل . فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوه وظفروا ، وإن جاوزوه هلكوا ، فخرج منى هذا الكلام .

وجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا فى ذلك اليوم وتلك الساعة حتى جاوزوا الجبل صوتاً يشبه صوت عمر يقول : يا سارية بن حصن ! الجبل الجبل . فعدلنا إليه ففتح الله علينا.

ولا داعى للجزم بنفى هذه القصة استناداً إلى العقل أو إلى العلم أو إلى التجربة الشائعة . فإن العقل لا يمنعها ، والعلماء النفسانيون فى عصرنا لا يتفقون على نفيها ونفى أمثالها . بل منهم من مارسوا « التلباثى » وسجلوا مشاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين .

إلا أن المهم من نقل هذه القصة فى هذا الصدد أن عمر كان مشهوراً بين معاصريه بمكاشفة الأسرار الغيبية إما بالفراسة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد ، وهى الهبات التى يلحقها بالعبقرية علماء العصر الذين درسوا هذه المزية الإنسانية النادرة وراقبوها وأكثروا من المقارنات فيها والتعقيبات عليها.

فهو رجل نادر بما تراه منه العين ، نادر بما تشهد به الأعمال والأخلاق ، نادر فى مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين .

أو هو رجل ممتاز ، وعبقرى موهوب فى جميع هذه الآراء

صفاته

نحن على هذا أمام رجل لا كالرجال . رجل عبقرى ، أو رجل ممتاز من خاصة الخليقة الذين لا يعدّون فى الزمن الواحد بأكثر من الآحاد .

أنقول رجل قوىّ ؟ نعم هو رجل قوىّ لامراء . وكل عظيم فهو قوىّ بمعنى من معانى القوّة . نعلم هذا فنعلم الشىء المهم عنه ، ولكننا بعد هذا لا نعلم شيئاً مهماً عن صفاته وأخلاقه . لأن الناس من حيث القوّة أقوياء وضعفاء أو متوسطون ومنحرفون إلى هنا تارة وإلى هناك تارة أخرى . أما من حيث الصفات والأخلاق فهم ألوف وألوف ، وهم فى قوتهم أو ضعفهم أنماط لا تحصى من المناقب والعيوب ، وأحرى بنا أن نقول إن القوّة صفة تستفاد من جملة مناقب الإنسان وعيوبه . فهى حالة تدل عليها المناقب والعيوب أو تدل عليها الصفات والأخلاق ، وليست هى بالحالة التى تدلنا على مناقب الإنسان وعيوبه وتهدينا بغير هاد إلى صفاته وأخلاقه .

فإذا قلت إن عمر بن الخطاب رجل قوى فما زدت على أن تقول إنه رجل عبقرى أو إنه رجل عظيم .

وكل رجل من هذا القبيل فمعرفته ليست بالأمر اليسير ، لأنه نمط لا يتكرر فيسهل فهمه بالقياس إلى أمثاله الكثيرين

وقد يكون الرجل العظيم نمطاً وحيداً فى التاريخ كله لا نظير له فى تفصيل أخلاقه وصفاته ، وإن ساواه فى القدر أنداد وقرناء .

وعمر بن الخطاب مثل فذّ من أمثلة هذا الطراز الفريد ، تفهم سره فإذا هو على وفاق مع جهره ، وتنفذ إلى باطنه فإذا هو مصدق للظاهر من سيماه .

فهل حللنا العقدة بهذا التقريب بين الظاهر والباطن وبين الجهر والسريرة ؟ كلا . ولا تقدمنا بعيداً فى طريق حلها ، لأننا لا نعرف هذا التقارب إلا بعد معرفة السريرة التى نبحث عنها ، فلا بد إذاً من البحث ولا بد إذا من المعرفة . فإذا وصلنا إلى الغور البعيد عرفنا ساعتئذ أنه لا يناقض الظاهر المكشوف . ولكن لا بد من الوصول إلى الغور البعيد قبل ذاك .

لا تناقض فى خلائق عمر بن الخطاب ، ولكن ليس معنى ذلك أنه أيسر فهما من المتناقضين ، بل لعله أعضل فهماً منهم فى كثير من الأحوال . فالعظمة على كل حال ليست بالمطلب اليسير لمن يبتغيه وليست بالمطلب اليسير لمن ينفذ إلى صميمه ويحتويه .

إنما الأمر الميسور فى التعريف بهذا الرجل العظيم أن خلائقه الكبرى كانت بارزة جداً لا يسترها حجاب . فما من قارئ ألمّ بفذلكة صالحة من ترجمته إلا استطاع أن يعلم أن

عمر بن الخطاب كان عادلا ، وكان رحيما ، وكان غيوراً ، وكان فطناً ، وكان وثيق الإيمان عظيم الاستعداد للنخوة الدينية .

فالعدل والرحمة والغيرة والفطنة والإيمان الوثيق صفات مكينة فيه لاتخفى على ناظر ، ويبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف تتجه هذه الصفات إلى وجهة واحدة ولا تتشعب فى اتجاهها طرائق قدداً كما يتفق فى صفات بعض العظماء . بل يبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف يتمم بعض هذه الصفات بعضاً حتى كأنها صفة واحدة متصلة الأجزاء متلاحقة الألوان .

وأعجب من هذا فى التوافق بين صفاته أن الصفة الواحدة تستمد عناصرها من روافد شتى ولا تستمدها من ينبوع واحد . ثم هى مع ذلك متفقة لا تتناقض ، متساندة لا تتخاذل ، كأنها لا تعرف التعدد والتكاثر فى شىء .

خذ لذلك مثلا عدله المشهور الذى اتسم به كما لم يتسم قط بفضيلة من فضائله الكبرى . فكم رافدة لهذا الخلق الجميل فى نفس ذلك الرجل العظيم ؟

روافد شتى : بعضها من وراثة أهله ، وبعضها من تكوين شخصه ، وبعضها من عبر أيامه ، وبعضها من تعليم دينه ، وكلها بعد ذلك تمضى فى اتجاه قويم إلى غاية واحدة لاتنم على افتراق .

لم يكن عمر عادلا لسبب واحد بل لجملة أسباب :

كان عادلا لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه ، فهو من أنبه بيوت بنى عدىّ الذين تولوا السفارة والتحكيم فى الجاهلية ، وراضوا أنفسهم من أجل ذلك جيلا بعد جيل على الإنصاف وفصل الخطاب ، وجدّه نفيل بن عبد العزى هو الذى قضى لعبد المطلب على حرب بن أُمية حين تنافرا إليه وتنافسا على الزعامة . فهو عادل من عادلين ، وناشئ فى عهد الحكم والموازنة بين الأقوياء .

وكان عادلا لأنه قوى مستقيم بتكوين طبعه ، وإن شئت فقل أيضاً بتكوينه الموروث . إذ كان أبوه الخطاب وجده نفيل من أهل الشدّة والبأس ، وكانت أمه حنتمة بنت هشام ابن المغيرة قائد قريش فى كل نضال . فهو على خليقة الذى لايحابى لأنه لايخاف ، والذى يخجل من الميل إلى القوى لأنه جبن ، ومن الجور على الضعيف لأنه عوج يزرى بنخوته وشممه .

وكان عادلا لأن آله من بنى عدى قد ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بنى عبد شمس؟ وكانوا أشداء فى الحرب يسمونهم لعقة الدم ، ولكنهم غُلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس إلى عدد أقربائهم ، فاستقر فيهم بغض القوى المظلوم للظلم وحبه للعدل

الذى مارسوه ودرّبوا عليه ، وساعدت عبر الأيام على تمكين خليقة العدل فى خلاصة هذه الأسرة أو خلاصة هذه القبيلة ، ونعنى به عمر بن الخطاب .

وكان عادلا بتعليم الدين الذى استمسك به وهو من أهله بمقدار ماحاربه وهو عدوه. فكان أقوى العادلين كما كان أقوى المتقين والمؤمنين .

وكذلك اجتمعت عناصر الوراثة الشعبية ، والقوة الفردية ، وعبر الحوادث وعقيدة الدين فى صفة العدل التى أوشكت أن تستولى فيه على جميع الصفات .

كان عادلا لأسباب كأنه عادل لسبب واحد لقلة التناقض فيه. وربما كان تعدد الأسباب هو العاصم الذى حمى هذه الصفة أن تتناقض فى آثارها . لأنه منحها القوة التى تشدّها كما يشد الحبل المبرم فلا تتفكك ولا تتوزع ، فكان عمر فى جميع أحكامه عادلا على وتيرة واحدة لاتفاوت بينها . فلو تفرقت بين يديه مائة قضية فى أعوام متباعدات لكنت على ثقة أن تتفق الأحكام كلما اتفقت القضايا . كأنه يطبعها بطابع واحد لا يتغير .

إلا أن الصفات إذا بلغت هذا المبلغ من القوة الرائعة لم تكد تسلم من طروء التناقض عليها وإن سلمت منه بطبيعتها :

لأنها تدخل فى صفات البطولة التى تثير الإعجاب والمبالغة ، وكل بطولة فهى عرضة للمبالغات والإضافات ، ومن ثم لا تسلم من تناقض الأقاويل .

وصفات عمر كلها صفاتٌ لها طابع البطولة وفيها دواعى الإغراء بالإعجاب والمبالغة . وممن ؟ من الأصدقاء المصدقين لأنهم لا يتهمون بقصد السوء وهم فى الواقع أولى بالاحتراس من الخصوم المتهمين ... فمن هنا يجىء التناقض لا من طبيعة الصفات التى تأباه .

فالعدل مثلا هو المساواة بين أبعد الناس وأقربهم فى قضاء الحقوق وإقامة الحدود .

وليس أقرب إلى الحاكم من ابنه .

فإذا سوى الحاكم بين ابنه وسائر الرعية فذلك عدل مأثور يقتدى به الحاكمون .

ولقد سوى عمر بين أبنائه وسائر المسلمين فبلغ بذلك مبلغ البطولة وفى هذه الصفة النادرة بين الحكام .

وذلك كاف فى تعظيم قدره . لا حاجة بعده إلى مزيد .

إلا أنها صفة من صفات البطولة التى تروع وتعجب وتملأ النفس بالرغبة فى التحدث بها والإطناب فى أحاديثها . فهى لا تكفى

المبالغين حتى يجعلوا عمر مقيما للحد على ابنه ، مشتداً فى عقوبته اشتداداً لا يسوى فيه بينه وبين غيره . ثم لا يكتفى المبالغون بهذا حتى يموت الولد قبل استيفاء العقوبة ، فيمضى عمر فى جلده وهو ميت لا تقام عليه الحدود ! ومن اعتدل من المبالغين لم يذكر الموت وإتمام العقوبة وذكر لنا أن الولد مات بعد ذلك بشهر من مرض الضرب الذى ثقل عليه ، وعجز عن احتماله .

نعنى بما تقدم قصة عبد الرحمن بن عمر فى مصر وهى كما رواها عمرو بن العاص والى مصر يومئذ حيث يقول : « ... دخلا - عبد الرحمن بن عمر وأبو سروعة - وهما منكسران ، فقالا : أقم علينا حدّ الله ، فإنا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا . فزبرتهما وطردتهما ، فقال عبد الرحمن : إن لم تفعل أخبرت أبى إذا قدمت عليه . فحضرنى رأىٌ وعلمت أنى إن لم أقم عليهما الحد غضب علىّ عمر فى ذلك وعزلنى وخالفه ما صنعت ، فنحن على ما نحن عليه إذ دخل عبد الله بن عمر ، فقمت إليه فرحبت به وأردت أن أجلسه فى صدر مجلسى فأبى علىّ وقال : أبى نهانى أن أدخل عليك إلا أن لا أجد من ذلك بدّاً . إن أخى لا يُحلق على رؤس الناس . فأمّا الضرب فاصنع ما بدا لك » .

قال عمرو بن العاص : « وكانوا يحلقون مع الحد ، فأخرجتهما

إلى صحن الدار فضربهما الحد ، ودخل ابن عمر بأخيه إلى بيت من الدار فحلق رأسه ورأس أبي سروعة ، فوالله ما كتبت إلى عمر بشيء مما كان حتى إذا تحينت كتابه إذا هو نظم فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله أمير المؤمنين عمر إلى العاصى بن العاص .

« عجبت لك يا ابن العاص ولجرأتك علىّ وخلاف عهدى ... فما أرانى إلا عازلك فمسىء عزلك . تضرب عبدالرحمن فى بيتك وتحلق رأسه فى بيتك وقد عرفت أن هذا يخالفنى ؟ إنما عبدالرحمن رجل من رعيتك تصنع به ماتصنع بغيره من المسلمين ولكن قلت هو ولد أمير المؤمنين وقد عرفت ألا هوادة لأحد من الناس عندى فى حق يجب لله عليه . فإذا جاءك كتابى هذا فابعث به فى عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع » .

قال : « فبعثت به كما قال أبوه وأقرأت ابن عمر كتاب أبيه ، وكتبت إلى عمر كتاباً أعتذر فيه وأخبره أنى ضربته فى صحن دارى وبالله الذى لا يُحلف بأعظم منه إنى لأقيم الحدود فى صحن دارى على الذمي والمسلم ، وبعثت بالكتاب مع عبد الله ابن عمر .

قال أسلم : « فقدم عبد الرحمن على أبيه فدخل عليه وعليه

عباءة ولا يستطيع المشىء من مركبه . فقال : ياعبد الرحمن فعلت كذا ؟ فكلمه عبد الرحمن بن عوف وقال : يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد مرة . فلم يلتفت إلى هذا عمر وزبره . فجعل عبد الرحمن يصيح : أنا مريض وأنت قاتلى ! فضربه وحبسه ، ثم مرض فمات رحمه الله » .

فهذه قصة تتوافر أخبارها ومن رُويت عنهم ، فلا نستغربها فى جميع تفصيلاتها إلا حين تطرأ عليها المبالغة التى تتسرب إلى كل خبر من أخبار البطولات المشهورة ، وذلك أن يقسو عمر على ابنه تلك القسوة التى لايوجبها الدين ولا تقبلها الفطرة الإنسانية ، فيقيم عليه الحدّ وهو ميت ، أو يعرّضه للموت من أجل حدّ أقيم .

هذا هو الغريب الذى استوقفنا فأنكرناه ، ومضينا فى تمحيصه فطابق التمحيص ماقدرناه . أما سائر القصة فلا غرابة فيه من كل نواحيه ، بل هو من القصص التى يستبعد فيها التلفيق والاختراع . إلا أن يكون الملفق من حذاق الرواة ومهرة الوضّاع .

ولو كان المصدر واحداً معروفاً بالحذق فى القصص لحسبناها من وضعه وتلفيقه . ولكنها سمعت من غير مصدر موثوق به ، فهى أقرب إلى الواقع فيما يشبهه ويجرى مجراه .

فعبد الرحمن بن عمر يذهب إلى الوالى لأنه شرب شيئاً ظنه

غير مسكر فإذا هو قد سكر منه ، ولا مناص من إقامة الحد عليه وإلا رفع الأمر إلى أبيه ... هى شنشنة عمرية لالبس فيها ، وهو ابن عمر لامراء .

والوالى . ومن الوالى ؟ عمرو بن العاص الذى لاخفاء بدهائه ولا ببعد حسابه ، فهو يتريث بادئ الأمر ويحاول أن يصرف الفتى إذا طاب له الانصراف دون أن يقيم الحد عليه ... وهى أيضاً شنشنة لاغرابة فيها . فمن يدرى ؟ ألا يجوز أن يصبح هذا الفتى أخا للخليفة أو مدبراً للسلطان معه فى يوم غير بعيد ؟

والخليفة يدرى بالأمر فيهوله ويستكبر أن يخفيه عنه واليه فلا يصل إليه نبأه من قبله ، وهو ماهو فى تحرجه من تبعة يحملها غافلا عنها ، لحرص الولاة على تحرّى هواه وابتغاء رضاه . فيشفق أن يقع ابنه فى معصية ثم ينجو من الحدّ الذى شرعه الدين ، وهو مسئول عن الولاة والحدود ، ومسئول عن ذويه الأقربين قبل سائر المسلمين .

كل أولئك كما قلنا سائغ لاغرابة فيه .

أما الغريب من عمر حقاً فى معدلته وعلمه بالدين وكراهته رياء الناس فهو أن يتم على ابنه الحدّ وهو ميت . أو يشتدّ فى إقامة الحدّ على ابنه حتى يتلف أو يصاب بما يتلفه بعد أيام .

فلا موجب لذلك من حكم دين ولا اتقاء تبعة .

وهو مع هذا مخالف لما عرف عن عمر فى إقامة الحدود خاصة وفى مثل هذه العقوبة بعينها .

فقد جىء له يوما بشارب سكران وأراد أن يشتد عليه فقال له : لأبعثنك إلى رجل لاتأخذه فيك هوادة . فبعث به إلى مطيع بن الأسود العبدى ليقيم عليه الحد فى غده . ثم حضره وهو يضربه ضرباً شديداً فصاح به : قتلت الرجل . كم ضربته ؟ قال : ستين ، قال : أقصّ عنه بعشرين . أى ارفع عنه عشرين ضربة من أجل شدّتك عليه فيما تقدم من الضربات .

وقد كان من دأبه أن يتريث فى إقامة الحدود ، حتى ليؤثر - كما قال - تعطيلها فى الشبهات على أن يقيمها فى الشبهات .

ومر بقوم يتبعون رجلا قد أخذ فى ريبة فقال : « لا مرحباً بهذه الوجوه التى لا ترى إلا فى الشرّ » .

وربما غضب على الوالى من كبار الولاة لغلوّه فى تقاضى الحدود على المعاصى كما فعل فى إنذاره الشديد لأبى موسى الأشعرى حين جلد شارباً وحلق شعره وسوّد وجهه ونادى فى الناس ألا يجالسوه ولا يؤاكلوه . فأعطى الشاكى مائتى درهم وكتب إلى أبى موسى « لئن عدت لأسوّدنّ وجهك ولأطوفنّ بك فى الناس » وأمره أن يدعو المسلمين إلى مجالسته ومؤاكلته وأن

يمهله ليتوب ويقبل شهادته إن تاب .

وتفقَّد رجلا يعرفه فقيل له إنه يتابع الشراب . فكتب إليه : إنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديدُ العقاب ذي الطَوْل لا إله إلا هو إليه المصير » فلم يزل الرجل يردّدها ويبكى حتى صحت توبته وأحسن النزع وبلغت توبته عمر فقال لمن حضروا مجلسه : هكذا فاصنعوا . إذا رأيتم أخاً لكم زلّ زلة فسددوه ووفقوه وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه .

وقد تكرر منه إعفاء الزانيات من الحدّ لشبهة القهر والعجز عن المقاومة ، وتكرر منه الإعفاء لمثل هذا العذر فى غير ذلك من الحدود .

فلم يكن عمر بالسريع المتعطش إلى إقامة الحدّ ، ولم يعرف عنه قط أنه أقام حدّاً وله مندوحة عنه .

وفى قصة ولده منادح شتى ترضيه على شدّة تحرّجه وتحرّيه . ثم لاحاجة بمثله إلى رياء العدل فيجور على ابنه ويسرف فى القسوة عليه ، ليقال إنه سوّى بينه وبين غيره .

وأصح من ذلك أن نأخذ برواية عبد الله بن عمر وهو أحق الناس بالمبالغة فى عدل أبيه لو كانت المبالغة مما يجمل بمثله . فقد

روى هذه القصة فقال ماخلاصته : أن أخاه عبدالرحمن وأباسروعة عتبة بن الحارث سكرا فلما أصبحا انطلقا إلى عمرو بن العاص وهو أمير مصر فقالا : طهرنا فإنا قد سكرنا من شراب شربناه . ! ولم أشعر أنهما أتيا عمرو بن العاص ، فقلت : والله لايحلق اليوم على رؤوس الأشهاد . ادخل أحلقك ! وكانوا إذ ذاك يحلقون مع الحد فدخل معى الدار فحلقت أخى بيدى ، ثم جلدهما عمرو بن العاص فسمع عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو أن ابعث إلىّ بعبد الرحمن ابن عمر على قتب ... ففعل ذلك عمرو . فلما قدم عبدالرحمن على عمر جلده وعاقبه من أجل مكانه منه . ثم أرسله فلبث شهراً صحيحاً ثم أصابه قدره فتحسّب عامة الناس أنه مات من الجلد ولم يمت منه .

هذه رواية عبدالله عن أبيه وأخيه ، ولو كان الأمر مبالغة فى عدل عمر لكان الآبن أحق الناس بهذه المبالغة ، أو كان الأمر رحمة بعبد الرحمن لكان الأخ أحق الناس بهذه الرحمة . ولكنه أمر صدق لانقص فيه ولا زيادة .

فالذى يجوز لنا أن نقبله من هذه القصة هو الجانب الذى يستقيم مع خلائق عمر ولا يناقضها . وهو العدل الصحيح فى محاسبة ولده على ذنبه ولا زيادة ، ولاسيما الزيادة التى لاتستقيم مع عدله ورحمته على السواء . وكلا العدل والرحمة من صفاته الأصيلة فيه .

نعم كانت الرحمة من صفاته التى وازنت فيه العدل أحسن موازنة ... فما عهد فيه أنه أحب العدل لغضه من الأقوياء المعتدين ، كما كان يحبه لنجدته الضعيف المعتدى عليه .

ولا يمنعن ذلك أنه كان خشن الملمس صعب الشكيمة جافياً فى القول إذا استغضب واستثير فليست الخشونة نقيضاً للرحمة ، وليست النعومة نقيضاً للقسوة . وليس الذين لايستثارون ولا يستغضبون بأرحم الناس . فقد يكون الرجل ناعماً وهو منطو على العنف والبغضاء ، ويكون الرجل خشناً وهو أعطف خلق الله على الضعفاء ، بل كثيراً ما تكون الخشونة الظاهرة نقاباً يستتر به الرجل القوى فراراً من مظنة الضعف الذى يساوره من قبل الرحمة . فلا تكون مداراة الرقة إلا علامة على وجودها وحذراً من ظهورها .

ومن المألوف فى الطبائع أن الرجل الذى يقسو وهو معتصم بالواجب قلما ينطبع على القسوة ، ولا سيما إذا كان الواجب عنده شيئاً عظيما يزيل كل عقبة ويبطل كل حجة ويقطع كل ذريعة . فهو إنما يعتصم بالواجب فى هذه الحالة كما يعتصم الإنسان بالحصن المنيع كلما خشى أن تقتحم عليه طريقه ، ولولا خوف الرحمة أن تغلبه لما كانت به حاجة إلى ذلك الحصن المنيع ، ولا سيما حين يكون

حصناً بالغاً فى المنعة كما كان الواجب عند عمر بن الخطاب .

أرأيت هذا الرجل الصارم الحازم قاسياً قط إلا باسم واجب أو فى سبيل واجب ؟ كلا . وما نذكر أننا سمعنا رواية واحدة من روايات شدته إلا لمحنا الواجب قائماً إلى جانبها يزكيها ويسوّغها . ومن كانت القسوة طبعاً فيه فما هو بحاجة إلى واجب يغريه بالقسوة بل هو فى حاجة إلى واجبات عدة تنهاه عنها وتغريه باجتنابها .

وليس قصاراه فى هذا الخلق أنه غير قاس أو أن الرحمة كانت تنفذ إلى قلبه كلما طرقته واتخذت سبيلها إليه ، فإن نصيبه من الرحمة قد كان أوفى جدا من ذاك ، وكانت هذه الفضيلة من فضائله الأصيلة فيه لا تكاد تفارقه فى عامة حياته ، حتى ليصح أن تضرب الأمثال برحمته كما كانت تضرب الأمثال بعدله . وأن يقرن معه لقب العادل بلقب الرحيم .

وفى صدد الكلام عن الخليفة الإسلامى الكبير قد يهمنا خلق الرحمة فيه خاصة ، لأن شأنها فى التقريب بينه وبين الإسلام غير قليل .

فمن المحقق أن رقته للمسلمين والدين الذى يدينون به كانت مقرونة فى أول الأمر برحمته لامرأتين ضعيفتين رآهما فى حالة من الشكوى تلين القلب وتكف الغرب وتمسح جفوة العناد والبغضاء .

الدمع

قالت أم عبد الله بنت حنتمة : لما كنا نرتحل مهاجرين إلى الحبشة أقبل عمر حتى وقف علىّ ، وكنا نلقى منه البلاء والأذى والغلظة علينا ، فقال لى : إنه الانطلاق يا أم عبد الله ! قلت : نعم . والله لنخرجنّ فى أرض الله ... آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجا . فقال : صحبكم الله ، ورأيت منه رقة لم أرها قط .

المسفر

وحديثه مع أخته فاطمة فى سبب إسلامه مشهور متواتر فى أوثق الروايات . فإنه ضربها حين علم بإسلامها فأدمى وجهها ، فأدركتها الثورة الخطّابية التى فيها منها بعض ما فيه وقالت وهى غضبى : ياعدوّ الله ! أتضربنى على أن أوحد الله ؟ قال غير متريث : نعم ! فقالت : ما كنت فاعلا فافعل . أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . لقد أسلمنا على رغم أنفك .

ويذكر لنا رواة القصة التى اتفقت عليها روايات كثيرة أنه ندم وخلى عن زوجها — بعد أن صرعه وقعد على صدره — ثم انتحى ناحية من المنزل وطلب الصحيفة التى كتبت فيها آيات القرآن ، وخرج من ثمة إلى حيث لقى النبى فأعلن شهادة الإسلام على يديه .

وغير عسير علينا أن نرقب طوية عمر ونرى كيف كانت تتمشى فيها الخوالج والخطرات وهو يتحدّث إلى المرأتين :

بنت حنتمة وبنت الخطاب .

فهذا بطل مناضل يشحذه النضال إذا لقى أنداده من الأبطال وأقرانه من الرجال : الإساءة تتبعها الإساءة والتحدّى يعقبه التحدّى ، وكلما قوبل البطش بمثله تضرّمت سورة الغضب وثارت نحيزة القتال ، ومضى العداء شططاً لا اعتدال فيه ولا نكوص عنه حتى ينكسر عدوٌّ من العدوّين . فلا موضع هنا لرحمة ولا سبيل لها إلى ظهور . وتتمادى الشرة على ذلك شهوراً وسنيناً وكأن الرحمة لم تخلق فى النفس ولم يسمع لها فى حنايا الصدور صوت .

أما المرأة الشاكية أو المرأة الدامية إذا واجهت ذلك البطل القوى فما حاجته إلى قوّته ونضاله ؟ وما أحرى تلك القوة أن تهدأ فى مكانها كأنها هى الخليقة الخفية التى لم تخلق وليس لها صوت مسموع ! وما أقربها إذاً إلى أن تخجل من إيذائها وتندم على قسوتها وتثوب إلى التوبة والخشوع ، وهما من لباب الدين .

إن العرب يشتقون الرحمة من الرحم أو القرابة ، وهو اشتقاق عميق المغزى يهدينا إلى نشأة هذه الفضيلة الإنسانية العالية ، ومودّة عمر بن الخطاب لرحمه وذوى قرباه لا تنحصر دلائلها فى رحمته لأخته الشاكية الثائرة . فإن المرأة قد تُرحم لضعفها فى موقف شكواها ويأسها ولو كانت بعيدة الآصرة منقطعة النسب . إنما يدل

على مودّته لذوى قرباه ذلك الحب الذى كان يضمره لأبيه بعد موته مع شدّته عليه وغلظته فى زجره وتأديبه . فكان يطيل الحديث عنه وينقل أخباره ويقسم باسمه . وظل يقسم باسمه وهو كهل إلى أن نُهى المسلمون عن القسم بأسماء من ماتوا على الجاهلية .

وندر بين الناس من أحب إخوته كما كان عمر يحب أخاه زيداً فى حياته وبعد مماته ، فما شاء أحد أن يُبكيه إلا ذكره له ففاضت شؤنه ، وجعل بعد قتله يتأسى بمن أصيب مثل مصابه ولا يرى أحداً فقد أخاً له إلا التمس الأسوة عنده .

حكى أحمد بن عمران العبدى عن أبيه عن جده قال : « صليت مع عمر بن الخطاب الصبح ، فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل قصير أعور متنكباً قوسه وبيده هراوة فسأل : من هذا ؟ فقيل متمم بن نويرة . فاستنشده رثاءه لأخيه فأنشده حتى بلغ إلى قوله :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا ... لطول افتراق لم نبت ليلة معا

فقال عمر : هذا والله التأبين : يرحم الله زيد بن الخطاب ! إنى لأحسب أنى لو كنت أقدر على أن أقول الشعر لبكيته كما بكيتَ أخاك . ثم سأله : ما أشد مالقيت على أخيك من الحزن ؟ فقال : كانت عينى هذه قد ذهبت فبكيت بالصحيحة فأكثرت البكاء حتى

أسعدتها العين الذاهبة وجرت بالدمع . فقال عمر : إن هذا لحزن شديد . ما يحزن هكذا أحدٌ على هالك . قال متمم : لو قتل أخى يوم اليمامة كما قتل أخوك ما بكيت أبدا . فصبر عمر وتعزى عن أخيه وقال ما عزّانى أحدٌ عنه بأحسن مما عزيتنى ... »

هذا هو عمر من وراء النقاب .

فما كان أحوجه رضى الله عنه إلى ذلك النقاب ، وما أقل الغرابة فى ذلك النقاب من الشدة والهيبة حين ينفذ الناظر إلى ما وراءه فيرى مكان الحاجة إليه .

وقد يرحم الرجل أهل الرحم والقرابة ويجفو غيرهم من الناس ، ولكن الرحمة الأصيلة فى الطباع تسوى فى المودة ولا تفرق ، وتخلق هى سبب الرحمة ولا تنتظر حتى تفرضها عليها القرابةُ بأسبابها . فكان عمر كما روى « الحسن » يذكر الصديق من أصدقائه بالليل فيقول : ياطولها من ليلة ! فإذا صلى الغداة غدا إليه . فإذا لقيه التزمه أو اعتنقه .

وكان بكاء طفل يزعجه ويقطع عليه صلاته وينغص عليه ليله .

قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلّى فاقترح على عبد الرحمن ابن عوف أن يذهبا ليحرساهم من السرق ، ثم باتا يحرسان ويصليان . فسمع بكاء صبىّ ، فتوجه نحوه وقال لأمه : اتق الله

وأحسنى إلى صبيك . ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه فرجع إلى أمّه كرّة أخرى ، ثم سمع بكاءه آخر الليل فقال لأمّه : ويحك ! إنى لأراك أمّ سوء . مالى أرى ابنك لا يقرّ منذ الليلة ؟ قالت : يا عبد الله ! قد أبرمنى منذ الليلة إلى أربعة عن الفطام . فسألها : ولم؟ فقالت : لأن عمر لايفرض إلا للفطيم ! فسألها : وكم له ؟ فلما علم أنها فطمته دون سنّ الفطام أمر منادياً فنادى ألا تعجلوا صبيانكم عن الرضاع فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام .

وقصته مع الصبية الجياع مشهورة ولكنها تعاد لأنها أحق قصة بأن تعاد .

قال أسلم : خرجنا مع عمر رضى الله عنه إلى حرّة واقم حتى إذا كنا بصرار (١) إذا نارٌ تؤرّث فقال : يا أسلم إنى أرى هاهنا ركباناً قصّر بهم الليل والبرد . انطلق بنا !

« فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا بامرأة معها صبيان وقدرٌ منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون . فقال عمر : السلام عليكم يا أهل الضوء . وكره أن يقول : يا أصحاب النار . فأجابته امرأة : وعليكم السلام ! فقال : أأدنو ؟ فقالت : ٱدنُ بخير أو دع . فدنا منها فقال : ما بالكم ؟ . قالت : قصر بنا الليل والبرد

(١) مكان على مقربة من المدينة .

قال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع ! قال : وأيّ شيء فى هذه القدر ؟ قالت : ماءٌ أُسكتهم به حتى يناموا . . والله ُ بيننا وبين عمر ! فقال : أى رحمك الله . وما يُدرى عمر بكم ؟ فقالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ؟ فأقبل علىَّ فقال : انطلق بنا .

« فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق . فأخرج عدلا من دقيق وكبةً من شحم ، وقال : احمله علىّ ! قلت : أنا أحمله عنك . قال : أنت تحمل وزرى يوم القيامة لا أُمّ لك !

« فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها : ذرّى علىّ وأنا أحرّ لك (١) .

« وجعل ينفخ تحت القدر . وكانت لحيته عظيمة ، فرأيت الدخان يخرج من خلالها حتى طبخ لهم . ثم أنزلها وأفرغ الحريرة فى صحفة وهو يقول لها : أطعميهم وأنا أسطح لهم أى أبرّده ، ولم يزل حتى شبعوا وهى تقول له : جزاك الله خيراً . كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين ...

وأمثال هذه القصة فى سيرة عمر كثير ، لا يقال إنها هى ومثيلاتها من الشعور بالتبعة وليست من الرحمة . لأن العهد

---

(١) أى أتخذ لك حريرة وهى الحساء من الدقيق والدسم .

بالشعور بالتبعة أن يأتى من الرحمة ، وليس العهد بالرحمة أن تأتى من الشعور بالتبعة !

كذلك لايقال إنه قد كان يطيع أمراً سماوياً تحركت له نفسه أو لم تتحرّك . فإن النفس التى تتحرّك للأمر السماوى هى النفس التى فيها الخير ولها رغبة فيه ، وقلما تشفق من عقاب السماء إلا أن تشعر بألم الظلم ومبلغ استحقاقه للعقاب .

على أن عمر كان يرحم فى أمور يحول فيها النفور الدينى دون الرحمة عند كثيرين .

فمن ذلك أنه رأى شيخاً ضريراً يسأل على باب . فلما علم أنه يهودىّ قال له : ماألجأك إلى ماأرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن ! فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله . فأعطاه مايكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول : انظر هذا وضرباءه فوالله ماأنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم . إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب ... ووضع عنه الجزية وعن ضربائه .

فهنا علّمته الرحمة كيف يطيع الدين ، ولن يطيع الدين هكذا إلا رحيم .

وقد فرض عمر لكل مولود لقيط مائة درهم من بيت المال

كما فرض لكل مولود من زوجين ، وهى رحمة قد يحجبها النفور من الزنا وثمراته فى نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون .

بل كان يرحم كل مخلوق حىّ حتى البهيم الذى لا يبين بشكاية ، فروى المسيّب بن دارم أنه رآه يضرب رجلا ويلاحقه بالزجر لأنه يحمّل جمله ما لا يطيق .

وكان يدخل يده فى عقرة البعير الأدبر ليداويه وهو يقول : إنى لخائف أن أُسأل عما بك . ومن كلامه فى هذا المعنى : لو مات جدى بطف الفرات لخشيت أن يحاسب به الله عمر .

وإنه لشعور بالتبعة عظيم .

لكنه كما أسلفنا لن ينبت فى قلب كلِّ أمير عليه تبعة ، إلا أن يكون به منبت للرحمة عظيم .

* * *

فنحن إذاً بإزاء صفة كبيرة إلى جانب صفة كبيرة : الرحمة إلى جانب العدل ، وكلتاهما من البروز والوثاقة وعمق القرار بمثابة العنوان الذى يدل على صاحبه ، أو بمثابة العنصر الأصيل الذى يلازمه ويلابسه ولا يفارقه فى جملة أعماله .

ومن خصائص عمر أنه كان على هذا الشأن فى جميع صفاته المشهورة ، خلافا للمعهود فى الصفات الغالبة بين الناس من المحامد

كانت أو العيوب . إذ قلما يوسم إنسان بأكثر من صفة غالبة بهذه المثابة من التأصل والبروز ، فهو عادل أو رحيم أو غيور أو فطن أو وثيق الإيمان ، ثم تطغى إحدى هذه الصفات على سائرها فلا تعطيها إلى جانبها مكانة رسوخ واستقرار .

وعلى غير هذا العهد كان عمر فى جميع صفاته الكبيرة التى ذكرناها ، فكانت كل صفة منها فى قوتها ورسوخها تكفى للغلبة على شخصية تتسم بها ولا تذكر بغيرها ، وإنه ليتصف بها فتأخذ من سماته ومعالمه ما يخصصها به ولو كانت من الصفات القومية الشائعة فى أبناء جلدته جميعاً ، فيخيل إليك أنها سمة مميزة له لم توجد فى غيره .

فأحرار العرب كلهم غيور . ولكنك إذا قلت « العربى الغيور » فكأنما سميت عمر بن الخطاب . لأنه طبع هذه الصفةَ القوميةَ بطابعه الذى لا يشبهه فيه غيره ، فكان الغيور بين الغيورين

قال أكبر أصدقائه وأكبر العارفين به محمد عليه السلام : « إن الله غيور يحب الغيور . وإن عمر غيور » .

وتحدث إلى صحبه يوما وعمر فيهم فقال : بينا أنا نائم رأيتنى فى الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر . فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقالوا : لعمر . فذكرت غيرته فوليت مدبرا ... فبكى عمر

وقال كالمعتذر : أعليك أغار يارسول الله ؟ » .

وكانت هذه الغيرة معروفة مخشية بين جميع من يعرفونه ويسمعون بطباعه ، والنساء من باب أولى يعرفنها ويعهدنها ويتقينها كما لم يتقينها قط من غيره .

استأذن على النبي يوما وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن ، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب فدخل والنبيّ يضحك .

قال عمر : أضحك الله سنك يارسول الله ... كأنه يسأله عن سبب ضحكه . فقال عليه السلام : عجبت من هؤلاء اللاتى كنّ عندى لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب .

قال عمر : فأنت يارسول الله كنت أحق أن يهبن . ثم التفت إليهنّ يقول : أى عدوات أنفسهنّ ! أتهبننى ولاتهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قلن - ولايخذل المرأة لسانها فى هذا المقام : نعم أنت أغاظ وأفظ من رسول الله !

وحسبك من غيرته أنه هو الذى أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بحجاب أمهات المسلمين ، وكان يرى إحداهن فى الظلام ذاهبة لبعض شأنها فيقول لها : عرفتك يا فلانة ! ليريها أنها فى حاجة إلى

مزيد من التحجب . وقد ضجرت إحداهن منه لهذا فقالت له : وأنك علينا يا ابن الخطاب والوحى ينزل فى بيوتنا ؟

على أن الغيرة فى ابن الخطاب لم تكن غيرة مقصورة على المرأة وكفى . بل غيرته على المرأة لم تكن إلا شطراً من غيرته على كل حرم وحوزة . فمن هـذه الغيرة العامة سياسته العربية التى كانت تصدّ الغرباء عن جزيرة العرب كأنها الحرم الموصد ، ومنها غيرته على الزى العربى والشمائل العربية ، ومنها غيرته على العقيدة وحدود الشريعة ، وغيرته على كل حق يحميه غيور .

والأحاديث عنه فى هذه الخصلة تتعدّد فى معارض شتى كما تعدّدت أحاديث عدله ورحمته وكل صفة بارزة فيه . فشأن هذه الصفات أن يظهرن أبداً حيث ظهر له قول أو عمل ، لأنهن أصيلات مطبوعات يختلطن بكل ما عمل وقال .

إلا أنك تقرأها جميعاً فتخرج منها بأثر واحد لا اختلاف فيه .

ذلك أن عمر كان يغار على حق ولا يغار من أحد ولا ينفس على ذى نعمة .

فإذا قيل لك إن عمر قد غار فلن يخطر لك أن تسأل : ممن كانت غيرته ؟ وإنما يخطر لك أن تسأل فى كل مرة : علام غار ؟ ولأى شىء كان يغار ؟

فهو يغار على حق ، أو يغار على عرض ، أو يغار على دين ، أو يغار على صديق أو صاحب حرمة ، ولا يغار من هذا أو ذاك لنعمة أصابها هذا أو ذاك .

إنما كان يغار على شيء يحميه ويعلم من نفسه القدرة على حمايته ، فهى غيرة من يريد الحماية لغيره ، ولا يريد انتزاع الخير لنفسه أو غلبة إنسان على حظه .

رجل قوى ، جياش الطبع ، شديد الشكيمة ، مؤمن بالحق وحرماته ، قادر على تقويم من يحيد عنها ويجترئ عليها . فإن لم يكن هذا غيوراً فمن يكون الغيور ؟

وقل فى ذكائه وفطنته وألمعية ذهنه ما تقول فيما اشتهر به من صفات العدل والرحمة والغيرة ، وإن كانت هذه الصفة أحوج منهن إلى الشرح والتحليل .

فبعض المستشرقين الذين أثنوا عليه قد عرضوا لأمر تفكيره فوصفوه بأنه محدود التفكير ، أو أنه يأخذ الأمور بقياس واحد .

ونحن لانقول إن عمر رضى الله عنه خُلق بذهن عالم بحاثة منقطع للكشف والتنقيب ، ولا أنه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر فى مناحى الظنون والفروض ،

ولا أنه خلق بذهن منطيق يدور بين الأقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين . فالواقع أنه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه ، وأنه كان معنياً بالعمل قبل عنايته بالنظر أو الفرض والتقدير ، ولكن الفرق بعيد بين هذا وبين الفكر المحدود والنظر الذى يقيس الأمور بقياس واحد .

فعمر كانت له فطنة الرجل العليم بنقائض الأخلاق وخبايا النفوس ، ولم يحكم عليها قط كأنه ينظر إليها من جانب واحد أو يطبعها فى تفكيره بطابع واحد . بل علم الدنيا وعلم كيف يتقلب الإنسان ، وراح فى علمه هذا يراقب الناس مراقبة الحذور ، ويقيم عليهم الأرصاد إقامة الرجل الذى لايفوته أن ينتظر منهم ماينتظر من خير وشرّ وقوة وضعف وصلاح وفساد .

وكفى من كلماته الدالة عليه أن تذكر أنه كان يحب أن يعرف الشر كما يعرف الخير ، لأن « الذى لايعرف الشر أحرى أن يقع فيه » وأنه كان يحب أن يعرف الأعذار كما يعرف الذنوب حيث يقول : « أعقل الناس أعذرهم للناس » وأنه هو القائل : « احترسوا من الناس بسوء الظنّ » وهو القائل مع ذاك : « أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر » ... يوفق فى هذين القولين بين سهر الحاكم الذى لاينبغى أن تخفى عليه

خافية وبين عدل القاضى الذى لاينبغى أن يحكم بغير بينة ظاهرة .

بل لوكان عمر بن الخطاب محدود التفكير ينظر إلى الأمور من جانب واحد لما كثرت مشاورته للكبار والصغار والرجال والنساء مشاورة من يعلم أن جوانب الآراء تتعدّد وأن للأمور وجوهاً لاتنحصر فى الوجه الذى يراه . وكثيراً ماقال : « أخوف ماأخاف عليكم إعجاب المرء برأيه » وليس استطلاعُ الآراء ولا الخوف من الإعجاب بالرأى شيمةَ رجل محصور التفكير ضيق المنافذ إلى الحقيقة .

وقد عاشره أناس من الدهاة فخبروه وحذروه ! . وقال المغيرة بن شعبة لعمرو بن العاص : أأنت كنت تفعل أو توهم عمر شيئاً فيلقنه عنك ؟ والله مارأيت عمر مستخلياً بأحد إلا رحمته كائناً من كان ذلك الرجل . كان عمر والله أعقل من أن يُخدع وأفضل من أن يخدع ... » .

إنما كان عمر كما وصف نفسه « ليس بالخب ولكن الخب لايخدعه » وهذا هو الحدّ الفاصل أحسن الفصل بين الدهاء المحمود والدهاء المذموم ، أو بين الفهم الصحيح والخبث القبيح . فهناك فطنة تسىء الظن لأنها تعرف الشرور التى فى طبائع الناس ، وفطنة تسىء الظن لأنها تشعر شعور السوء ، والفرق

بينهما عظيم كالفرق بين الخير والشر والمحمدة والمذمّة . فالفطنة الأولى معرفةٌ حسنة والفطنة الثانية خلق ردىء ، وإنما كان عمر بالفطنة الأولى معصوما من أن يخدع غيره أو ينخدع لغيره ، وهذا هو الحد القوام الذى لا نقص فيه من جانبيه .

وكانت له فى استيحاء الخفايا قدرة تقرب من مكاشفة الغيب لولا أنها تستند إلى التقدير الصحيح والظن المدعوم بالخبرة ، وحكاية واحدة من هذا القبيل تغنى عن حكايات ، وهى حكايته مع المغيرة الذى استكثر على عمرو بن العاص أن يوحى إلى عمر بمراده ويتداهى عليه .

فقد همّ عمر رضى الله عنه بأن يعزل المغيرة عن العراق ويولى جبير بن مطعم مكانه ، وأوصى جبيراً أن يكتم ذلك ويتجهز للسفر . فأحس المغيرة وسأل جليساً له أن يدس امرأته وهى مشهورة بلقط الأخبار حتى سميت « لقاطة الحصا » لتستطلع النبأ من بيت جبير . وذهبت إلى بيته فإذا امرأته تصلح أمره فسألتها : إلى أين يخرج زوجك ؟ قالت : إلى العمرة ! قالت لقاطة الحصا : بل كتمك . ولو كانت لك عنده منزلة لأطلعك على أمره ! فجلست امرأة جبير متغضبة ودخل عليها وهى كذلك ، فلم تزل حتى أخبرها وأخبرت لقاطة الحصا . وذهب المغيرة إلى عمر ففاتحه بما علم

وهو يقول له : بارك الله لأمير المؤمنين فى رأيه وتوليته جبيراً ! فلم يعجب عمر من وقوفه على السرّ بل قال : كأنى بك يامغيرة قد فعلت كيت وكيت كأنما سمع ورأى . . . وأنشدك الله هل كان كذلك ؟ قال المغيرة : اللهم نعم . ثم صعد عمر إلى المنبر ونادى فى الناس : أيها الناس ! من يدلنى على المخلط المزيل النسيج وحده ؟ فقام المغيرة فقال : ما يعرف ذلك فى أمتك أحد غيرك !. . فأبقاه على ولايته ولم يزل واليه على العراق حتى مات .

وإنما كانت مجاراته للداهية من هذا القبيل إعجاباً بحصافته لا انخداعا بمكره ، وقد يتغابى ويعمل مايريده المتداهى عليه لأنه أدرك مرمى كلامه وفهم ما فيه من صواب ، كما صنع مع عمرو ابن العاص فى خطبة أم كلثوم بنت على رضى الله عنهما . . وسيأتى الكلام عنها فى فصل تال .

على أن القدرة الذهنية التى امتاز بها عمر فى غنى عن الاستدلال عليها بما قال وما قيل فيه وما دار بينه وبين بعض القوم من المساجلات والمحاورات . إنه عمل مالم يعمله إلا القليل من أقدر الحكام فى تاريخ بنى الإنسان ، وكفى بذلك دليلا على قدرته الذهنية لاحاجة بعده إلى دليل : ساس شعوباً بينها من الاختلاف مثل ما بين العرب والفرس وبين الفرس والقبط

والسوريين ، ونصب ولاة وانتدب قواداً وسيَّر بعوثاً وأشرف على ميادين قتال وأقام نظما فى الحكومة وراقب رعاة ورعية فيما يعلنون وما يبطنون ، ونجح فى كل ما عمل نجاحاً منقطع النظير غير مردود إلى المصادفة ولا إلى ارتجال المغامرين ، وليس هذا كله مما يضطلع به رجل محدود الفكر ضيق الأفق قليل الخبرة بالجماعات والأفراد . فإذا استوفى هذا الحظ الوافى من القدرة الذهنية فذلك حسبه منها وحسب كل من تصدّى لمثل عمله ونهض بمثل وقره . ولا عليه بعد ذلك أنه لم يفكر على نمط الفلاسفة وأقطاب العلم وأساطين المنطق والرياضة ، فإن الدنيا لم تخرج لنا عمر ليزيدنا أفلاطون آخر أو إقليدس ثانياً أو فارداى سابقاً فى الزمن القديم بل أخرجته للناس ليكون مؤسس عهد ومحوّل تاريخ . فإذا تأدّى به عقله إلى تلك الغاية فهو العقل الصائب يفكر على النحو الذى خُلق له ويبلغ القصد الذى رمى إليه . وعلينا نحن أن نعرف كيف كان تفكيره وأن نسلكه بين قرنائه وأنداده .

إنما طرأت شبهة العقل المحدود على المستشرقين الذين ظنوا به هذا الظن من ناحية واحدة ، وهى ناحية العدل الذى لا يلتفت ذات اليمين وذات الشمال ، والقضاء الذى يكيل الجزاء دقة بدقة ولا يبالى بالنقائض والمفارقات .

ونظروا إلى جملة آرائه فى المسائل الجلَّى فإذا هى من الآراء التى يغلب عليها القطع والجزم والآنطلاق إلى غرض ماثل لا تنحرف عنه قيد شعرة . كأنه قد جهل ما فى الدنيا من نقائض وخفايا ومن عوج وتعريج ، أو كأنه السهم الثاقب ينفذ فيما أمامه إلى هدفه المحدود ولا يلتفت إلى شىء فى نفاذه أو يعوقه عائق دونه .

نخطر لهم أن فطنته إنما كانت فطنة فراسة فطرية كالغريزة التى تهتدى على استقامة واحدة ، ولكنها لا تنحرف ولا تتصرف ولا تخالف ماجبلت عليه ، وأنها فطنة العقل المحدود والبصر الموكل بجانب واحد ينفذ فيه ولا يحيط به أو يتشعب فى نواحيه .

والفكر المحدود هنا هو فكر أولئك المستشرقين لا فكر عمر بن الخطاب .

فالرجل الذى يستقيم على وجه واحد لا يحيد عنه ، هو واحد من رجلين :

فإما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه لا يرى غيره ولا يحيط بما حوله .

وإما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه قادر على اختراق العقبات عالمٌ أنها تنثنى إليه حيث كان دون أن ينثنى إليها حيث كانت .

واستقامة عمر بن الخطاب على وجهه من هذا القبيل وليست

من ذلك القبيل :

هى استقامة قدرة وليست باستقامة عجز ، وهى استقامة تصرف سريع وليست باستقامة محجور مقيد ، يأبى أن يدور لأنه قد أعياه أن يدور .

هى استقامة حياة غلابة ، وليست باستقامة أداة كالموازين تسوى بين التبر والتراب لأنها لاتميز بين التبر والتراب .

فالرجل الذى يجتنب التصرف فى العدل عجزاً عن الفهم والتزاماً للحرف المكتوب ونزولا إلى مرتبة الموازين التى لاتعى ولا تغضب ولا تغار إنما هو آلة فقيرة فى مادّة الحياة .

أما الذى يجتنب التصرف فى العدل غيرة على الضعيف وقدرة على القوى ، وعلماً بالتبعة واضطلاعاً بجرائرها فذلك حىّ غنى بالحياة يعدل لفرط السليقة الإنسانية والقدرة الحيوية ، ولا يعدل لأنه آلة تشبه الميزان الذى لاحس فيه .

وشتان بين هذا وذاك . إنهما لنقيضان وإن كانا فى ظاهر الأمر شبيهين متقاربين .

والاعتماد على الأمثلة الخاصة أولى بنا فى هذا المعرض من الاعتماد على القواعد العامة والتقريرات النظرية .

فهذه أمثلة ثلاثة من أمثلة العدل الذى يبدو لأول وهلة كأنه

عدل الموازين الآلية حين تسوّى بين الأوزان وإن اختلفت القيم والأقدار ، وتفصل فى الأنصباء بغير نظر إلى فوارق الدنيا ومقتضيات السياسة وتبدّل الأحوال ... ونختارها من أجهر الأمثلة وأدناها إلى تأييد شبهات المستشرقين فيما زعموه من العقل المحدود . لنرى على قدر ضخامة هذه الأمثلة ضخامة الخطأ فى استخراج ماتدل عليه .

كان عمرو بن العاص والياً لمصر وكان ابنه يجرى الخيل فى ميدان السباق ، فنازعه بعض المصريين السبق واختلفا بينهما لمن يكون الفرس السابق . وغضب ابن الوالى فضرب المصرى وهو يقول : أنا ابن الأكرمين ! فاستدعى عمر الوالى وابنه حين رفع إليه المصرى أمره ، ونادى بالمصرى فى جمع من الناس أن يضرب خصمه قائلا له : اضرب ابن الأكرمين ! ثم أمره أن يضرب الوالى لأن ابنه لم يجرؤ على ضرب الناس إلا بسلطانه ، وصاح بالوالى مغضباً : بم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ فما نجا من يده إلا برضى من صاحب الشكوى واعتذار مقبول .

وكان خالد بن الوليد أشهر قادة الإسلام فى زمانه فأحصى عليه عمر بعض المآخذ ومنها إنفاقه من بيت المال فى غير مايرضاه . فأمر به أن يحاكم فى مجلس عام كما يحاكم أصغر الجند ، وعزله بعد مقاسمته فيما يملك من نقد ومتاع .

وكان جبلة بن الأيهم أميراً نصرانياً فأسلم وأسلمت معه طائفة من قومه . ثم وطئ أعرابى إزاره فلطمه جبلة على ملأ من حجاج بيت الله . فقضى عمر للأعرابى أن يلطم الأمير على ذلك الملأ ، لأن الإسلام لا يفرّق بين سوقة وأمير .

هـذه أمثلة العدل الذى لا يتصرف ولا يلتفت إلى الدنيا وما فيها من فوارق وتعريجات تتأبى على القصاص المستقيم ، وهى من أقوى الشبهات على النظر المحدود فى تقدير الجزاء بالحرف المكتوب ، دون التفات إلى الأحوال والمقتضيات .

فهل هى فى الواقع كذلك ؟ وهل كان على عمر أن « يتصرف » فى هذه الأقضية بلباقة الساسة الدهاة فى جميع الأزمان إذ يحتالون على حرف الشريعة ويدورون حول حدود القانون ؟

نعم كان عليـه ذلك لو عجز عن سنة المساواة واحتاج إلى الحيلة . فإنما يعاب على الوالى عدل الموازين ويحمد منه التصرف والدوران لأن المساواة تعييه ، أو لأن المساواة تعرّضه لعاقبة شر وأظلم من الإجحاف ، فإذا نظر إلى عاقبة المساواة فى المعاملة فرآها شرا وأظلم من عاقبة التفرقة والتمييز فقد وجب عليه إذاً أن يدور حول الحقيقة وألا يواجهها نصاً بغير انحراف .

ولـكن أين هذا من عمر وأين عمر من هذا ؟ إنه كان قويا

قادراً على العواقب ، وكان شديد الألم من ظلم الظالم شديد الخجل من خذلان المظلوم ، وكان وثيق الإيمان بنصر الله فى الحق وفى النجدة . فلماذا ينحرف ؟ ولماذا يتصرف ؟ ولماذا يدور ؟

كان قوياً بطبعه قويا بإيمانه . فلماذا يهاب قويًّا جار على ضعيف ؟ ولماذا يروغ من صرامة القاضى إلى دهاء السياسى الذى يدور حول الحقوق والحدود ؟

للمستشرقين المتحذلقين بالتفكير المحدود أن يأخذوا عليه تشهيره بكبار الولاة ويثبتوا به كل ماقالوه عن ذلك التفكير المحدود الذى ينسى الفوارق ولا يحتال على المحظورات ، ولكن بشرط واحد .

ذلك الشرط هو أن يتوقعوا ولو من بعيد أن يثور ابن العاص ونظراؤه على هذا القصاص ، فيختل حكم الدولة وينتشر الأمر على الخليفة ويقع من المحظور أضعاف ماكان واقعاً لو بطلت المساواة بين السوقة والولاة .

أما أن يكون ابن العاص ونظراؤه لايثورون ويعلمون من هو عمر وما هى عقباهم إذا ثاروا عليه .

وأما أن يكون عمر لايخشى تلك الثورة ولا يعي بها إذا هى فاجأته أو جاءته على انتظار .

وأما أن يكون الأمر فى ضميره وفى ضمائرهم يجرى على البديهة

التى لاخفاء بها ولا شك فيها . فكيف يقال إذن إن تفكير عمر فى قصاص الولاة كباراً وصغاراً تفكير محدود ؟ وأين هو فى هذه الحالة موضع التفكير المحدود ؟

إنه فى موضع واحد ، وهو كما أسلفنا موضع الناقد الذى يصف عمر بغير وصفه ، لأنه هو محدود الفكر فى قياس الرجال بمقياس واحد ، أو فى اعتقاده أن الخطوب تبقى كما هى ولا تتغير كلما تغيرت عليها أيدى الرجال .

لقد كان عمرو بن العاص خطراً على الخليفة الذى يغض منه لو كان غير عمر ، ولكنه هو والذين كانوا أجرأ منه على الفتك وأسرع منه إلى الغضب ـ لم يكن لهم من خطر إذا كان عمر هو الذى أمر بالعزل وهو الذى قضى بالقصاص .

فأجرأ منه ولا ريب كان خالد بن الوليد ، وأشهر منه بين سيوف الإسلام لو عمد إلى السيف . ومع هذا نقم خالد عزله فخطب الناس ومضى يقول : إن أمير المؤمنين استعملنى على الشام حتى إذا كانت بثنية — أى حنطة — وعسلا عزلنى وآثر بها غيرى ، فما أتمها حتى نهض له رجل من السامعين فقال له : صبراً أيها الأمير فإنها الفتنة . فما تردد خالد أن قال : أما وابن الخطاب حىّ فلا ...

نعم لا فتنة وابن الخطاب حيٌّ ولو كان الغاضب خالداً الغضوب ، ومن هنا حق له أن يشكو ولا جناح عليه .

وأطرف من هذا في هيبة عمر بين ولاته وقواده أنه كتب إلى أبي عبيدة يأمره أن يقاسم خالداً ماله نصفين . فقاسمه جميع ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : إن هذا لا يصلح إلا بهذا ... فأبى خالد أن يخالف أمر عمر وأعطاه إحداهما وأخذ الأخرى .

لقد نظرنا إلى عمر مستقيما ولم ننظر إلى الخطوب ، ولو نظرنا إليها لرأينا أنها انثنت لتنقاد له وتتقي مصادمته وتستقيم على منهاجه ... فعلمنا لم استقام دون أن يقدح ذلك في صدق نظره إلى الدنيا وصدق فراسته في خلائق الناس .

وندع قضايا الولاة وننظر في قضية الأمير الذي ارتد عن الإسلام هو وقومه لأن عمر أجبره على قصاص المساواة بينه وبين رجل من السوقة . فماذا كان ينبغي أن يفعل عمر غير ما فعل من المساواة الصادقة بين الأمير الضارب وخصمه المضروب ؟

لعل داهية من دهاة السياسة الذين يصفون أنفسهم بالنظر البعيد كان يؤثر إرضاء الأمير واستبقاء أتباعه في الإسلام والاحتيال على الشاكي بما يواسيه ويغنيه عن أن يسوي بين الخصمين ، ويمكن لضعيف من ضرب أمير اعتدى عليه .

فهل معنى ذلك أن عمر كان يعوزه دهاء أولئك الساسة وما عندهم من بعد نظر مزعوم ؟

كلا . بل معناه أن أولئك الساسة يعوزهم السخط على الظلم والغيرة على الحق واليقين بالقدرة والإيمان بمناعة الإسلام أن يصيبه غضب أمير صابئ بما يضيره ، ولو كثر أتباعه والصابئون فى ركابه .

معناه أنهم احتاجوا إلى التصرف وعمر لم يحتج إليه .

وهاهى ذى السنون قد مضت وتلتها الأحقاب والقرون فبدا لنا اليوم أن النظر البعيد والعدل الشديد فى هذه القضية يلتقيان ، وأن عمر كان أحسن المتصرفين فيها لأنه اجتنب التصرف الذى يهواه الدهاة . فقد أفاد الإسلام ما لم يفده بقاء جبلة وأتباعه على دينه ، ووقاه ضرراً أضخم وأوخم من نكوص أولئك الصابئين عنه : أفاده ثقة أهله بإقامة أحكامه واطمئنان الضعفاء إلى كنفه ورهبة الأقوياء من بأسه ، وسمعته فى الدنيا برعاية الحق وإنجاز الوعد وتصديق معنى الدين ، ولا معنى له إن كان أضعفَ بأساً من أمير وجب العقاب عليه .

ويجوز أن الفاروق لم ينظر إلى عواقب القرون كما ننظر إليها الآن ، بعد أن برزت من حيز الفرض إلى حيز العيان . غير أن

الأمر الذى لا يجوز فى اعتقادنا أنه عدل فى قضية جبلة ونظائرها عدل آلة أو عدل ميزان . إن الميزان لأقل من مخلوق له حياة . أما الفاروق فى هذه القضية فقد كان أكبر من الحياة الفانية ، كان بطلا يؤمن ويعمل بإيمانه ، وهكذا يعلو الإنسان ببطولة الإيمان .

والعبرة التى نخرج بها من هذا أن النظرة الأولى فى أخلاق عمر بن الخطاب حسنة ولكن النظرة الثانية هى على الأغلب الأعمّ أحسن من الأولى .

فالناقدون الأوروبيون الذين فسروا عدله المستقيم القاطع بالنظر الضيق والفكر المحدود لم يفهموه ولم ينصفوه ، ولو فهموه وأنصفوه لعلموا أن عدله المستقيم القاطع زيادة فى القدرة وليس بنقص فى الفطنة ، أو أنه زيادة فى قوة الثقة وقوة الإيمان وليس بنقص فى العلم والبداهة ، ولم يكن عسيراً عليهم أن يفقهوا ذلك لو راجعوا أنفسهم وتريثوا فى حكمهم ، لأن قوة الثقة وقوة الإيمان لا تخفيان فى خلق من أخلاقه ولا عمل من أعماله ، ولا تزالان ممزوجتين فيه بكل إقدام وبكل إحجام . فكان يقدم على أعظم الخطوب ويحجم عن أهون الهينات تحرجاً منها وتنزهاً عنها ، إذا اقتضى ذلك وازع من قوة الإيمان .

فلم يكن يمضى قدماً لأنه يغفل عما حوله من النواتى

والمنعرجات والسدود ، بل كان يمضى بينها قدماً لأنه لا يباليها ويؤمن أصدق الإيمان أنها تنثنى له إذا مضى فيها ، فلا حاجة به أن ينثنى إليها .

إنه ليعلم العوج ولكنه يعلم أنه أقدر منه ، لأنه يؤمن بحقه إيمان القوى الوثيق ، فله من قوته ومن إيمانه قدرتان .

إنه ليرفع العبء إلى كاهله وهو قائم لا يطأطئ للنهوض به ، فليس الفارق بينه وبين غيره أنه يجهل العبء الذى يعرفونه ، أو ينسى العواقب التى يذكرونها ، أو يتحلل من المصاعب التى يتحرّجون منها ... كلا ! إنما الفرق بينه وبينهم أنهم ينثنون للخطوب ، وأن الخطوب هى التى تنثنى إليه .

هذه القوة فى إيمانه كانت هى المسيطر الأكبر على كل خلق من أخلاقه ، وكل رأى من آرائه ، بل كانت هى المسيطر الأكبر على ماهو أصعب مقاداً من الأخلاق والآراء ، وأشد عراماً من العقائد والشبهات ، وهى دوافع الطبع وسورات الغريزة ، وقلما خلا منها طبع قوى عزوف غيور .

فالأفكار والأخلاق جانبان من جوانب النفس الإنسانية قابلان للضوابط والقيود ، ولكن ما القول فى الدوافع والسورات ؟

مثل الفكر كمثل السفينة الطافية على وجه النهر لها شراع

ولها سكان ، وعليهما معاً رقيب من النواتية والربان .

ومثل الخلق كمثل النهر المتدفع تحبسه الشواطئ والقناطر ويفيض فى موعد ويُعرف له مجرى ، ويحسب له مقدار .

ولكن ما القول فى السيل العرم ؟

ما القول فى السورة الجامحة التى ليست بفكر يسوس ويساس ، ولا بخلق متميز بسماته وخصائصه ومراميه ؟

هنا تبدو لنا قوة الضوابط والقيود .

وهنا أيضاً كانت ضوابط الإيمان القوى فى نفس عمر كأقوى ما تكون .

ولا أحسب أن قلبه الكبير جمحت به فى الجاهلية أو الإسلام سورة أكبر من سورته يوم نُعى النبى إلى المسلمين ، فأنكر أن يُنعى وأبى أن يسمع صوتاً بين المسلمين يزعم أن محمداً قد مات وصاح والناس فى رهبة منه كرهبتهم من شبح الموت المخيم يومئذ على الرءوس : « والله إنى لأرجو أن تُقطع أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات » .

ثم أقبل أبو بكر من مسكنه على فرسه ، فنزل فتمشى وئيداً صامتاً لا يكلم أحداً ، وتيمم النبى وهو مغشى بالثوب ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله ، وبكى .

ثم أحس صولة عمر وهو يكلم الناس ، فخرج إليهم فقال : اجلس ياعمر ! ... وأقبل على المسلمين يكلمهم بكلام السماء :

« أما بعد فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لايموت ... وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » .

فأهوى عمر إلى الأرض وأناب .

وكأنه والمسلمين معه ماعلموا أن أنزلت هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر تلك الساعة .

يالروعة الشلال الزاخر ؟

ويالروعة السابح القاهر الذى لوى به ليًّا كأنما قبض منه على عرف ، وأخذ له بعنان !

أكبر ميدان من ميادين الدنيا لايرينا صراعاً عاتياً هو أولى بالروعة من نفس عمر وهى متراوحة بين شعوره الزاخر وإيمانه الوثيق .

لحظة هائلة من أهول ماتحس النفوس ، ثم انهزام كأسرع مايكون الانهزام ، وانتصار كأسرع مايكون الانتصار ، وغاشية تنجلى عن صاحب تلك النفس وهو مالك لزمامه ، ماض بشعوره

إلى حيث يمضى به إيمانه ، فهما قوتان غالبتان ، وليستا بعدُ بالعسكرين المتغالبين .

لقد كانت تلك سورته الكبرى ولكنها لم تكن أولى سوراته ولا أُخراها .

فقد عهدت هذه السورات فى طبعه حتى عرف مَن عهدوها كيف يسوسونها ويتقونها وأوشكت أن تحسب فى عداد الأنهار المحكومة لافى عداد السيول الجارفة انطلقت من عقالها .

ذهب إليه بلال مستأذناً فقال له الخادم إنه نائم ، فسأله : كيف تجدون عمر ؟ قال : خير الناس إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم . قال بلال : لو كنت عنده إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه !

فهو الإيمان ضابط كل شىء فى تلك النفس حتى السورات التى ليس لها ضابط فى النفوس .

أو قل إنها هى النفس القوية فى دفعاتها وفى ضوابطها على السواء .

ورب نفس من ضعف الدفعة بحيث يقمعها أهون ضابط يسيطر عليها ، فأما الدفعة التى لا يقف فى طريقها إلا ضابط أقوى منها فتلك هى الطبيعة الحيوية المضاعفة ، وليست هى الضعف

الذى يتراجع لأهون مراجعة .

نذكر هـذا وينبغى أن نذكره ولا ننساه ، لأن الفرق بين الإيمان الذى يكبح الهزيل المنزوف الحياة وبين الإيمان الذى يكبح القوىّ الجياش فرق عظيم .

ولم يكن عمر معرضاً عن زخارف الحيـاة لهزال كان فى دواعى الحياة فيه . وإنمـا كان معرضاً عنها لأنه كان قادراً على الإعراض غير ممتحن به فى إرادة ولا عزيمة .

وكان معرضاً عنها لأنه صاحب حيوية غير الحيوية الجسدية الموكلة بالسرور والمتاع .

فمن الواجب إذا ذكرنا الحيوية وضعفها وقوتها أن نذكر أبداً أنها حيويات متعددة وليست بحيوية واحدة .

حيوية الروح وحيوية الخُلق ، وحيوية الذوق ، وحيوية العقل وحيوية الجسد ، وغير ذلك كثير مما يتداخل بين هذه الحيويات .

فليس من الضرورى إذا رأيت رجلا قليل الاشتهاء لمتعة الأجساد أن تحكم عليه بضعف الحيوية ، فربما كانت له حيوية أخرى تملأ ألوفاً من النفوس لا تجد متاعها فى أكلة أو شهوة وتجد المتاع خير المتاع فى إحقاق الحق وزجر الطغيان وإقامة العدل والشريعة بين الناس .

وهكذا كانت حيوية عمر فيما يريده وفيما يزهد فيه .

لم تكن قلة الرغبة فى زخارف الدنيا هى مقياس حيويته العظمى وإنما كان مقياس تلك الحيوية عظم الرغبة فى الإصلاح والتقويم ، وفى إجراء ما ينبغى أن يجرى . غير مبال ما يكلفه ذلك من جهد تتضاءل دونه جهود الألوف من الموكلين بمتاع الأجساد .

* * *

تلك صورة مجملة للصفات الخلقية الكبيرة التى كانت غالبة على نفس عمر بن الخطاب ، وهى العدل والرحمة والغيرة والفطنة والإيمان .

وأول ما يلاحظ عليها تعدد الصفات الغالبة فى نفس واحدة وصفةٌ واحدة منها قد تغلب على النفس — وليست بصغيرة — فتنعتها بنعتها وتستأثر بتمييزها والدلالة عليها .

ثم يلاحظ عليها أن الصفة منها تتصل بعمر بن الخطاب فتأخذ منه وتصطبغ بصبغته . حتى كأنها لم تعهد فى غيره على شيوعها وكثرة الموسومين بسماتها .

إلا أن هذا وذاك ليس بأعجب الملاحظات ولا أندرها فى هذا السياق ، وإنما العجب العاجب حقًّا هذا التركيب الذى ندر مثيله جدًّا بين خصائص النفوس كائنا ما كان نصيب صاحبها

من العظمة والامتياز .

وأحرى بنا أن نقول « هذه التركيبة » ولا نقول هذا التركيب ، لأن صفاته الكبيرة تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذى ينفع لغرض واحد مفهوم ، والذى ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط .

إذا نظرت إلى تلك الصفات أجزاء متفرقات فهى سهلة بسيطة ليس فيها شىء عويص أو مكتنَف بغموض .

ولكنك تنظر إليها مركبة متناسقة فيبدو لك منها جانب الدهشة والإعجاز ، أو جانب الندرة التى يعز تكرارها فى طبائع النفوس . لأنها تتركب لاستيفاء الغرض منها جميعاً واستيفاء الغرض فى كل منها على حدة ، وهذا هو النادر جدّ الندرة فى تركيب الأخلاق .

ما العدل مثلا بغير الرحمة التى تمزجه بالإحسان ؟ وما العدل والرحمة معاً بغير الحماسة الروحية والغيرة اليقظى التى تجعل كراهة المرء للظلم كأنها كراهة الضرر الذى يصيبه فى نفسه وآله وتجعل حبه للعدل كأنه حب هواه وقبلة مناه ؟ وما العدل والرحمة والغيرة جميعاً بغير فطنة تضع الأمور فى مواضعها وتعصم المرء أن ينخدع لمن لا يستحق ويغفل عمن يستحق وهو حسن القصد غير متهم الضمير ؟ وما العدل والرحمة والغيرة والفطنة بغير الإيمان الذى

هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب والوازع الأخير بعد كل وازع ، والمرجع الذى لا مرجع بعده لطالب الإنصاف ؟

كل صفة تتمة لجميع الصفات .

وكل الصفات روافد لغرض واحد يتم به نصر الحق وخذلان الباطل .

وكل خليقة فهى جزء لا ينفصل من هذه « التركيبة » التى اتفقت أحسن اتفاق وأنفع اتفاق ، وكأنما اتفقت لتصبح كل خليقة منها على أتم قدرتها فى بلوغ كمالها وتحقيق غايتها .

فلا نقص فى العدل كالنقص فى كل عدل يعمى عن الطبيعة البشرية ويذهل عن ضعف الإنسان .

ولا نقص فى الرحمة كالنقص فى كل رحمة تجور مع الهوى ولا تدين بالمساواة

ولا نقص فى الغيرة كالنقص فى كل غيرة ظالمة قاسية كأنها ضراوة وحش وليست بحماسة روح .

ولا نقص فى أولئك كله كالنقص فى جميع الصفات بغير الفطنة التى تخرج بها من ظلام إلى نور ، وبغير الإيمان الذى يقف منها موقف الحارس الساهر والرقيب الأمين .

صفات متراكبة كأنها صفة واحدة يأخذ بعضها من بعض

فلا تتعدّد فى مرآها ، ولا تزال فى صورة البساطة بعيدة عن التركيب ، فيخطئ النظر القصير فى التفرقة بين هـذه الظاهرة النفسية الرائعة وبين ظاهرة الشىء البسيط المحدود ، وإنه لخطأ شائع ينساق إليه كثيرون ممن يستسهلون بساطة عمر ، وهى أولى بالروعة من تركيب يختلط من كل مزيج ، ثم يزيد فى الألوان ولا يزيد فى الإتمام والتوحيد والإتقان .

ولو أن مخترعاً من أهل القصص حاول أن يخترع سيرة عمر ابن الخطاب لأعياه أن يخترع ذلك الشتيت المتفرق من الأخبار والأحاديث والنوادر ليقرأه القارئ بعد ذلك فيقبل منه ما يقبل ويسقط منه ما يسقط ، ثم يبقى منه ما يدل أصدق الدلالة على كل صفة من تلك الصفات .

فلا اختراع فى جملة أخبار عمر وإن جاز الشك فى بعضها أو جاز إسقاط الكثير منها ، ومن شاء فليشك فى هـذا الخبر أو ذاك ما بدا له الشك وليسقط منها ما بدا له الإسقاط ، فسيبقى بعد ذلك جميعه خبرٌ يدل على عدله ولا سبيل إلى نقضه ، وخبر يدل على رحمته ولا سبيل إلى نقضه ، وخبر يدل على غيرته ولا سبيل إلى نقضه ، وخبر يدل على فطنته ولا سبيل إلى نقضه ، وخبر يدل على إيمانه ولا سبيل إلى نقضه ، ويبقى ذلك التركيب

العجيب الذى هو موضع الإعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل فى مصادر الأخبار .

هذه هى المعضلة التى عنيناها حين قلنا فى صدر هذا الفصل إن سهولة عمر وخلوّ طبائعه من التعقيد والغموض هى سهولة أصعب من الصعوبة ، لأنها تنتهى بك إلى صعوبة التركيبة التى هى أندر من التعقيد والغموض ، وتريك عناصر شتى قد تتناقض فى غير هذا التركيب ولكنها هنا لا تتناقض فى شىء ذى بال ، لأن التناقض أن يذهب كل عنصر فى وجهة معارضة لسائر الوجهات ، فأما أن تكون كلها ذاهبة فى وجهة واحدة فذلك عنصر واحد متعدد الأجزاء والألوان .

ولهذا كانت دراسة عمر غنيمة لكل علم يتصل بالحياة الإنسانية كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم السياسة ، ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى .

لأن كل نفس صغرت أو كبرت فهى إنسان يضيف العلم به إلى علم النفس بعض الإضافة .

ولكن ليست كل النفوس بالنفس التى تصحح أوهام الواهمين فى فضائل الأخلاق وفضائل الاجتماع ، وفى القدوة المثلى التى يقتدى بها طلاب الرفعة والسيادة .

ونحن فى عصر شاعت فيه فلسفات مسهبة تنكر الرحمة والعدل على الأقوياء الغيورين وتحسبهما حيلة من حيل الطبع فى خلائق الضعفاء لاستدامة البقاء. كأن رحمة الضعيف تنفعه إذا رحم، وكأن عدل الضعيف ينفعه إذا عدل، أو كأن القوى يخلق نفسه لنفسه ولا يُخلق قويا لتفيد قوته فائدتها فى خدمة المحتاجين إليها.

فعمر ذو البأس والعدل، وعمر ذو الرحمة والغيرة، أصدق تفنيد لذلك الوهم الأخرق البليد. إذ كانت رحمته وعدله لا تناقضان البأس والغيرة فيه، بل كان بأسه معواناً لرحمته وكانت غيرته معواناً لعدله، وكان هو قويًّا لينتفع الناس بقوّته، ولم يكن قويًّا ليطغى بقوته على الضعفاء.

ولم يكون لزاماً أن يقسو ذو البأس ولا يرحم؟

ألا يقسو الضعيف؟ فلم العجب إذن من رحمة القوى؟ كل ما هنالك أن رحمة الضعفاء غير رحمة الأقوياء. فأما العقل الذى يرى الرحمة غريبة فى الأقوياء، ويرى القسوة غريبة فى الضعفاء فهو يرى غير الواقع من هؤلاء وهؤلاء. إذ الواقع فى الدنيا أن القسوة لا تدل على القوّة، وأن الرحمة لا تدل على الضعف، وأن ليس فى الدنيا أقسى من الأطفال وهم أضعف مَن

فيها من الضعفاء .

وبغير إمعان طويل فى دقائق النفس الإنسانية استطاعت امرأة محزونة أن تفرق بين الخصلتين وتجمع بينهما معاً فى عمر ابن الخطاب ونعنى بها عاتكة بنت زيد حين قالت فى رثائه :

رؤوف على الأدنى غليظ على العدى — أخى ثقة فى النائبات منيب

وهى تفرقة سهلة ولكنها صادقة جامعة ؛ فغير عجيب أن يكون إنسان كذلك ، وإنما هو أوفق شىء لطبائع الأشياء .

مفتاح „شخصيّته“

مفتاح الشخصية هو الأداة الصغيرة التى تفتح لنا أبوابها وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها ، وهو كمفتاح البيت فى كثير من المشابه والأغراض . فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التى قد تحملها فى أصغر جيب ، فإذا عالجته بها فلا حصن ولا إغلاق !

وليس مفتاح البيت وصفاً له ولا تمثيلا لشكله واتساعه ، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها ، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دخائلها ، ولا تزيد .

ولكل شخصية إنسانية مفتاح صادق يسهل الوصول إليه أو يصعب على حسب اختلاف الشخصيات ... وهنا أيضاً مقاربة فى الشكل والغرض من مفاتيح البيوت . فرب بيت شامخ عليه باب مكين يعالجه مفتاح صغير ، ورب بيت ضئيل عليه باب مزعزع يحار فيه كل مفتاح .

فليست السهولة والصعوبة هنا معلقتين بالكبر والصغر ، ولا بالحسن والدمامة ، ولا بالفضيلة والنقيصة ، فرب شخصية عظيمة سهلة المفتاح . ورب شخصية هزيلة ومفتاحها خفى أو عسير .

وقد يحيرنا الرجل الذى قيل فى وصفه مثل ما قيل فى ابن عباد :

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت يداه بالجود حتى شابه الدِّيما
فإنها خطرات من وساوسه يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

فإننا لا نستطيع أن ننفذ منه إلى مواضع اللوم أو مواضع الثناء ، ولا ندرى حقا أعمله من الكرم أم من البخل ومن الرفعة أم من الخسة ومن الشجاعة المحمودة أم من الجبن المذموم ؟ وغاية ما ننتهى إليه أن نفض المشكلة بكلمة واحدة هى الوسواس وهى حيلة تلجئنا إليها قلة الحيلة ، لأن تفسير الأعمال بالوسواس يفيدنا فى تقدير صاحبها وتقدير أعماله وأخلاقه ، ولكنه تفسير له معنى واحد فى النهاية : وهو ترك التفسير .

قد تحيِّرنا هذه الشخصية المنقوصة ولا تحيِّرنا الشخصية الكاملة التى تروعنا بفضائلها ومزاياها ، ثم لا نستغرب منها فضيلة أو مزية بالقياس إلى انتظام عملها واتصال أثرها ، كالشمس الطالعة تروعنا بإشراقها فى أوقاتها وبروجها ، ثم لا تحيرنا لمحة عين كما تحيرنا الذبالة الضئيلة تومض لحظة وتختفى من بعيد .

وفى اعتقادنا أن شخصية عمر من أقرب الشخصيات العظيمة مفتاحا لمن يبحث عنه ، فليس فيها باب معضل الفتح وإن اشتملت على أبواب ضخام .

وقد ذكرنا فى الفصل السابق أن إيمان عمر هو الضابط

الذى يسيطر على أخلاقه وأفكاره كما يسيطر على دوافعه وسوراته ، ولكن الذى نريده بمفتاح الشخصية شىء آخر غير معرفة الضابط الذى يسيطر عليها : نريد به السمة التى تميزه بين العظماء حتى فى الإيمان وسيطرته على الأخلاق والأفكار والدوافع والسورات ، فإن الإيمان ليقوى فى نفوس كثيرات ثم تختلف آياته وشواهده باختلاف تلك النفوس ، وهنا نبحث عن « مفتاح الشخصية » لنعرف به الفارق بين الإيمان فى طبيعة عمر وبين الإيمان فى طبائع غيره من الأقوياء .

والذى نراه أن « طبيعة الجندى » فى صفتها المثلى هى أصدق مفتاح « للشخصية العمرية » فى جملة ما يؤثر أو يروى عن هذا الرجل العظيم .

فأهم الخصائص التى تتجمع « لطبيعة الجندى » فى صفتها المثلى الشجاعة والحزم والصراحة والخشونة والغيرة على الشرف والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والإيمان بالحق وحب الإنجاز فى حدود التبعات أو المسئوليات .

هذه الخصائص قد تجمعت بعد ألوف السنين من تجارب الأمم فى تعبئة الجيوش حتى عرف الناس أخيراً أنها لازمة للجندى فى أمثل حالاته . فما من خاصة منها يستغنى عنها الجندى

الكامل الذى تحلى بأجمل صفاته وألزمها لتحقيق وجوده .

فانظر إلى هذه الخصائص جميعها هل تجدك محتاجاً إلى التنقيب طويلا عن واحدة منها فى نفس عمر ؟ هل تجدك محتاجا إلى تعمُّل أو استقصاء لجمع أشتاتها والاهتداء إلى شواهدها ومواقعها ؟

كل هـذه الخصائص عمرية لاشك فيها . فهو الشجاع ، الحازم الصريح ، الخشن ، المطيع ، الغيور على الشرف ، السريع النجدة ، المحب للنظام ، المؤمن بالواجب والحق ، الموكل بالإنجاز ، العارف بالتبعات والمسئوليات .

هذه الخصائص واضحة كلها فى عمر ، وعمر وحده واضح بين أمثاله فى جميع هذه الخصائص ، حتى ليخيل إلينا لوأن أحداً مولعاً بتأليف الألغاز سأل عن عظيم فى الإسلام والعروبة متصف بجميع هذه الخصائص على أصدق وأبرز حالاتها لكان الجواب الواحد عن سؤاله اسم عمر بن الخطاب .

وقد يكون العجب من توافر هذه الخصائص فى تفريعاتها الثانوية وأشكالها العارضة أبلغ وأدل على العمق والتأصل من توافر الخصائص الجليلة التى هى بمثابة الأصول الجامعة فى طبائع الجنود .

فالنظام مثلا ليس بالخلق الأصيل فى الجندى الباسل . فقد ينساق إليه بطبعه وقد يحتاج إلى تعوده وإدمانه حتى يكسبه بطول المرانة .

لكن النظام كان خلقاً أصيلا فى طبيعة عمر حتى فيما يتفرع عليه ويدخل منه فى عداد الأشكال والنوافل.

أرأيته وهو يصلى بالناس فلا يكبر حتى يسوى الصفوف ويوكل رجلا بذلك ؟ أرأيته وهو يرى الناس يجتمعون بالمسجد فى شهر رمضان أوزاعا متفرقين حول كل قارئ فيأمرهم أن يجتمعوا إلى قارئ واحد ؟ أرأيته وهو يحمل الدرّة لينبه المخالفين فى الطريق ويذكرهم هيبة القانون ؟ أرأيته وهو يركب فى السوق فيكسر مابرز من الدكاكين ويخفق التجار بالدرّة إذا تكوفوا على الطعام وقطعوا طريق السابلة ؟ أرأيته وهو لايزال يأمر بالمثاعب [1] والكنف أن تقطع عن طريق المسلمين ؟ أرأيته وهو ينهى الولاة عن الاتكاء فى مجالس الحكم ويكتب إلى عمرو بن العاص « وقع إلىّ أنك تتكئ فى مجلسك ، فإذا جلست فكن كسائر الناس ولا تتكئ » !

بل أرأيته وهو يرعى المراتب فينزل درجة من سلالم المنبر بعد أبى بكر لأن الخليفة الأول أحق منه بالتقديم ؟

ذلك هو السمت العسكرى بالفطرة التى فطر عليها ، وليس هو السمت العسكرى بالأسوة والتعليم .

---

(١) مسائل الماء .

وبالفطرة التى فطر عليها كان يحب ما يحسن بالجندى فى بدنه وطعامه ، ويكره ما ليس بالمستحسن فيه ، فكان يقول « إياكم والسمنة فإنها عقلة » وكان يقول « إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدّية إلى السقم ، وعليكم بالقصد فى قوتكم فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة » وكان يأمر بالجدّ ويحذر من المهازل لأن « من كثر ضحكه قلت هيبته ومن كثر سقطه قلَّ ورعه » وكان يمشى « شديد الوطء على الأرض جهورى الصوت » كما يمشى الجنود وكما يتكلمون وكان يأمر بتعلم الرماية والسباحة والفروسية والمصارعة وكل رياضة يتدرَّب عليها الجندى وتتهذب بها الأبدان والأخلاق .

وإذا ٱرتقينا من هذا إلى النظام الأشمل والتقسيم الأعم الأكمل فهناك عمر بن الخطاب الذى دوَّن الدواوين وأحصى كل نفس فى الدولة الإسلامية كأدق إحصاء وعاه الموكلون بالتجنيد فى العالم الحديث . فما من رجل أو ٱمرأة أو طفل إلا عرف ٱسمه وعرف مكانه وعرفت حصته من بيت مال المسلمين . وما من مجاهد إلا عرفت له رتبته من السبق والتقديم على حسب المراتب التى يمتاز بها الجنود ... فالحاضرون فى وقعة « بدر » هم المقدمون بين المجاهدين ، والحاضرون فى « الحديبية » يأتون بعدهم فى التقديم ،

والذين اشتركوا فى حرب الردّة يأتون بعد هؤلاء ، وهؤلاء والذين حاربوا فى معارك الروم والفرس ومعهم أبناء الغزاة فى بدر يلحقون بمراتب هؤلاء المتقدمين وقس على ذلك ما يليه من سائر المراتب فى حقوق التقديم والتقسيم .

ثم هناك عمر بن الخطاب الذى عشّر الجنود أى جعلهم عشرات عشرات ، ثم قسمهم إلى كتائب وبنود .

وهناك عمر بن الخطاب الذى لم يدبر قط تدبيراً كبيراً أو صغيراً فى شؤن الدولة إلا بنظام لا يختل أو على أساس لا يحيد .

وقد كانت له طريقة الجند فى التصريف السريع الذى ينفذ إلى الغرض من أقرب طريق ، فلما تشاور المسلمون ماذا يصنعون بسهيل بن عمرو خطيب المشركين يومئذ وأقدر الخائضين منهم فى الإسلام ؟ قال عمر بن الخطاب : « يا رسول الله ! أنزع ثنيتيه السفليين فلا يقوم عليك خطيباً أبداً » وكان سهيل أعلم — أى مشقوق الشفة السفلى . فإذا نزعت ثنيتاه فقد عجز عن الخطابة من غير ما حاجة إلى عهد أو تحذير أو شغل شاغل بإسكاته والرد عليه .

٭ ٭ ٭

والقضاء لم يكن من لوازم « الطبيعة الجندية » وإن تولاه القادة والجند فى أيام الفتن والأيام التى تقام فيها الدول

الناشئة والنظم الجديدة .

ولكن كم من قضية لعمر بن الخطاب تذكرنا بالقضاء العسكرى الذى يمنع الضرر من أقرب الطرق ويحمى الأكثرين بالحدّ من حقوق الأقلين ؟

هتفت امرأة باسم نصر بن حجاج وتمنت أن تشرب الخمر وتلقاه فأرسل إليه « فإذا هو أحسن الناس شعراً وأصبحهم وجهاً . فأمره أن يجم شعره فظهر جبينه ووجنتاه فازداد حسناً » ثم أمره أن يعتمّ فزادته العمامة زينة وغواية ، فقال : لايسكن معى رجل تهتف به العواتق فى خدورها ، وزوده بمال وأرسله إلى البصرة ليعمل فى تجارة تشغله عن النساء ، وتشغل النساء عنه .

وفى القضية جور على نصر بن حجاج لاجدال فيه ، ولكن فى سبيل مصلحة أكبر وأبقى ، أو فى سبيل مصلحة يرعاها « الحكم العسكرى » فى أزمنة كزمان عمر ويقضى فيها بما هو أعجب من إقصاء نصر بن حجاج : يرعاها أحياناً بمنع الإقامة بمكان ، ومنع المرور من طريق ، وتحريم تجارة لاحرام فيها ، ومراقبة إنسان يخشى أن يقود إلى جريمة ، وتقييد السهر بعد موعد من الليل .

ولسنا نقول إن هذا الحكم فى قضية نصر بن حجاج كان حكما لزاماً لامحيص عنه ولا مأخذ عليه ، ولكننا نقول إنه حكم

فيه تلك الصبغة العمرية التى سميناها « مفتاح شخصيته » وهى المقصودة بما نكتبه الآن .

وقد كان له فى قضائه ذلك الحزم الذى يقطع اللجاجة وينهض بالحجة على كل ذى خلاف كلما اشتجر الخلاف : كتب إليه أبو عبيدة من دمشق أن عمرو بن معديكرب وأبا جندل وضراراً وجماعة من علية القوم والوجوه شربوا الخمر وسئلوا فأجابوا « إننا خيِّرنا فاخترنا » . قال : « هل أنتم منتهون ولم يعزم » ... وكأن أبا عبيدة تحرج من عقاب هؤلاء العلية فرفع أمرهم إلى الخليفة يستفتيه . فلم يلبث البريد أن بلغ المدينة حتى عاد إليه يأمره أن يدعوهم على رؤس الأشهاد ويسألهم سؤالا لايزيد عليه ولا ينقص منه : أحلال الخمر أم حرام ؟ » فإن قالوا حرام فليجلدهم ، وإن قالوا حلال فليضرب أعناقهم . فقالوا : بل حرام ، فجلدوا وتابوا .

* * *

وربما تجمع للرجل كلُّ مافى « طبيعة الجندى » من الخصائص وبقيت محبوسة فيه لايدرى بها الناس إلا أن يأتى بعمل ينمُّ عليها . فيدين نفسه بطبيعته تلك ولا يدين غيره ، ويكون مطبوعاً على أن يطيع ولا يكون مطبوعاً على أن يطاع ، وإذا جاءته طاعة المطيعين له فإنما تجيئه من سلطان النظام وحكم الشرع وغلبة

العادات ، لأن الشجاعة مثلا لا تلازم الهيبة فى كل حال . فقد يكون الشجاع مهيباً ويكون غير مهيب ، بل يكون أحياناً ممن تقتحمهم الأنظار ويجترئ عليهم المستخفون .

أما عمر بن الخطاب فقد كانت له « طبيعة الجندى » ظاهرة باطنة ، تبادر القلوب كما تبادر الأنظار ، وتلازمه كأنها عضو من أعضائه . فما يجترئ عليه مجترئ إلا أن يطمعه هو ويسهو عن نفسه لحظة ليغريه بالاجتراء .

وهى فى موقف الأمر تخيف من لا يخاف ويجفل منها من يحتمى بجاه أو كبرياء . شكا إليه رجل من بنى مخزوم أبا سفيان لظلمه إياه فى حد كان بينهما . فدعا بأبى سفيان والمخزومى وذهبوا إلى المكان الذى تنازعاه . ونظر عمر فعرف صدق الشكوى ونادى بأبى سفيان : خذ يا أبا سفيان هذا الحجر من هنا فضعه هنا ... فأبى وتردد ، فعلاه بالدرة وهو يقول : خذه فضعه ها هنا فإنك ما علمتُ قديم الظلم . فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعه حيث قال ، ولو غير عمر أمره هذا الأمر لاستكبر أن يطيع أو شنها عليه شعواء لا تؤمن جريرتها .

كان يوماً فى مجلس عمر وزياد بن سمية يتكلم وهو يومئذ شاب . فأحسن كعادته فى مجال الخطابة والمشورة ، فأعجب به عمر

وهتف به ! لله هذا الغلام ! لو كان قرشيًّا لساق العرب بعصاه .

وكان على بن أبى طالب إلى جانب أبى سفيان ، فمال إليه هذا وهمس فى أذنه كلاماً فحواه أنه يعرف من أبو ذلك الغلام من قريش . قال علىّ : فمن؟ قال : أنا ... قال : فما يمنعك من استلحاقه ؟ فهمس له : أخاف هذا الجالس أن يخرق علىّ إهابى !

وخليق بمثل هذا الرجل ألا يكون له شعار غير شعار الجند حيث كانوا : الأمر هو الأمر والطاعة هى الطاعة .

وخليق بالناس أن يفهموا ذلك عنه بغير بيان ، لاسيما إذا فهموا قبل ذلك أنه متى وجبت الطاعة كان هو أول من يطيع .

ذلك هو الجندى المطبوع .

جندى من جنود الله فى معترك الحق والإيمان . وإذا استوفينا المثل إلى أقصاه فالقانون المطاع هو القرآن ، والقائد الأعلى هو النبي الذى يوحى إليه ، وليس أحد بعد ذلك أكبر من أن يطيع .

يأمر الله فالطاعة واجب لا هوادة فيه .

ويأمر القائد الأعلى فقد يراجعه من دونه ويرتفعان معاً إلى القانون ، لأن الطاعة لا تمنع المراجعة والمشاورة ، ولكنها تمنع التمرد على القائد الأعلى وإنكار سلطانه حيثما استقر على قرار ، فإذا رجع القائد عن أمره فحسنٌ والمراجعة إذن خير

لاضرر فيه ، وإذا مضى فى أمره فلا خلاف إذن فيما يجب : فالذى يجب إذن أمر واحد ، وهو أن يطاع .

كذلك راجع عمر النبى فى مسائل شتى ، فأخذ النبى برأيه فى بعض هذه المسائل وخالفه فى بعضها ، فلم تكن طاعته فيما خولف فيه أقل ولا أضعف مما وُوفق عليه .

وكذلك راجع الخليفةَ أبا بكر فى كبريات المسائل وصغارها ، فكان أبو بكر يثوب إلى رأيه كثيراً ويصرّ على مابدا له إذا رأى الحسنى فى الإصرار : فيطيع عمرُ أمره بعد ذلك كأنْ لم يكن خلاف .

وإذا امتنعت المراجعة فليس الرجل عند ذلك بواهن عن احتمال التبعة وتصريف الرأى والاضطلاع بأعباء الموقف كيف كان .

اشتدّ المرض بالنبي عليه السلام فقال : ائتونى بكتاب أكتب لكم كتاباً لاتضلوا بعده ... قال عمر : إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا .

عندنا كتاب الله حسبنا .

عندنا القانون الأعلى .

أما القائد الأعلى فهو فى مرضه بحال لاتستحب معها المراجعة ،

وهو مع ذلك لم يصر على أمره ولم يعاود طلب الورق للكتابة . وإنما قال حين كثر اللغط بين الصحابة : قوموا عنى . ولا ينبغى عندى التنازع ، ثم عاش عليه السلام أياما ولم يذكر الكتاب .

فالرجل كان يطيع إذا استقام الأمر واستقرت التبعة .

وكان يراجع إذا اتسع مجال المراجعة .

فإن لم يكن هذا ولا ذاك فهو ضليع بالتبعة التى يوجبها على نفسه ، وقمين أن يذهب إليها ولا ينكل عنها .

وتلك سنة جرى عليها عمر عن علم وقصد ولم يجر عليها عن بداهة وإلهام وكفى ، وأشار إليها فى كلامه غير مرة فقال فى خطبة من خطبه ما فحواه : « ... كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه وجلوازه [1] ، وكان كما قال الله تعالى : بالمؤمنين رؤف رحيم ، وكنت بين يديه كالسيف المسلول ، إلا أن يغمدنى أو ينهانى عن أمر فأكف عنه ، وإلا أقدمت على الناس لمكان أمره ... » .

فهو جلواز النبى وسيفه المسلول كما وصف نفسه .

وهو على أقوم مثال للجندى الفاضل العليم بموقع الطاعة ، وموقع المراجعة ، وموقع المشاورة ، وهو مع التبعة حيث

---

(١) الجلواز : الشرطى .

لامهرب منها ، وتلك هى الجندية فى صورتها المثلى .

وما نحسبه كان يراجع ويشاور إلا لغرض واحد ، وهو الوصول إلى الأمر الذى يحمل التبعة فيه .

فإذا أعفى نفسه من التبعة بمراجعة رؤسائه ، وأعفى نفسه من التبعة بمشاورة مرؤسيه ، فقد عرف كيف ينبغى أن يطيع وعرف كيف ينبغى أن يطاع ، وعرف مايتوق كل جندى أن يعرفه حين يؤمر وحين يأمر ، وهو توضيح مايُطلب منه وما يُطلب من غيره ، وتقرير مكان التبعات حين تقسم التبعات .

ولقد كانت له مخالفات ليست من قبيل المراجعة ولا المشاورة التى تعمل فيها الروية عملها ، أو تختلف مذاهب الآراء فيها .

كانت هذه أيضاً من مخالفات « الجندى » التى يندفع إليها كلما غلبته الحماسة وثارت به الحمية .

فلما كان يوم أُحد جاء أبو سفيان ينادى على مسمع من المسلمين : أفيكم محمد ؟ فقال رسول الله : لاتجيبوه !

فعاد ينادى مرتين : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه !

فسأل ثلاثاً : أفيكم ابن أبى قحافة ؟ فسكتوا .

ثم سأل : أفيكم ابن الخطاب ؟ وكررها ثلاثاً ... فلما لم يسمع جواباً قال لقومه : أما هؤلاء فقد كفيتموهم !

كثيرٌ على عمر أن يحتوى صبره فى هـذا الموقف أكثر مما احتواه . فما قالها أبو سفيان حتى صاح به من مكانه : « كفرت ياعدو الله . هاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وأنا أحياء ! ولك منا يوم سوء ! » .

هذه مخالفة لامراجعة فيها ولا مشاورة .

لكنها من مخالفات الجند ، ولهم ولا شك مخالفات كما لهم طاعات .

* * *

نعم كانت له مخالفاتهم وطاعاتهم ، وكانت له كذلك فكاهاتهم وأهواؤهم التى هى أخص بهم من سائر الفكاهات والأهواء .

فكانت تعجبه الفكاهة التى توحى إليه معنى مضحكا فيه صراحة وخشونة ، ومنها الفكاهة التى نسميها اليوم « بالنكات العملية » .

فرغ رسول الله يوماً من بيعة الرجال وأخذ فى بيعة النساء ، فاجتمع إليه نساء من قريش فيهنّ هند بنت عتبة متنقبة متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة رضى الله عنه . فهى تخاف أن يأخذها رسول الله بصنيعها . فلما دنون منه ليبايعنه قال عليه السلام : تبايعننى على ألا تشركن بالله شيئاً .

قالت هند : والله إنك لتأخذ علينا أمراً ماتأخذه على

الرجال ، وسنؤتيكه .

قال : ولا تسرقن .

قالت : والله إن كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة والهنة وما أدرى أكان ذلك حلالا لى أم لا .

قال أبو سفيان وكان شاهداً : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل .

فقال رسول الله : وإنك لهند بنت عتبة !

قالت : أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف ، عفا الله عنك .

فمضى رسول الله فى أخذ البيعة وعاد يقول : ولا تزنين !

قالت : يارسول الله هل تزنى الحرة ؟

قال : ولا تقتلن أولادكن !

قالت : قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم .

فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرب ، وكان قليل الإغراب فى الضحك ، فإن استغرب ضاحكا بين حين وحين فإنما يضحكه مثل هذه الفكاهة .

وعلى هذا النحو فكاهته مع خادمه أسلم وابنه عاصم : دخل عليهما وهما يغنيان غناء يشبه الحداء فوقف يستمع ويستعيد .

وشجعهما إصغاؤه واستعادته فسألاه : أينا أحسن صنعة ؟ قال :
مثلكما كمثل حمارى العبادى . سئل أيهما شر ؟ فقال هذا ثم هذا !
ومن فكاهته القوية تلك المزحة المرعبة التى أطار بها لب
الحطيئة ليكف عن هجاء الناس . فدعا بكرسى وجلس عليه ودعا
بالحطيئة فأجلسه بين يديه ، ودعا بأشفى - أى مثقب - وشفرة
يوهمه أنه سيقطع لسانه ، فضج الحطيئة وتشفع الحاضرون فيه ،
ولم يطلقه حتى أخذ عليه عهداً لا يهجون أحداً بعدها ، واشترى
منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم . فما هجا أحداً بعدها
وعمر بقيد الحياة .

تلك أمثلة من فكاهته الخشنة التى تعهد فى طبيعة الجند ،
وهى فكاهته لا يطمع منه فى غيرها .

وشاءت الجاهلية أن تورِّطه فى بعض أهوائها فكان هواه منها
معاقرة الخمر يحبها ويكثر منها . وقد نرى أنه هوى قريب من
مزاج الجند غير نادر فيهم ، إذ الخمر توافق مافيهم من سورة
طبع وتشغلهم عن الخطر أو تعينهم عليه ، وتصاحبها فى كثير
من الأحيان ضجة يألفونها .

وقد أحب ضجة الدفوف وهى فى سياق هذا الهوى ، وظل
يحبها بعد إسلامه وخلافته وإن كرهها فى غير الأعراس ...

فسمع ضوضاء فى دارٍ فسأل : ماهذا ؟ قيل له : عرس ! فقال : هلا حرّكوا غرابيلهم ؟ أى الدفوف !

على أنه كان يحب الغناء جملة ويطيل الإصغاء إليه مالم يشغله عن مهم من أمر دينه أو سياسته . فسمع صوت حادٍ وهم منطلقون إلى مكة فى جوف الليل فما زال يوضع راحلته حتى دخل بين القوم يسمع إلى مطلع الفجر ، ثم قال للقوم : إيه ! قد طلع الفجر . اذكروا الله .

* * *

فطبيعة الجندى فى الفاروق تامّة متكاملة بأصولها وفروعها . ويندر أن تتم طبيعة شاملة فى رجل واحد إلا أن يكون كعمر فى أصالة الطبع وصراحته وخلوصه واتساقه ، فلا يخذل منه جزء جزءاً ولا تقبل منه وجهة حيث تدبر أخرى ، وحينئذ لاعجب أن تتم له طبيعة واحدة بالغة ما بلغت من تعدّد العناصر والألوان والشيات . كما أنه لاعجب أن يشبه الولد أباه لأنه أصيل صريح النسب ، بالغاً ما بلغ التعدّد فى مشابه الأخلاق والجوارح والأعمال .

ولهذه الطبيعة أثرها فى أمور لاتمت إليها على ظاهرها . كأثرها فى تحريم رق العربى وفى إخلاء الجزيرة من غير العرب ، فهى شنشنة الغيور على الحوزة الموكل بحماية الذمار .

ولها أثرها فى سياسته مع الأمم حيث يأمر الجند بتصديق كلمة الشرف والبر بالوعد ولو كان إشارة باليد أو نبأة من صوت. فقد أوجب على قادته وجنوده إذا نزلوا بلاد الأعاجم فبدرت منهم إشارة أو نبأة يحسبونها عهداً أن ينجزوا هذا العهد ولا ينكصوا فيه، ولو أتيح لهم أن يتعللوا بجهل اللغة وغرابة العادات والمصطلحات.

أو أنك على الجملة لا تعرض عملا من أعمال الفاروق العامة والخاصة على هذه الطبيعة إلا وجدت له قراراً فيها ووجدت عليه صيغة منها.

فهى بلا ريب أقرب مفتاح لهذه الشخصية العظيمة، وبها تتميز خصائصه التى لا يشترك فيها أناس مطبوعون على غيرها وإن كانوا عظماء أقوياء.

وقد أسلفنا الإشارة إلى الإيمان القوىّ وقلنا إنه ضابطٌ لأخلاقه وسوراته وليس بمفتاح يكشفها ويفتح مغالقها، لأن الإيمان القوى نفسه يحتاج فى فهمه وتمييزه إلى المفتاح الذى يفرق بين ضروب الإيمانٌ عند الأقوياء، وليست القوة كلها كما لا يخفى معدناً واحداً فى البواعث والمظاهر والآثار.

وهكذا كان إيمان عمر فى سلوك دنياه وسلوك دينه: كان إيمان الطبيعة الجندية فى حالتها المثلى.

ففى سلوك دنياه كان يعيش أبداً عيشة المجاهد فى الميدان ... فآثر الشظف وقنع منها بأقل مايكفيه ولا غنى عنه .

وفى سلوك دينه كان موقفه بين يدى الله أبداً كموقف الجندى الذى يعلم أنه لايلقى مولاه إلا ليؤدى الحساب على الكثير والقليل ... فإن تجيئه المسامحة جاءت عفواً لاينسيه تحضير الحساب .

وكان معتمداً على الغيب موصولا بالقدر يركن إليه كأنه يراه بعينيه . ومن دأب كل طبيعة تستحضر الموت أن تنظر إلى الغيب ، وتستطلع طلعه وتنتظر منه الحماية والهداية .

فاشتهر عن كثير من كبار القادة أنهم يؤمنون لهم بنجم سعد يلحظهم ، أو بغاية أجل لا يُعجلون عنها ، أو بإلهام يهديهم إلى النجاة ويرون أماراته وعلاماته فى الرؤى والهواتف وكلمات الفأل والبشارة .

وكان عمر يتفاءل بالأسماء وينظر فى الرؤى والمنامات ، ويُروى عنه فى روايات متواترة أنه أُنبئ بموته فى منام ، وأنه رأى كأن ديكا ينقره نقرتين ، وفسروا له الديك برجل من العجم يطعنه طعنتين .

وروى محارب بن دثار عنه أنه سأل رجلا : من أنت ؟ فقال قاضى دمشق . قال : كيف تقضى ! قال : أقضى بكتاب الله . فسأله : وإذا جاءك ماليس فى كتاب الله ؟ فأجابه : أقضى إذاً بسنة

رسول الله . فسأله ثانية : وإذا جاءك ماليس فى سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد برأيى وأؤامر جلسائى . فاستحسن قوله وأوصاه إذا جلس للحكم أن يدعو الله قائلا : « إنى أسألك أن أُفتى بعلم ، وأن أَقضى بحلم ، وأسألك العدل فى الغضب والرضا » .

ثم رجع القاضى بعد فترة فسأله عمر : ماأرجعك ! قال : رأيت الشمس والقمر يقتتلان مع كل واحد منهما جنود من الكواكب .

فسأله ؛ مع أيهما كنت !

فقال : مع القمر !

فتأمل قليلا ثم ذكر قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » ثم قال : لاتلى لى عملا .

هذه رواية من روايات كثيرة عن المنامات ونظره فيها ، لاندرى مبلغها من الصحة فى تفصيلاتها ، ولكنها كلها تدل على الغرض الذى قصدنا إليه وهو استهداء الغيب من طريق الرؤى والعلامات ، إلى جانب الإيمان القوى الذى لايسهو عن عالم الغيب طرفة عين .

ومن الحق أن نضيف هنا أن الإيمان القوى ليس

بمستغرب فى الطبيعة الجندية . بل ربما كانت طبيعة الجهاد أقرب شىء إلى طبيعة الإيمان .

وأن نضيف هنا استدراكا آخر لعله أدعى إلى البحث من القول فى الجهاد والإيمان ، وذلك أن العدل لايناقض طبيعة الجند عامة ، وأن طبيعة الجند لاتستلزم العدوان فى كل محارب . ولا سيما المحارب نضحاً عن دين ووفقاً لشريعة .

فالعدل يفتقر إلى شجاعة وشرف وهما خصلتان مطلوبتان فى الجندى المطبوع ، فأما الشجاعة فى الرجل العادل فتحميه أن يحابى الأقوياء وهو جبن ، وأما الشرف فيحميه أن يجور على الضعيف وهو خسة ، ولا تناقض بين هذه الخصال .

إنما المحارب المعتدى هو الذى « يحارب لحسابه » كما يقولون أو يحارب لنفسه مرضاة لطمعه وذهاباً مع نزواته ، ومن هذا الطراز الإسكندر وتيمور ونابليون .

أما المحارب الذى تقيده إرادة غير إرادته ، ويحكمه قانون غير هواه ، فالحرب من مثله واجب يلام على تركه وليست بجريمة يلام على اقترافها .

وقد يرى هؤلاء أن أشرف الجهاد جهاد النفس والهوى قبل جهاد الخصوم والأقران ، كما رأى عمر بن الخطاب .

ومصداق ذلك ظاهر فى كل قائد تدعوه إلى الحرب إرادة إله أو إرادة أُمة ، أو إرادة ضمير له قانون . فطبيعة الجندى فى هؤلاء لا تناقض العدل إلا كما تناقضه طبيعة الفيلسوف أو طبيعة الفن أو طبيعة التصرف فى شئون المعاش ، ولا تناقض بينه وبين واحدة منها أو هى جميعاً فى هذه الخصلة سواء .

هؤلاء لا يحاربون إلا مكرهين ، وإذا حاربوا لم يحاربوا لبغى ولا لتنكيل ولو كانوا فى ميدان القتال ، وسنتهم هى سنة عمر حين حذر المجاهدين أن يعتدوا لأن الله لا يحب المعتدين . ثم قال : « لا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً . ونزّهوا الجهاد عن عرض الدنيا ، وأبشروا بالإرباح فى البيع الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

وذلك هو الجندى فى حالته المثلى .

وذلك هو المفتاح الصادق الذى لا نعلم مفتاحاً أصدق منه لخلائق هذا الجندى العادل الكريم .

إسلامه

يجوز أن نبحث عن سبب واحد للعمل الذى يعمله الرجل اليوم وينساه غداً ، أو يكرره كل يوم ولا يلتفت إلى عقباه ، أو يلتفت إلى عقباه ولا يتوقع لها أثراً يغيِّر فى مجرى حياته . فسببٌ واحد لعمل من هذه الأعمال كافٍ ولا حاجة بعده إلى استقصاء .

لكنّ العمل الذى تتحوّل به حياة الإنسان تحوّلا حاسماً لن يرجع إلى سبب واحد ، ولن نستغنى فى تفسيره عن عدّة أسباب ، بعضها حديث وبعضها قديم ، ومنها الظاهر الطيع والخفى المستعصى ، وقد يجهل صاحبها بعض هذه الأسباب وينسى المهم منها ويتعلق بالهين القريب .

فالرجل الذى يغير موطنه أو معيشته أو زيه لا يفعل ذلك عفو الساعة ولا تلبيةً لاقتراح يوحى إليه فى مجلس فراغ . وقد يتوهم هو أنه سمع الاقتراح فلباه ، وأنه لم يكن ليلبيه لولا ما سمع فى تلك اللحظة العارضة . فهاجر أهله وترك موطنه وغير صناعته من أجل كلمة ... وأنك سائله ساعتئذ : « إنك قد هاجرت أهلك وتركت موطنك وغيرت معيشتك لأنك لبيت اقتراحاً ، فهل تعلم لم لَبَيْت الاقتراح » ؟ فإذا سألته ذلك السؤال رددته إلى نفسه فعلم أن الأسباب الصحيحة وراء ذلك ، وأنه لم يتحوّل لأنه سمع الاقتراح المزعوم .

بل سمع الأقرباح ولباه لأنه كان قبل ذلك مستعداً للتحوّل ماضياً فى طريقه . ولو سمعه مائة معه لم يكونوا مستعدين مثله لما عملوا به ولا ٱلتفتوا إليه .

وأين تغيير المعيشة والموطن والزى من تغيير العقيدة الدينية ؟

إننا إذا ٱستصغرنا السبب الواحد فى تفسير تلك التغييرات فهو لا مراء أصغر من ذلك جداً فى تفسير التحول الحاسم إلى دين جديد .

لأن الإنسان إذا غيّر معيشته فإنما يغير صناعة ، وإذا غير موطنه فإنما يغير بلداً ، وإذا غيَّر زيه فإنما يغيِّر سَمْتاً يقوم على كساء ، ولكنه إذا غير عقيدته الدينية فقد غير كونه وٱستبدل به كوناً آخر ، وقد غير ماضيه وماضى أهله ، وغير حاضره وحاضر أهله ، وغير مصيره فى الدنيا ومصيره بعد الموت ، وغير آراءه ومقاييسه فيما يأخذ وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس ، ومنها ما آلفُ وأواصر ومحاب ومكاره متوشجات الأصول إلى ما وراء الآباء والأجداد .

فسببٌ واحد لا يغير هذا كله دفعة واحدة .

ولا بد لتمام هذا التغيير من أسباب سابقة وأسباب مهيّأة ، وأسباب موقوته هى أظهر تلك الأسباب ، وقد تكون أضعفها وأقلها

تفسيراً لذلك الحدث العظيم فى العالم ، وهل يتغير الإنسان هكذا إلا وقد أحاط بالعالم فى نظره حدث عظيم ؟

ونحن قد أشرنا فيما تقدم إلى ندم عمر لشكاية المرأتين اللتين عارضهما فى الإسلام ، وإلى ما كان لندمه من كسر حدته واستلال ضغنه وترويض عناده والتقريب بينه وبين الخشوع الدينى والهداية الإسلامية . فهل نقف عند هذا الندم وكفى ؟ وهل انتهينا به إلى حيث يستقر الوقوف ؟

إنه لسبب من أسباب :

ومما لا شك فيه أن عمر كان مقترباً من الإسلام يوم رثى لأم عبد الله بنت حنتمة وتركها تنطلق إلى الهجرة وهو يدعو لها بالسلامة . وكانت هى على صواب حين طمعت فى إسلامه ورجالها يائسون منه . فقد سألها عامر بن ربيعة مستغرباً مستبعداً : كأنك قد طمعت فى إسلام عمر ؟ قالت : نعم . قال : إنه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ! الجبار شديد العصى على اللجام

ولكن الرجل أخطأ وصدقت المرأة ، إذ ليس أسرع من المرأة أن تلمح جانب الرقة وجانب الغضب من قلب الرجل فى خطفة عين ... أليست حياتها كلها من قديم الزمن منوطة بذلك الغضب كيف تتلطف فى تحويله ، وبتلك الرقة كيف تتلطف

فى ابتعاثها من مكمنها ؟ وهل تحجبها عنها القوة وهى مانفذت إلى نفس الرجل قط إلا من وراء القوة ؟

فعمر كان مقترباً من الإسلام يوم رثى للمرأة المهاجرة ودعا لها بصحبة الله ، وكان على تمام الإسلام يوم رأى الدم على وجه أخته ورأى زوجها منطرحاً تحته لايقوى على دفاع .

ولكنه كما قلنا سبب من أسباب ، أو أنه هو السبب العارض الذى يومئ إلى السبب العميق : سبب عارض هو الأسف لشكاية الضعيف ، وسبب عميق هو الرحمة التى تجمل بذى نخوة كريم . وليس الإنسان كله ندما ورحمة وإن طال ندمه وطالت رحمته . فليس كل ماحتوى رحمته بمحتويه إلى زمن طويل .

وقد تعددت الروايات فى إسلام عمر واختلف بعض هذه الروايات فى اللفظ واتفق فى المغزى ، وجعل أُناس ينظرون فيها كأنما الصحيح منها لايكون إلا رواية واحدة وسائرها باطل لايشتمل على حقيقة . فلم لاتكون صحاحا كلها ؟ ولم لاتكون أسباباً متعددات فى أوقات مختلفات ؟ فمن المستطاع المعقول أن نسقط منها قليلا من الحشو هنا وهناك ثم نخلص منها إلى جملة أسباب لاتعارض بينها فى الجوهر ، وقد يعزز بعضها بعضاً فى نسق السيرة وفى لباب النتيجة .

روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « كنت للإسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية أُحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش ... فخرجت أريد جلسائى أولئك فلم أجد منهم أحداً . فقلت : لو أننى جئت فلانا الخمار ! ... وخرجت فجئته فلم أجده . قلت : لو أننى جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين ! فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام واتخذ مكانه بين الركنين : الركن الأسود والركن اليمانى . فقلت حين رأيته : والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع مايقول ! وقام بنفسى أنى لو دنوت أسمع منه لأروعنه . فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها مابينى وبينه إلا ثياب الكعبة . فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي فبكيت ودخلنى الإسلام » .

وروى ابن إسحق فى سبب إسلامه كما نقلنا عنه فى كتابنا « عبقرية محمد » « أن عمر خرج يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطاً من أصحابه ... قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق

وعلىّ بن أبى طالب فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم ...
فلقيهُ نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد ياعمر ؟ فقال : أريد محمداً
هذا الصابئْ الذى فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها
وسبّ آلهتها فأقتله . فقال نعيم : والله لقد غرّتك نفسك ياعمر !
أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟
أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال وأى أهل بيتى ؟ قال :
ختَنَك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت
الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه . فعليك بهما .

قال ... فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب
فى مخدع لهم أو فى بعض البيت . وأخذت فاطمة بنت الخطاب
الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة
خباب عليهما . فلما دخل قال : ماهذه الهينمة التى سمعت ! قالا له :
ماسمعت شيئاً ! قال : بلى والله . لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على
دينه ، وبطش بخَتَنِه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه
عن زوجها . فضربها فشجها . فلما فعل ذلك قالت له أخته : نعم .
قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع مابدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته
من الدم ندم على ماصنع فارعوى وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة
التى سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ... وقرأ

سورة طه فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له ياعمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه . فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب . فالله الله ياعمر ! فقال له عند ذلك عمر : دلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم . فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه . فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب . وقام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف ، فرجع إلى رسول الله وهو فزع . فقال : يا رسول الله ! هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف . فقال حمزة بن عبد المطلب : نأذن له . فإن كان يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه . فقال رسول الله آئذن له ... ونهض إليه حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ثم جبذه جبذة شديدة وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ! فقال عمر : يا رسول الله ! جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله ! ... »

* * *

هاتان الروايتان هما أجمع الروايات للأسباب « المباشرة » التى قربت بين عمر والإسلام . وتتفرع منهما روايات منوعة يزيد بعضها تارة أن عمر قد أوفد لقتل النبي من قبل قريش ، ويزيد بعضها تارة أخرى آياتٍ من القرآن الكريم قرأها عمر فى بيت أخته غير الآيات التى تقدمت الإشارة إليها فى سورة طه . وأشبهها بالتصديق أنه لما اطلع على الصحيفة قرأ فيها اسم « الرحمن الرحيم » فذعر وألقاها ، ثم رجع إلى نفسه فتناولها وجعل كلما مر باسم من أسماء الله ذعر . فلما بلغ « ... وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين » ... ... قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

وهذه على اختلافها روايات متقاربة يبدو لنا أنها قصة واحدة شطرت شطرين وزيدت عليها الحواشى والأطراف ، فاختلفت فى ألفاظها ومواعيدها واتفقت فى جوهرها ومدلولها . لأنها تمس نفس عمر من الناحية التى هى أشبه أن تهديه إلى طريق جديد .

وهى - كما أسلفنا - تجمع لنا الأسباب « المباشرة » التى اقترنت بإسلام عمر ، ولا تغنينا عن الأسباب الأخرى التى هى أساس هذه الأسباب ومرجعها ، ولأجلها كان خليقاً أن تأخذه بلاغة القرآن ، وأن تميل به الرحمة إلى الإيمان .

فقد كان مهيأ للإسلام لامحالة ، وكانت مجافاته للإسلام خليقة أن تنتهى بعد قليل ، وألا تطول إلا ريثما تعن المناسبة للشهادة باللسان بعد التهيؤ بالفطرة والضمير .

فلم يكن بين عمر والإسلام فى بداية الأمر إلا باب واحد للعداء . وكل ماعدا ذلك من الأبواب فقد كان مفتوحاً بينه وبين هذا الدين الجديد ، ماهو إلا أن يراه بالعين حتى يندفع فيه .

كان باب العداء بينه وبين الإسلام أنه رجل قوى غيور عزيز فى قومه . فإذا رجل يخرج عليهم فيفرّق - كما قال - أمر قريش ويسفّه أحلامها ويعيب دينها ويسب آلهتها ، فلا جرم يثور ويغضب وينقم ، ولا عجب أن يذود عن ذماره ويرحض المعابة عن شرف آبائه ، ويرى أنه غير عاد ولا باغ ، وأن البغى والعدوان إنما يجيئان من قبل ذلك الرجل الخارج على قومه ، حتى يتبين له بالحق الذى يصدع به أن الذى هو فيه هو البغى والعدوان .

ذلك باب العداء الوحيد الذى كان بين عمر والإسلام ، وهو باب لايطول مدخله فى نفس طبعت على العدل والإنصاف .

فما من سبب يصل بين الجاهلى الشريف وهذا الدين الجديد إلا كان موصولا بنفس عمر أوثق صلة ، وما علمنا من سبب للإسلام إلا كانت له عقدة فى نفس عمر وثيقة القرار .

فربما أسلم أناس لأنهم أخذوا ببلاغة القرآن ، وأسلم أناس لأنهم كرهوا المنكر الذى كان يشيع فى الجاهلية ، أو لأنهم ورثوا النزعة الدينية والخلائق المستقيمة ، أو لأنهم جبلوا على روحانية تصل بينهم وبين عالم الغيب وحظيرة الأسرار ؛ أو لأنهم قد عرضت لهم عارضة موقوتة حرّكت ما فيهم من كوامن تلك الأسباب .

وكل أولئك كان عمر على ٱستعداد له عظيم .

وكل أولئك لم يكن عمر فيه بالوسط المكرّر ، بل كان فيه العلم المترفع المضىء بين الأعلام .

كان عمر بليغاً حسن النقد للبلاغة ، هواه منها الصدق والطبع وجمال التفصيل ، فكان يطرب لقول زهير :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

ويقول كلما أنشده معجباً : ما أحسن ما قسم ! وسماه شاعر الشعراء لأنه لا يعاظل بين القوافى ولا يتبع حواشى الكلام .

وربما قضى الليلة ينشد شعره حتى يبرق الفجر فيقول لجليسه « الآن ٱقرأ يا عبد الله » .

وجاءه يوماً بعض آل هرم بن سنان ممدوح زهير فقال عمر : أما وإن زهيراً كان يقول فيكم فيحسن ، فقيل له : كذلك كنا نعطيه فنجزل . فعاد عمر يقول : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم

وجاءه وفد من غطفان فسألهم من الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا : نابغة بنى ذبيان . فسألهم : ومن الذى يقول :

أتيتك عارياً خلقا ثيابى على وجل تظن بى الظنون

فألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

قالوا : هو النابغة . فقال : هو أشعر شعرائكم .

وطالما أعجب بقول عبدة بن الطبيب :

والمرء ساع لأمر ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل

وينشد فيقول : على هذا بنيت الدنيا !

وندر بين أئمة الدين من غاص فى أدب قومه غوصه ووعى من أشعارهم وطرفهم مثل ما وعاه . قال الأصمعى : ما قطع عمر أمراً إلا تمثل فيه ببيت من الشعر . ونحن نرجع إلى الشعر الذى تمثل به فنراه فى أحسن موقع وأصدق شاهد ونلمح من قليل أخباره فى خلوته أن الأدب كان جانباً من جوانبه التى ترق فيه حاشيته ويأنس فيه إلى قلبه ويرجع فيه إلى فطرته . جاء عبد الرحمن ابن عوف إلى بابه فوجده مستلقياً على مرحفة له وإحدى رجليه على الأخرى وهو ينشد بصوت عال :

وكيف ثوائى بالمدينة بعد ما قضى وطراً منها جميل بن معمر

فلما دخل عبد الرحمن وجلس قال له : ياأبا محمد ! إنا إذا خلونا قلنا كما يقول الناس .

ولم يقصر إعجابه بالشعراء على الذين وافقوا المواعظ والسنن الدينية ، بل نظر فى فنهم وفاضل بينهم فى بلاغتهم ، ففضل امرأ القيس لأنه « سابقهم خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معانٍ عورٍ أصحّ بصر » .

ونوادره مع الشعراء والرواة كثيرة تدل على شغفه بالبلاغة الصادقة وحفظه لأجمل مايحفظ بين أهل عصره ، كما تدل على ذلك خطبه ورسائله وشواهده وأمثاله .

وقد يصح أنه نظم الشعر أو لا يصح . فقد نسبت إليه أبيات وأنكر هو أنه شاعر حيث يقول : لو نظمت الشعر لقلته فى رثاء أخى . ولكنّ الصحيح أنه كان يحب الشعر البليغ ويرويه ويوصى بروايته ، وأنه نشأ فى قوم يحبون مثل ما أحب ويعجبون بمثل ماأعجبه ، ومنهم أبوه الذى نظم الشعر فى أكثر من مناسبة وروى عنه أنه قال لما توعده أبو عمرو بن أمية :

أيوعدنى أبو عمرو ودونى رجال لا ينهنهها الوعيد

... ...

ربيع المعدمين وكل جار إذا نزلت بهم سنة كؤود

هم الرأس المقدم من قريش وعند بيوتهم تلقى الوفود
فكيف أخاف أو أخشى عدوًّا ونصرهم إذا أدعو عتيد
فلست بعادل عنهم سواهم طوال الدهر ما اختلف الجديد

إلى آخر ما نسب إليه .

فأقرب شيء إلى الواقع - وإلى المتوقع - أن يؤخذ ببلاغة القرآن رجل نشأ هذه النشأة وأحب الكلام البليغ هذا الحب وأن يخشع لآياته ويعجب لتفصيله ، فيفتح من قلبه مسالك الإصغاء .

وكان عمر مستقيم الطبع مفطوراً على الإنصاف ، فلم يكن رجل مثله ليستريح إلى فساد الجاهلية أو يخفى عليه فسادها إذا نبه إليه وهدى إلى ما هو خير منه .

وكانت النزعة الدينية وراثة فى أسرته على ما يظهر من مبادرة أخته فاطمة وابن عمه سعيد بن زيد إلى الإسلام ، وكان له قبل الإسلام رجل من عمومته يقدح فى الوثنية ويبحث عن الحق فى النصرانية واليهودية ، ويبتلى أهله بالخلاف ويبتلونه بالإيذاء والحبس والإرهاق ، ونعنى به زيد بن عمرو بن نفيل .

وعمر نفسه ألم يقل لنا إنه يئس ليلةً من السمر ومن الخمر فذهب يطوف بالبيت كأن طواف البيت شهوة من شهوات قلبه تنوب عنده مناب المحبوب من الشهوات ؟ ألم يكن فى الجاهلية ينذر

أن يعتكف ليلة من كل أسبوع ؟ بل لعل صلابة الخطاب أبيه لم تكن فى صميمها شيئاً مناقضاً لعنصر الدين والإيمان . فإن هؤلاء الصلاب الشداد فى المحافظة على العرف هم أولئك المؤمنون المتزمتون الذين لايطيقون المساس بعقائدهم إذا آمنوا بدين .

وزاد عمر على الوراثة الدينية أنه كان صاحب فراسة وزكانة وكان يستطلع الرؤى والمنامات ويتصل بالغيب ويبصر على البعد كما سلف فى حديث سارية حين ناداه : يا سارية الجبل ! يا سارية الجبل . وبينهما مسيرة أيام .

وكانت العوارض تمر به فتعطفه إلى الإسلام تارة من طريق الرحمة وتارة من طريق العدل والنخوة . فيخشع ويندم ويراجع عناده وكبرياءه . إذ ليس أبغض إلى الرجل الأبىّ المنصف من أن يحارب أناساً لا يحاربونه ، ويلجّ فى إيذاء قوم لا يقدرون على أذاه .

فإذا تفتحت هذه الأبواب جميعاً بين عمر والإسلام فبابٌ واحد موصد لن يحجبه طويلا عن هـذا الدين ، ولن يحجب هذا الدين طويلا عنه .

وقد تفتحت فى يوم من الأيام .

تفتحت كلها فدخلها دخول العاصفة من جميع الأبواب ،

وأسلم الجاهلى الشريف كما كان ينبغى أن يسلم ، وكما كان يقيناً سيسلم فى مناسبة من المناسبات .

فإذا العالم الإنسانى قد تفتحت فيه صفحة جديدة :

صفحة يقرأ فيها القارئ قبل كل شىء ماذا يصنع الإسلام بالنفوس ، ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية منشئة من لدنْ المقادير التى تسيطر على هذا الوجود : كان قدرةً تلابس الضعيف فيقوى ، وتلابس القوىّ فتنمى قوته وتجرى به فى وجهته ، وكان يداً خالقة حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة فى التيه فإذا هى صرح له أساس وأركان ، وفيه مأوى للضمائر والأذهان .

جاهلى كسبه الإسلامى فكسبه العالم الإنسانى كله إلى آخر الزمان ... ونفسٌ ضائعة رُدَّت إلى صاحبها فعرف منها ما كان ينكر واطلع منها على ما كان يجهل ، ونفع بها أمّته وأمماً لا تحصى وصنع بها الإسلامُ أعظم وأفخم ما تصنعه قدرة بناء وإنشاء ، حيثما كانت قدرة بناء وإنشاء .

ونظرت الأمم فرأت كيف تعلو النفس الإنسانية حتى يحار فيها الإنسان وهو ريشة فى مهب النوازع والأشجان .

رأت كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة ، وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لا يأكل طعامه ولا يروى ظمأه

إلا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لايصحو ولا ينام إلا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لايتنفس الهواء إلا ليمتنع الظلم عن الناس وتذول دولة الباطل بين النـاس ، وكأنمـا العدل والحق دين عليه يطالبه به ألف غريم ، وهو وحده أقوى فى المطالبة بهما من ألف غريم .

لقد كان هـذا الرجل المجيد يبغض أن يظلم غيره أشدّ من بغضه أن يظلمه غيره . وهذه منزلة فى الأنفة لاتطاولها المنازل ، لأنها منزلة الأبطال الذين يسمون على أنفسهم ، ولهم أنفس أسمى من عامّة الأبطال .

وإننا لنعلم كم حزّ فى قلبه الـكريم أن يضرب بريئاً على دين الحق كلما رجعنا إلى أيامه الأولى بعـد الإسلام ، وهى أيام لاتنسى فى تاريخ البطولة والأبطال .

فمـا شغله أمر بعد إعلان الدين إلا أن يخرج ليضربه أُناس كما كان يضرب أُناساً فى سبيل ذلك الدين .

ثار إلى الناس يضربونه ويضربهم ، فقام خاله يسأل : ماهذه الجماعة ؟ قيل له إن ابن الخطاب قد صبأ ... فقام على الحِجر فنادى : ألا إنى قد أجرت ابن أختى : فانـكشف الناس عنه . فكان لايزال يرى مسلماً يضرب ولا يضربه أحد ، وثقل عليه ألا يصيبه

ما يصيب المسلمين ، فذهب إلى خاله وقد اجتمع الناس فى الحِجْر وناداه : اسمع ! ... جوارك مردودٌ عليك . قال خاله وهو به وبما يستهدف له أدرى : لا تفعل يا ابن أختى . فأصرّ على ردّ جواره ، وطاب له بعد ذلك أنه اقتص من نفسه للأبرياء الذين ضربهم وهو يجهل دينهم ، فلا تمضى تلك الضربات بغير قصاص ، وإن كفر عنها بالتوبة وإعزاز الدين الذى آذاهم من أجله .

وأبى من اللحظة الأولى إلا أن يواجه الخطر الأكبر فى سبيل دينه . وإلا أن يقبض على الثور من قرنيه كما يقول الغربيون فى أمثالهم ، وأن يتحدى قريشاً بحقه مذ آمن بأنهم على باطل . فسأل أُناساً . أى أهل مكة أنقل للحديث ؟ قيل له جميل بن مَعمر الجمحى ... فذهب إليه فصرّح له بإسلامه ! ... ولم يكذب الرجل الظنّ به ، فما هو إلا أن سمعها حتى خرج وعمر وراءه إلى أندية قريش حول الكعبة يصرخ بأعلى صوته على باب المسجد : يامعشر قريش ! ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ .. وعمر يقول من خلفه : كذب ! ولكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله . ثم تنشب المعركة بين هذا الرجل المفرد وبينهم فيثب على أدناهم منه وأجرأهم عليه ـ عتبة بن ربيعة ـ فيصرعه ويبرك عليه يضربه ويدخل أصبعيه فى عينيه لأنهما عمياوان عن الحق لا تبصران النور !

ويتكاثرون عليه فلا يدنو منهم أحد « إلا أخذ شريف من دنا منه » حتى أحجموا عنه وركدت الشمس وفتر من طول الصراع . فجلس وهم قائمون على رأسه يثابونه وهو يقول لهم : « افعلوا مابدا لكم . فوالله لو كنا ثلثمائة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم » .

افعلوا مابدا لكم ! وهذا ماأراد ... فما يستريح وجدانه الحىّ أن يضرب مسلماً لإسلامه ولم يضرب كافراً لكفره ، وما يشعر أنه وفى الله دينه وقد ضَرب ولم يضرب وآذى أُناسا ولم يؤذه أحد ، وما تهدأ حاسة العدل فيه - وقد كانت كأنها من حواس بدنه - إلا أن يحس القصاص فى نفسه كما أحس المضروبون بالأمس عدوانه فى أنفسهم .

« وراح يسأل النبي : يارسول الله ! ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا ؟ فقال عليه السلام : بلى ! والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم . قال : ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لتخرجنّ !

« فما لبث النبي أن خرج فى صفين أحدهما فيه عمر والآخر فيه حمزة . ولهما كديد[1] كأنه كديد الطحين ، فدخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبة فلا يجرؤ سليط منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان ... وسماه النبي يومئذ الفاروق .

(١) التراب الناعم .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « ماعلمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده أسهماً واختصر عَنَزَته [1] ومضى قِبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها . فطاف فى البيت سبعاً متمكناً . ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة يقول لهم : شاهت الوجوه ! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ! من أراد أن يثكل أُمه أو يوتم ولده أو يرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى ... » .

لقد كان فى تحديه هذا لقريش عدتان : شجاعته وعدله ... فما كانت شجاعته فى هذا التحدى بأظهر من عدله ولا كان عدله فيه بأظهر من شجاعته . إذ الشجاع الحق مطبوع على الأنفة من الظلم لأنه شديد الإحساس بذله ، ومن كان شديد الإحساس بذلّ الظلم فهو شديد الإحساس بعزة العدل من طريق واحد . وقلما أغضب العادل الشجاع شىء كاستطالة الظالم وظنه أن المظلوم لا يستطيل عليه ، فذلك هو التحدى الذى يثير الشجاعة ويثير النقمة على الظلم أو يثير حب العدل فى وقت واحد ، وإنّ الموت لأهون من الصبر على هذا التحدى المرذول وهذا الصلف القبيح . وما الشجاعة إن لم تكن هى الجرأة على الموت

(١) عصا لها زج كالرمح الصغير .

كلما وجب الاجتراء عليه ؟ وأى امرئ أولى بالجرأة من الشجاع الذى يعلم أن الحق بين يديه ؟ ألسنا على الحق إن حيينا وإن متنا ؟ فعلى الحق إذن فلنمت ولانعيشن على الباطل . فالباطل كريه والجبن كريه . وذانك ملتقى العدل والشجاعة فى قلب العادل الشجاع .

* * *

ونهج عمر طريقه فى الإسلام كما نهج طريقه إلى الإسلام : كلاهما طريق «عمرى» هو أشبه به وهو أقدر عليه ، وكلاهما طريق صراحة وقوة لا يطيق اللف والتنطع ولا يحفل بغير الجد الذى لا عبث فيه ... فلا وهن ولا رياء ولا حذلقة ولا ادّعاء . وما شئت بعد ذلك من إسلام صريح قويم فهو إسلام عمر بن الخطاب .

قال فى بعض عظاته ؛ « لا تنظروا إلى صيام أحد ولا إلى صلاته ، ولكن انظروا من إذا حدث صدق وإذا ائتمن أدى وإذا أشفى - أى هم بالمعصية - ورع » .

وقال فى هذا المعنى : « لا يعجبنكم من الرجل طنطنته ، ولكن ... من أدى الأمانة إلى من ائتمنه وسلم الناس من يده ولسانه » .

وقال فى عمل الدنيا والآخرة : « ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا ، أو عمل للدنيا وترك الآخرة ، ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه . وإنما الحرج فى الرغبة فيما تجاوز قدر

الحاجة وزاد على حد الكفاية ... » .

ولم يكن أبغض إليه ممن يتوانى ليقال إنه متوكل على الله ؛ أو يتراءى بالضعف ليقال إنه ناسك ، أو يفرط فى العبادة ليقال إنه زاهد فى الدنيا .

فكان يقول : « إن المتوكل الذى يلقى حبه فى الأرض ويتوكل على الله » ... و « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول ٱرزقنى . وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وأن الله تعالى يرزق الناس بعضهم من بعض » .

وكان يضرب من يتماوت ويستكين ليظهر التخشع فى الدين فنظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت فخفقه بالدرّة وقال : « لا تمت علينا ديننا أماتك الله » وأشاروا له إلى رجل يصوم الدهر فضربه وهو يقول له : كل يا دهر ! كل يا دهر ! ... ينهاه عن الصوم الذى يعوقه عن معاشه ولا يوجبه عليه الدين .

وكان كلما رأى شاباً منكساً رأسه صاح به : « ٱرفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما فى القلب ، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما فى قلبه فإنما أظهر للناس نفاقاً إلى نفاق » .

وإنما كان يعجبه « الشاب الناسك نظيف الثوب طيب الرائحة » ويرى المسلمين بخير ما علموا أبناءهم الرمى والعوم

والفروسية ، فأنتم بخير كما قال « مانزوتم على ظهور الخيل » .

دين الرجل القوى الشجاع الذى ينتصر بدينه فى ميدان الحياة ، وليس بدين الواهن المهزوم الذى تركته الدنيا فأوهم نفسه أنه هو تاركها ليقبل على الآخرة .

وكانت شجاعته فى دينه أندر الشجاعات فى النفوس الآدمية ... لأنها الشجاعة التى يواجه بها تهمة الجبن وهو أرذل من الموت عند الرجل الشجاع . فإن كثيراً من الناس ليعدلون عن الصواب الذى يظهرهم بمظهر الخوف ليقال إنهم شجعان ، وإنهم فى عدولهم عنه لمن الجبناء المستعبدين للثناء ، ولم يكن عمر يعدل عن صواب فهمه ولو قيل فى شجاعته ماقيل ، وتلك أشجع الشجاعات .

فشا طاعون عمواس وعمر فى طريقه إلى الشام ، فلقيه أبو عبيدة وأصحابه عند تبوك وأخبروه خبر الطاعون ، فاستشار المهاجرين والأنصار فاختلفوا بين ناصح بالمضىّ وناصح بالقفول : ناصح بالمضى فى طريقه يقول إنه خرج لأمر ولا يرى له أن يرجع عنه ، وناصح بالقفول يقول إنه اصطحب « بقية الناس وأصحاب رسول الله ولا يرى أن يقدمهم على وباء » ... ثم دعا مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فلم يختلف عليه رجلان وأشاروا جميعاً بالرجوع . فقال أبو عبيدة : أفراراً من قدر الله ؟ قال عمر : نعم

نفرّ من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ ... وما رام مكانه حتى جاءه عبد الرحمن بن عوف فحسم الخلاف برأى النبى فى الخروج من أرض الطاعون والقدوم إليها حيث قال عليه السلام : « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » .

فكان إيمانه بصيراً لا يهجم به على عمياء ولا يستسلم فيه استسلام العجزة وهو قادر على الحيطة والأخذ بالأسباب ، وكانت نصيحته العامة للمسلمين فى أمر الطاعون كرأيه الخاص فى أمر نفسه وصحبه ، فأمرهم بالاستنقاذ ماوجدوا له سبيلا وكتب إلى أبى عبيدة « إنك قد أنزلت الناس أرضاً غمقة - أى وخيمة - فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة » وهو أحوط مايحتاط به أمير عالم فى هذه الأيام .

* * *

كذلك لم يكن يؤمن بشىء ينفع أو يضر غير ماعُرفت أسباب نفعه وضرره ، فكان ينظر إلى الحجر الأسود فيقول كلما استلمه : إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » .

وسمع أن الناس يأتون الشجرة التى بايع رسول الله تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها ويتبركون بها فأوعدهم وأمر بها أن تقطع ، مخافة أن تسرى إلى الإسلام من هذه المناسك وأشباهها لوثة من الوثنية والتوكل على الجماد .

* * *

وربما التبس الأمر من نوادر عمر فى التقشف واجتناب المتع والمناعم فحُسبتْ فرائض يوجبها ويجرى فيها على طريقة أولئك النساك المتخشعين الذين كان ينهاهم أن يميتوا الدين ويهزأ بهم كلما تنطعوا فيه وأوجبوا مالا يجب على المؤمنين .

فلا يلتبسنّ الأمر هذا الملتبس ، فهو واضح بيِّن التفرقة من سيرته ومن الأحاديث التى صحبت تلك النوادر ، ففسرتها ودلت على الغرض منها .

فعمر كان مسلماً وكان خليفة للمسلمين . وفرق بين محاسبة المسلم نفسه وهو مسئول عنها دون غيرها ، وبين محاسبة الخليفة نفسه حتى يقع الشك فى عمله وينزه يده وأيدى أهله عما ليس لهم بحق من سلطان الحكم أو بيت المال ، ثم يفى لذكرى صاحبه الذى خلفه على المسلمين ، فلا يعيش فى مكانه خيراً من عيشته

ولا يمنح نفسه وذويه مالم يمنحه النبي لآله وذويه .

وعمر الذى كان يقنع بالخشن الغليظ من المأكل والملبس ويأبى أن يذوق فى المجاعة مطعما لا يسع جميع المسلمين إنما هو الخليفة الذى يحاسب نفسه قبل أن تحاسبه الرعية ، وقد وُجد منهم من لامه لأنه طرح كساءه وفيه فضل ملبس . فاتقاء هذا الحساب وما وراءه من حساب الله هو الذى توخاه خليفة النبي فى معيشته ومعيشة أهله ، ومما يشبه تقشف النساك .

وعلى هذا كله كان أعلم الناس أن الطيبات حلال وأن النهى عن الحلال تنطع فى الدين يأباه الإسلام .

كتب إليه أبو عبيدة أنه لا يريد الإقامة بأنطاكية لطيب هوائها ووفرة خيراتها مخافة أن يخلد الجند إلى الراحة فلا ينتفع بهم بعدها فى قتال . فأنكر عليه ذلك وأجابه : (إن الله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات ، فقال تعالى فى كتابه العزيز : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات وٱعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم » وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون فى مطعمهم ويريحون الأبدان النصبة فى قتال من كفر بالله) .

وحدث حُذيفة بن اليمان أنه أقبل على الناس وبين أيديهم القصاع فدعاه عمر إلى الطعام وعنده خبز غليظ وزيت ! فقال حذيفة :

أمنعتنى أن آكل الخبز واللحم ودعوتنى على هذا ؟ قال : إنما دعوتك على طعامى . فأما ذاك فطعام المسلمين » .

فللمسلمين حلٌّ ماشاءوا من الطعام أما الرجل الذى ينفق من بيت المال فله مايكفيه . والحرج كل الحرج عليه - وهو فى عدل عمر وحزمه وجلده - أن يأخذ منه ما لا حاجة به إليه ، وإنه ليزداد حرجاً على مافيه من قناعة أن يكون من أصحاب رسول الله ويعلم كيف كان رسول الله يأكل فى بيته وماذا كان يجد من الملبس له ولأهله ، ثم يصيب من هذا أو ذاك خيراً مما أصاب الرسول .

وللولاة عنده مثل ما للمسلمين عامة من حق المتعة السائغة والنعمة التى ترضاها الرجولة ، لا يأخذهم بمحاكاته لأنهم يتولون الأمر كما تولاه . بل ربما لامهم على التقتير كما كان يلومهم على الإسراف .

أنكر على عامله فى اليمن حللا مشهرة ودهوناً معطرة فعاد إليه العام الذى يليه أشعث مغبراً عليه أطلاس ، فقال : لا . ولا كل هذا ... إن عاملنا ليس بالشعث ولا العافى . كلوا واشربوا وادهنوا إنكم ستعلمون الذى أكره من أمركم .

* * *

ومن تمام العلم بإسلام عمر أن نعلم فضل إسلامه مع من لم يكن من أهل الإسلام . فإن الحق الذى يتبعه الرجل مع أهل دينه

وحدهم لحق محدود يدخل فى باب السياسة القومية أكثر من دخوله فى باب الفضيلة الإنسانية . وإنما يصبح حقاً جديراً باسم الحق حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه .

وعمر كان ولا ريب أشدّ المسلمين فى إسلامه .

فلو كان الإسلام ظالما بطبيعته لمن لم يدخلوا فيه لكان عمر أشدّ المسلمين ظلماً لهم وقسوة عليهم . لكنه كان فى الواقع أشدّ المسلمين رعاية لعهدهم مذ كان أشدّ المسلمين غيرة على دينه وعملا بأدبه .

فكان شأنه مع من حاربوه شأن المحارب الشريف ، ولن ينتظر محارب من محارب إلى آخر الزمان معاملة أقوم ولا أصدق من معاملة عمر لمحاربيه .

وكان شأنه مع من صالحوه وعاهدوه أن يفى بعهدهم ويخلص فى الوفاء به إخلاص من يطالب نفسه به قبل أن يطالبوه . ومن يراقب نفسه فيه قبل أن يراقبوه .

كتب للنصارى فى بيت المقدس أماناً على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسهم لاتهدم ولاتسكن ، وحان وقت الصلاة وهو جالس فى صحن كنيسة القيامة فخرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده . وقال للبطرك : لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى وقالوا : هنا صلى عمر !

ثم كتب كتاباً يوصى به المسلمين ألا يصلى أحد منهم على الدرجة إلا واحداً واحداً غير مجتمعين للصلاة فيها ولا مؤذنين عليها .

وكذلك كان يفعل فى كل موضع صلى فيه من الكنائس التى عاهد النصارى على تركها وتحريم هدمها وسكناها .

أما عهده لهم فقد كان مثالا من السماحة والمروءة لا يطمع فيه طامع من أهل حضارة من حضارات التاريخ كائنة ما كانت .

فكتب لهم العهد الذى قال فيه : « ... هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وأن يخرجوا منها الروم واللصوت ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ... ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ... »

وليس لذى عهد من ظافر أن يطمع فى أمان أكرم من هذا الأمان

وإنه لقد كان يعطيهم عليه وعلى قومه هذه العهود ثم لا يقنع بها حتى يشفعها بالوصاة للولاة أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة ، وأن يوفى لهم بعهدهم ويُنضح عنهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم : كتب بذلك إلى أبى عبيدة كما كتب إلى غيره من الولاة وأوصى به فى وصيته قبل أن يموت .

وما شكا إليه مظلوم من أهل الذمة واليا كبر أو صغر إلا أنصفه منه : بعث زياد بن حُدير الأسدى على عشور العراق والشام . فمر عليه تغلبى نصرانى معه فرس قوموها بعشرين ألفاً . فخيره أن ينزل عن الفرس ويأخذ تسعة عشر ألفاً أو يمسكها ويعطى الألف ضريبة . فأعطاه التغلبى ألفاً وأمسك فرسه ، ثم مر عليه راجعاً فى سنته فطالبه بضريبة أخرى . فأبى وشكاه إلى عمر وقص عليه قصته فما زاد على أن قال له : كفيت ! ثم رجع التغلبى إلى زياد وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفاً أخرى ، فوجد عمر قد كتب إليه : من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل !

وسمع أن بنى تغلب لا يزالون ينازعون واليهم الوليد بن عقبة وينازعهم وأنهم أوغروا صدره فقال فيهم يتوعدهم :

إذا ما عصبت الرأس منى بمشوذ ... فغيك منى تغلب ابنة وائل

فخشى أن يضيق بهم صبره فيسطو عليهم فعزله وأمّر غيره .

ولعل حاكما من الحكام لايرام منه أن يبلغ فى البر بمخالفيه فى الدين مبلغاً أكرم وأرفق من إجراء الصدقة على فقرائهم ، ولا سيما الحاكم الذى يدعو إلى دين جديد .

وقد تقدم أن عمرُ أجرى الصدقة على شيخ يهودى مكفوف البصر . وقال : ماأنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم .

وقدجعل ذلك سنة فيمن يبلغه أمرهم من الذميين والمعوزين ... فمرّ فى أرض دمشق بقوم مجذمين من النصارى . فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت .

وإذا أحصيت له فى سيرته الطويلة أوامر وخططا تحرم الذميين بعض الحريات أو بعض الحقوق فكن على يقين أنه قد صدر فى ذلك جميعه عن حكمة توجبها سياسة الدولة ويقرّها العقل والعرف كما يقرّها الدين والكتاب ؛ ولم يصدر فيه قطّ عن حيف مقصود أوعن رغبة فى حرمان الذميين حرّية يستحقونها أو حقًّا هم أحرار فيه .

ولعل الذى يحصى له من هذه الأوامر والخطط لايعدو النهى عن استخدام بعض الذميين ، ومنعهم أن يتشبهوا فى الأزياء والمظاهر بالمسلمين ، وإجلاء بعضهم عن الجزيرة العربية فى إبان الفتوح والحذر من الكيد والتجسس والانتقاض .

فأما نهيه عن استخدام بعض الذميين فارجع إلى ماقاله فى ذلك

تعلم أنه منع استخدامهم لمصلحة العدل وكراهة الظلم والمحاباة . فقال : « إنى نهيتكم عن استعمال أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرُّشا » .

وطلب يوماً من أبى موسى رجلا ينظر فى حساب الحكومة فأتاه بنصرانى ، فقال : إنى سألتك رجلا أشركه فى أمانتى فأتيت بمن يخالف دينه دينى ، وقلما نهى عن استعمال اليهود والنصارى إلا ذكر بعدها : إنهم أهل رشى ، ولا تحل فى دين الله الرشى !

وكان له عبد من أهل الكتاب يقال له أسبق . فعرض عليه أن يسلم حتى يستعين به على بعض أمور المسلمين . فأبى ، فأعتقه وأطلقه وقال له : اذهب حيث شئت !

فلم يكن نهيه عن استخدام أهل الكتاب فى مهام الدولة إلا إيثاراً للعدل وكراهة للرشوة والزيغ فى الحكومة ، وما نظن أحداً ينكر أن استخدام الغرباء عن الدولة خليق أن يحاط بمثل هذا الحذر وأن تجتنب فيه مثل هذه الآفة . إذ يكثر بين المرتزقة الذين يخدمون دولة من الدول وهم غرباء عنها كارهون لمجدها وسلطانها أن ينظروا إلى منفعتهم قبل أن ينظروا إلى منفعتها . وأن يساوموا على نفوذهم قبل أن يستحضروا الغيرة على سمعتها ، والرغبة فى خيرها وخير أهلها . ولا سيما فى زمن كانت الدول تميز بالعقائد قبل أن تميز بالأوطان .

وما من أمّة فى عهدنا هذا تبيح الوظائف العامّة إلا بقيود وفروق متفق عليها : أولها تحريمها على الأجانب ما لم تكن فى استخدامهم منفعة عامّة .

وهذه هى سياسة عمر فى مسألة الوظائف القومية ، بغير إعنات للدولة ولا إعنات للرعية ، وكفى بأتقاء الإعنات أن العبد المملوك يُخير فى الوظيفة والإسلام فيأبى ، فلا يصيبه من ذلك ضيم ، ويطلق له زمامه يفعل ما يشاء .

أما نهيه عن تشبه الذميين بالمسلمين وكراهته أن يبدلوا أزياءهم التى ولدوا عليها فلا يلام عليه حتى نعلم لم كان أناس من الذميين يودون التشبه بالمسلمين فى الزى والشارة ؟ أكانوا يتشبهون بهم حباً لدينهم فهم إذن مسلمون لا يمنعهم مانع أن يجهروا بالإسلام ... أم يتشبهون بهم كيداً لهم ورغبة فى التسلل بينهم والإفلات من عهودهم والتزاماتهم وما توجبه الدولة عليهم فى تلك العهود والالتزامات ؟ .

إن كانوا يفعلونه لهذا فلا لوم على عمر أن يأباه . وبخاصة فى الزمن الذى كان المسلمون فيه جميعاً فى حكم الجنود ، وما من دولة ترضى أن تبيح أزياء جنودها لمن يشاء .

وأما إخراج بعض الذميين من الجزيرة فما خرج منهم أحد إلا

وقد غدر بذمة وكرر الغدر مرة بعد مرة ، كما صنع أهل خيبر .

ومنهم من أجلى عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء فضلا عن نقضه العهد كما فعل أهل نجران .

فقد صالحهم النبي على أن يبقوا فى مساكنهم ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ، وجاء أبو بكر فجدد الصلح على ذلك ، ثم استخلف عمر فرجعوا إلى الربا وأفرطوا فيه ، وكانوا قد بلغوا أربعين ألفاً فتحاسدوا بينهم وأتوا عمر يسألونه إجلاءهم . فاستحب هذا الجلاء .

على أنه لم يكن يأبى على التجار المأمونين أن يدخلوا الجزيرة ويؤدوا العشور . فلما كتب إليه المشركون من أهل منبج أن « دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا » شاور أصحاب النبي فأشاروا عليه بقبولهم ، فدعاهم إليه .

ولا يفوتنا فى هذا الصدد أمران مقترنان بخطة الإجلاء التى لجأ إليها عمر وأيقن بصوابها وضرورتها . فأول الأمرين أن الجزيرة حرم الإسلام الذى كان يحيط به أعداؤه ويتربصون به الدوائر ويثيرون الفتنة على أطرافه كما صنع الفرس بالعراق والروم بالشام ولا أمان على حرم يسكنه أُناس فيهم من يغدر بأهله ، بل فيهم من هؤلاء كثيرون .

وثانى الأمرين أن عمر قد سوى بين الإسلام والنصرانية فى هذه الخطة ، فحفظ حرم النصرانية ببيت المقدس للمسيحيين لايسكنه معهم من لايقبلونه ، كما حفظ حرم الإسلام بالجزيرة العربية للمسلمين لايسكنه معهم من يحذرون غدره .

وقد أجمل العوض حين ألجأته ضرورة الدولة إلى اتخاذ هذه الخطة . فاشترى بيوت أهل نجران وعقاراتهم وأقطعهم النجرانية عند الكوفة ، وكتب لهم وصاة قال فيها : « ... هذا ما كتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران . من سار منهم آمن بأمان الله لايضرّه أحد من المسلمين ... ومن مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من حرث الأرض . فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله ... ومن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهراً بعد أن يقدموا ، ولا يكلفوا إلا من صنعهم البرّ غير مظلومين ولا معتدى عليهم » .

ولم يفارق عمر الدنيا حتى أوصى الخليفة الذى يُختار بعده بالذميين كافة « أن يوفى بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم » ... ودون هذا بالمراحل الشاسعة يقف عدل الدول القدامى والمحدثات فى كل ما اتخذت من حيطة حربية أو حماية

قومية أو معاهدة بينها وبين أمة أجنبية ، وإن عذرها لدون عذر عمر فى خططه ، وإن أسبابها لدون أسبابه فى الإقناع .

* * *

كان مسلماً شديداً فى إسلامه ، فلم تكن شدته فى إسلامه خطراً على الناس ، بل كانت ضماناً لهم ألا يخافه مسلم ولا ذمّى ولا مشرك فى غير حدود الكتاب والسنة .

وكان جاهليًّا فأسلم . فأصبح إسلامه طوراً من أطوار التاريخ ، ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية منشئة فى التاريخ الإنسانى لما كان إسلام رجل طوراً من أطواره الكبار .

وكان هذا الرجل يحب ويكره كما يحب الناس ويكرهون ولكن لاينفعك عنده أن يحبك ولا يضيرك عنده أن يكرهك إذا وجب الحق ووضح القضاء . قال يوماً لأبى مريم السلولى قاتل أخيه : والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح ! فقال له أبو مريم : أتمنعنى لذلك حقا ؟ قال : لا . قال : لاضير ! إنما يأسى على الحب النساء .

وحسبك من إسلام يحمى الرجل من خليفة يبغضه وهو قادر عليه ، فذلك المسلم الشديد فى دينه ، والذى يشتد فيأمنه العدو والصديق .

عمر والدّولة الإسلاميّة

تأسست الدولة الإسلامية فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه لأنه وطد العقيدة وسير البعوث . فشرع السنة الصالحة فى توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه فى حرب الردة ، وشرع السنة الصالحة فى تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح . فكان له السبق على خلفاء الإسلام فى هذين العملين الجليلين .

إلا أننا نسمى عمر مؤسساً للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق فى أعمال الخلافة . لأننا « أولا » لانجد مكاناً فى التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظام .

ولأننا من جهة أخرى لانربط بين التأسيس وولاية الخلافة فى إقامة دولة كالدولة الإسلامية . إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التى تقوم عليها وليس للتوسع فى الغزوات والفتوح . وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسساً لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأذانه وأعزها بهيبته وعنفوانه .

وكان مؤسساً لها يوم بسط يده إلى أبى بكر فبايعه بالخلافة وحسم الفتنة التى أوشكت أن تعصف بأركانها ، وكان مؤسساً لها يوم أشار على أبى بكر بجمع القرآن الكريم وهو فى الدولة

الإسلامية دستور الدساتير ودعامة الدعائم . ولم يزل يراجع أبا بكر في ذلك حتى آستدعى زيد بن ثابت كاتب الوحي فأمره أن يتتبع آى القرآن ليجمعها من الرقاع والأكناف والعسب وصدور الرجال ، فكان ذلك أول الشروع في جمع الكتاب .

هذا إلى أن أبا بكر رضى الله عنه أسس ولم يتسع له الأجل حتى يفرغ من عمله ، وجاء عمر بعده فأتم عمله وأقام الأساس ثم أقام عليه البناء ، وكانت قدرته على التأسيس هي آية الآيات فيه وفي ذلك العصر من البداوة البادية ، لأنه التفت إلى مواضعه الخليقة بالآهتمام والتقديم كأنه راجع تاريخ عشرين دولة مستفيضة الملك راسخة العمران . وهي قدرة تروعنا وتدهشنا لو شهدناها من ملك تربى على الملك وسلفه على عرشه سمط من الملوك . وأولى أن تروعنا وتدهشنا من رجل البادية الذي يقدم على أمر جديد لم تعنه فيه السوابق ولم يهتد فيه إلا بما آختار هو أن يهتدى إليه .

فبعد جمع القرآن لا نعرف عملا يقترن به ويلازمه ويعد من أسس الدولة العربية كالعمل على تصحيح اللغة وحفظها من الخلط والفساد . وكلاهما عمل لا يفطن إليه إلا من طبع على سليقة التأسيس وأخذ بها من أصولها ، وكلاهما فطن إليه هذا المؤسس الكبير على أهون ما يكون من البساطة والسهولة . فأشار بوضع

علم النحو كما أشار بجمع آى القرآن ، وكان أثره فى تدعيم الدولة الأدبية كأثره فى تدعيم دولة الغزوات والفتوح .

وندر فى الدولة الإسلامية من نظام لم تكن له أولية فيه ... فٱفتتح تاريخاً ، وٱستهل حضارة ، وأنشأ حكومة ورتب لها الدواوين ونظم فيها أصول القضاء والإدارة ، واتخذ لها بيت مال ووصل بين أجزائها بالبريد ، وحمى ثغورها بالمرابطين ، وصنع كل شىء فى الوقت الذى ينبغى أن يصنع فيه ، وعلى الوجه الذى يحسن به الٱبتداء فأوجز ما يقال فيه إنه وضع دستوراً لكل شىء وتركه قائماً على أساس لمن شاء أن يبنى عليه .

وملاك النظم الحكومية كلها نظام الشورى الذى أقامه عمر على أحسن ما يقام عليه فى زمانه ، فجمع عنده نخبة الصحابة للمشاورة والٱستفتاء ، وضنّ بهم على العمالة فى أطراف الدولة ، تنزيهاً لأقدارهم وٱنتفاعاً برأيهم وٱعتزازاً بتأييدهم له ومعاونتهم إياه فيما يتولاه من ثواب أو عقاب .

وجعل موسم الحج موسماً عاماً للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء فى أقطار الدولة من أقصاها إلى أقصاها : يفد فيه الولاة والعمال لعرض حسابهم وأخبار ولايتهم ، ويفد فيه أصحاب المظالم والشكايات لبسط ما يشكيهم ، ويفد فيه الرقباء الذين كان يبثهم

فى أنحاء البلاد لمراقبة الولاة والعمال ... فهى « جمعية عمومية » كأوفى ما تكون الجمعيات العمومية فى عصر من العصور .

وكان عمر يستشير جميع هؤلاء ويشير عليهم ، ويستمع لهم ويسمعهم ، ويتوخى فى جميع ذلك تمحيص الرأى وإبراء الذمة والخلوص إلى التبعة السليمة من العقابيل .

وإن أضعف الناس رأياً لمن يستضعف فضل الأمير فى عمل تولاه ، لأنه عمله بمشاورة غيره .

فإن باب المشاورة مفتوح لكل إنسان ، وليس كل إنسان مع ذلك بالذى يريد أن يستشير ، أو بالذى يعرف كيف يستشير إذا أراد ، أو بالذى يحسن الموازنة بين الآراء إن عرف من يستشيرهم ومن يقبل مشورتهم فى حالةٍ ويرفضها فى حالة أخرى .

إن المشاورة لفنٌّ عسير .

وإن الذى ينتفع بمشورة غيره لأقدر ممن يشير عليه .

وقد كان عمر عبقرىَّ هذا الفن الذى لا يجارى . وكان من بدعه الملهمة فى هذا الفن العسير أنه لم يلتمس الرأى عند أهل الحنكة والخبرة وكفى ، بل كان يلتمسه كذلك عند أهل الحدة والنشاط ممن يناقضون أولئك فى الشعور والتفكير ... فكان كما روى يوسف بن الماجشون : « إذا أعياه الأمر المعضل

دعا الأحداث فاستشارهم لحدة عقولهم ، وإنه لإلهامٌ فى فنّ الاستشارة لايلهمه إلا صاحب رأى أصيل . فمن الرأى الأصيل أن يخبر الإنسان كيف يستعير آراء المشيرين .

آنظر إليه كيف يستشير فى اختيار أمير ، تعلم أن الاستشارة كما قلنا فنّ ، وأنه فنّ عسير .

قال لأصحابه : دلونى على رجل أستعمله .

فسألوه : ماشرطك فيه ؟

قال : « إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم » .

إن الذى يسأل هكذا لهو أقدر من الذى يجيبه بالصواب ؛ لأنه قطع له ثلثى الطريق السديد إلى الجواب .

وكان ربما استشار العدوّ الذى لا يأمنه ، كما فعل فى سماع رأى الهرمزان فى أمر الحرب الفارسية . لأنه بصير يطلب نوراً ، فإذا رأى النور استوى لديه أن يحمل له المصباح عدو أو صديق .

ومن اليسير ، إذا تعقبنا مشاورات عمر ، أن نعلم أنه هو واضع دستور الشورى فى الدولة الإسلامية . وأن الشورى التى وضع دستورها هى شورى الرأى الأصيل يستعين بكل أصيل من الآراء .

* * *

وقد وضع لقواده دستور الحرب ، أو دستور الزحف من الجزيرة العربية إلى تخوم أعدائها ، كأحسن مايضعه رئيس دولة لقواده وأجناده .

فأرسل المدد إلى العراق وعليه أبو عبيد بن مسعود الثقفى وعلّمه كيف يستشير مجلس الحرب الذى معه وكيف يقدم فى موضع الإقدام ويتريث فى موضع التريث وأجمل له ذلك فى قوله : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعاً بل اتئد . فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة ، ولا يمنعنى أن أؤمر سليطاً (ابن قيس) إلا سرعته إلى الحرب . والسرعة إلى الحرب إلا عن بيان ضياع ... » وزاده تبصرة بالحيطة فقال له : « إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية : تقدم على قوم تجرؤا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه . فانظر كيف تكون . وأحرز لسانك ولا تفشينّ سرك . فإن صاحب السر ما يضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكره . وإذا لم يضبطه كان بمضيعة » .

فهى المشاورة ، ثم أناة فى الاجتهاد ، إلا أن تجب السرعة ببيان وثقة فليكن الإسراع ، وهذه وصية عمر بن الخطاب الذى يظنّ به الاندفاع . ويلسى من يظن به هذا الظنّ أنه قوىّ اندفاع

وقوى ضابطٍ فى وقت واحد ، وعند مايقترن الآندفاع بضابط فهو مزية وليس بعيب .

وكتب إلى سعد بن أبى وقاص بعد آختياره لحرب فارس وفى كتابه له قبس من هذا المعنى : « إذا انتهيت إلى القادسية وهو منزل رغيب خصيب دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر ، على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينها . ثم آلزم مكانك فلا تبرحه . فإنك إذا أحسوك أنغصتهم ورموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم ، فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله وقويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لايجتمع لكم مثلهم أبداً ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وإن تكن الأخرى كان الحجر فى أدباركم فآنصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليهم أجرأ وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل ، حتى يأتى الله بالفتح » .

ثم كتب إليه يستوصفه المنازل التى نزل بها ويسأله : « أين بلغك جمعهم ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم ؟ فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه والذى آستقر عليه أمر عدوكم . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم

وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها واجعلنى من أمركم على الجلية » .

وكتب إلى أبى عبيد وقد ترك حصار حلب يستضعف رأيه فى ترك حصارها : « ... سرّنى ماعلمت من الفتح وعلمت من قتل من الشهداء ، وأما ماذكرت من انصرافك عن قلعة حلب إلى النواحى التى قربت من أنطاكية فهذا بئس الرأى ... أتترك رجلا ملكت دياره ومدينته ثم ترحل عنه وتسمع أهل النواحى والبلاد بأنك ماقدرت عليه ؟ فما هذا برأى ... يعلو ذكره بما صنع ويطمع من لم يطمع فترجع إليك الجيوش وتكاتب ملوكها . فإياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ... وقد أنفذت إليك كتابى هذا ومعه أهل مشارف اليمن ممن وهب نفسه لله ورسوله ورغب فى الجهاد فى سبيل الله وهم عرب وموال ، رجال وفرسان ، والمدد يأتيك متوالياً إن شاء الله تعالى » .

فكان دستوره فى الحرب أن يضع الأسس العامة ويعهد فى تنفيذها إلى ذى خبرة وأمانة ، ولا يتخلى عن تبعته العظمى فى مصائر الحرب كل التخلى اعتماداً على القائد وحده . إذ ليس القائد بالمسئول الوحيد عن المصير .

فإذا رأى القائد رأياً وخالفه هو فى رأيه أعانه بالمدد والمشورة على الأخذ بالرأى الذى دعاه إليه ، وأبطل معاذيره

بتوضيح الأمر وإعانته عليه .

ولقد كان إلى جانب هـذا السهر على الميادين عامة لا يغل يد القائد فيما يحسن أن تنطلق فيـه ، فإذا تجاوز الأمر سياسة الحرب العامة من فتح الميادين وفك الحصار وانتظار الهجوم فمن حق القائد عنده أن يختار لنفسه ولا ينتظر الرجوع إليه ، وأن يجرى فى إدارة المعركة على الوجه الذى تمليه ضرورة الساعة ، ولهذا استشاره أبو عبيدة فى دخول الدروب خلف العدو فكتب إليـه : « أنت الشاهد وأنا الغائب ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالأخبار ، فإن رأيت الدخول إلى الدروب صواباً فابعث إليهم السرايا .وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم ، وإن طلبوا إليك الصلح فصالحهم ... » .

فهو يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بدايتها .

وهو يختار القائد الضليع بتسيير تلك الحملة .

وهو بعد هذا لا يعفى نفسه من التبعة ، ولا يعفى القائد من واجب الرجوع إليـه فى المواقف الحاسمة ، ولا يغل يده فيما هو أدرى به وأقدر على الاختيار فيـه ، ولا ينسى أن يعينه إذا خالفه فى الرأى ليتفق الرأيان المختلفان . فإذا رجع القائد

إلى الحصار الذى أزمع أن يتركه رجع إليه وهو مؤمن بصواب ما يعمل ، ليستمد من الإيمان بالصواب قوة لن يشعر بها وهو يؤدى عملا يخالف الصواب فى تقديره .

وهذه السياسة هى السياسة التى جرى عليها عمر فى جميع بعوثه وغزواته وسراياه . وهى السياسة التى لايستطيع حاكم أن يجرى على غيرها فى حرب قديمة أو حديثة ، وقد جرى عليها فجعلته كاسب النصر كما يكسبه القائد فى الميدان ، وجعلت بطل الفرس رستم المشهور فى التواريخ والأساطير يقول إن عمر هو هازمه فى الميدان و « أنه هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل ! أكل عمر كبدى أحرق الله كبده ! ... »

وربما أخطأ القائد الذى يختاره فمسته التبعة من هذا الجانب لأنه هو المسئول عن اختياره . غير أنها لا تمسه من جانب إلا أعفى منها من جانب آخر أو جوانب عدة . كما حدث فى وقعة الجسر التى قتل فيها قائده أبو عبيد المتقدم ذكره ثم انهزم فيها جيش المسلمين . فهو مسئول عن اختيار هذا القائد كما يسأل كل رئيس دولة فى مثل ذلك ، ولكن أعذاره على التحقيق أكبر من أخطائه فى كل مسألة من هذا القبيل ، وفى هذه المسألة بعينها كان اختياره لأبى عبيد إنصافاً له حجته الراجحة فيه ، لأنه كان أول من أجاب

الدعوة إلى القتال فلم ير من الإنصاف أن يؤخر المتقدم ويقدم عليه المتخلفين ، وقد سوغ الرجل ٱختياره إياه بانتصاراته الأولى التى رفعت شأنه بين القواد فلما أخطأ جاءه الخطأ من مخالفة عمر فى وصاياه ، ومنها وجوب التريث والحذر من عبور الأنهار والجسور ، ولم يكن على عمر لوم فى تقصير عن التنبيه والتحذير .

* * *

وقبل أن يضع دستوراً للولاة وضع دستوراً لنفسه قوامه أنّ الحكم محنة للحاكم ومحنة للمحكومين ، و « أنه لا يصلح إلا بشدة لا جبرية فيها ولين لا وهن فيه » ... وأنّ الخليفة مسئول عن ولاته واحداً واحداً فى كل كبيرة وصغيرة ، ولا يعفيه من اللوم أنه أحسن الآختيار .

قال يوماً لمن حوله : أرأيتم إذا ٱستعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أكنت قضيت ما علىّ ؟ قالوا : نعم . قال : لا حتى أنظر فى عمله أعمل بما أمرته أم لا ؟ » .

وعهوده على نفسه هى خير العهود التى تؤخذ على ولاة الأمر وأبينها للحدود القائمة بين الراعى والرعية ، وخير ما فيها أنه كان يحث الناس على الآستغناء عن التحاكم إلى الحكام خلافاً لأصحاب الأمر الذين يودون لو فرضوا لأنفسهم حكما فى كل شىء .

فكان يقول لهم : « أعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلىّ ... » .

وجمع صلاح الأمر فى ثلاث : « أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله » وصلاح المال فى ثلاث : « أن يؤخذ من حق ، ويعطى فى حق ، ويمنع من باطل » .

وعاهد الناس فقال : « لكم علىّ ألا أجتبى شيئاً من خراجكم ولا ماأفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم علىّ إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه ، ولكم علىّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم ، ولكم علىّ ألا ألقيكم فى المهالك ولا أجمركم - أى أحبسكم - فى ثغوركم ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم . فاتقوا الله عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحضارى النصيحة فيما ولّانى الله من أمركم » .

ومن أوائل عهوده فى بيان الحق الذى يرشح الحاكم لولاية الحكم : « أيها الناس : إنى قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ماوليت ذلك منكم » .

فأحق الناس بالحكم أقدرهم على البر والحزم والنهوض بالأعباء ، وليس له فى غير ذلك حق يرشحه للحكومة .

ومن أوائل خطبه بعد توليه الخلافة : « إن الله ابتلاكم بى ، وابتلانى بكم ، وأبقانى فيكم بعد صاحبىّ فلا والله لايحضرنى شىء من أمركم فيليه أحد دونى ، ولا يتغيب عنى فآلو فيه عن أهل الصدق والأمانة ، ولئن أحسنوا لأحسننّ إليهم ، ولئن أساءوا لأنكلن بهم » .

فهو يعاهدهم أن يلى الأمر بنفسه فى كل ماحضره ، وألا يعهد فيه إلى غيره إلا إذا غاب عنه ، ثم لايكون وكلاؤه فيه إلا من أهل الصدق والأمانة ، ثم هو لايدعهم وشأنهم بعد ذلك بل يراقبهم ويتتبع أعمالهم ، فيحسن إلى من أحسن وينكل بمن أساء .

وقد كان يقول ويعنى مايقول ويعمل بما يقول .

وصارح القوم فيما لايحصى من الخطب والأحاديث أن له عليهم حق الطاعة فيما أمر الله فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وأن لهم عليه حق النصيحة ولو آذوه فيها . ومن ذلك الرواية المشهورة التى سأل الناس فيها أن يدلوه على عوجه فقال له أحدهم : « والله لوعلمنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » فحمد الله أن جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه .

ولم يكن يبيح من مال المسلمين أجراً لعمله إلا مايقيم أوده وأود أهله عند الحاجة إليه ، فإن رزقه الله مايغنيه عن بيت المال كف يده عنه : « ... ألا وإنى أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة ولى اليتيم ، إن آستغنيت آستعففت ، وإن آفتقرت أكلت بالمعروف ، تقرم البهيمة الأعرابية : القضم لا الخضم » أى كما تأكل ماشية البادية قضما بأطراف أسنانها لا مضغاً وطحناً بأضراسها .

ولما سئل عما يحل للخليفة من مال الله قال : « إنه لايحل لعمر من مال الله إلا حلتين : حلة للشتاء وحلة للصيف وما أحج به وأعتمر وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم . ثم أنا بعدُ رجل من المسلمين » .

وقد كان أسخى من ذاك فى تقديره لأرزاق الولاة والعمال فقدر لعمار بن ياسر حين ولاه الكوفة ستمائة درهم فى الشهر له ولمساعديه ، يزاد عليها عطاؤه الذى يوزع عليه كما توزع الأعطية على أمثاله ، ونصف شاة ونصف جريب من الدقيق .

وقدر لعبد الله بن مسعود مائة درهم وربع شاة لتعليمه الناس فى الكوفة وقيامه على بيت المال فيها ، ولعثمان بن حنيف مائة وخمسين درهما وربع شاة فى اليوم ، مع عطائه السنوى وهو خمسة آلاف درهم ... وهكذا على حسب الولايات والنفقات .

وكان يحظر على الولاة مظاهر الخيلاء والأبهة التى تبعد ما بينهم وبين الرعية ، ولكنه ينظر فى أعذارهم فيقبلها أو يغضى عنها حيثما توقف صلاح الولاية على ذلك .

قدم إلى الشام راكباً على حمار فتلقاه عامله معاوية بن أبى سفيان فى موكب عظيم ، فلما رآه معاوية نزل وسلم عليه بالخلافة فمضى فى سبيله ولم يرد عليه سلامه ، فقال له عبدالرحمن ابن عوف : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته ؟ فالتفت إذ ذاك إلى معاوية وسأله : إنك لصاحب الموكب الذى أرى ؟

قال : نعم .

قال : مع شدة احتجابك ووقوف ذوى الحاجات ببابك ؟

قال : نعم .

قال : ولمَ وَيحك ؟

قال : لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو ، فإن لم نتخذ العدة والعدد استخف بنا وهجم علينا ، وأما الحجاب فإننا نخاف من البذلة جرأة الرعية ، وأنا بعدُ عاملك ، فإن استنقصتنى نقصت ، وإن استزدتنى زدت ، وإن استوقفتنى وقفت !

فقال عمر : ما سألتك عن شىء إلا خرجت منه . إن كنت صادقاً فإنه رأى لبيب ، وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب ،

لا آمرك ولا أنهاك » .

أما دستور الولاة عنده فأساسه أن الولاية تمييز بالواجب والكفاءة وليست تمييزاً بالوجاهة والاستعلاء ، فكان يقول للوالى : « افتح لهم بابك وباشر أمورهم بنفسك . فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا » .

وشغله كل الشغل أن تخضع الرعية لواليها رغبة فى حكمه واطمئناناً إلى عدله ، فكان يقول للوالى : « اعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك من الناس » ويقول للرعية : إنى لم أبعث إليكم الولاة ليضربوا أبشاركم ويأخذوا أموالكم ولكن ليعلموكم ويخدموكم » .

وتستوى عنده رغبة الرعية من المسلمين ورغبة الرعية من غيرهم . فلما رأى أقواما ذميين ينقضون العهد ويثورون على الدولة طلب من صلحاء البصرة وفداً فيهم الأحنف بن قيس وهو مصدَّق عنده فسأله : « إنك عندى مصدق . وقد رأيتك رجلا فأخبرنى ألمظلمة نفر أهل الذمة أم لغير ذلك ؟ » .

فقال الأحنف : « لا . بل لغير مظلمة والناس على ماتحب » .

فهدأ باله وقال : « فنعم إذا ... انصرفوا إلى رحالكم » .

وربما ذهب فى إرضاء الرعية مذهبا لم يحلم به الغلاة من

المطالبين بحقوق الشعوب فى هذه العصور .

فكان من قواده وولاته سعد بن أبى وقاص قائده المظفر فى حروب فارس ، وقريب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرجل الذى جعله عمر واحداً من ستة يستشارون بعده فى أمر الخلافة ، فثارت به طائفة من أتباعه وشكته إلى عمر وجيوش الفرس تتجمع للغزو والثأر . فلم يشغله ذلك عن تحرى الأمر من مصادره ، وإيفاد من يبحث عن حقيقة الشكوى بين أهلها . فبعث بوكيله على العمال محمد بن مسلمة يسأل عن سعد وسيرته فى الرعية . وكلما سأل عنه جماعة أثنوا عليه ، إلا من شكوه . فقد أحجم فريق منهم لم يمدحوه ولم يذموه ، وقال فريق منهم : « إنه لايقسم بالسوية ولايعدل فى القضية . ولا يغزو فى السرية » .

فعاد محمد بن مسلمة إلى المدينة وسعدٌ معه ، وأعاد عمر سؤاله فلم تثبت له من أمره ريبة ، إلا أنه اتقى الفتنة والخطوب منذرة ، فعزله وقال لشاكيه : إنّ « الدليل على ماعندكم من الشر نهوضكم لهذا الأمر وقد استعد لكم من استعد ، وايم الله لايمنعنى ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزل بكم » وقال لسعد يومئذ مبرئاً له من تهمة خصومه : « هكذا الظنّ بك يا أبا إسحق ! ولولا الاحتياط لكان سبيلهم بينا » . ثم أبى أن يفارق الدنيا

وفى ذمّته شهادة لسعد يعلنها لملأ المسلمين . فلما حضرته الوفاة وسألوه أن يستخلف أبى أن يخلف أحداً من أهله ، وسمى عليا وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعداً « لأنهم نفرٌ توفى رسول الله وهو عنهم راض . فأيهم استخلف فهو الخليفة » ... ثم قال : فإن أصابت سعداً فذاك وإلا فأيهم استخلف فليستعن به . فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة .

وهذا مثل من أمثلة الوفاء بجميع الحقوق والرعاية لجميع الذمم من حاكمين ومحكومين .

ولا يبعد أن يقع الغبن على بعض الولاة الكفاة من فرط العناية بشكايات الرعية ، إلا أن عمر فى حزمه وعدله لم يكن يفوته مفرق الصواب بين الأمرين . فغبن وال أو قائد أهون من غبن أُمة أو جيش ... ومن أقواله فى ذلك « هان شىء أصلح به قوماً أن أبدلهم أميراً مكان أمير » .

بل ربما جرى منه حكم العزل على الولاة الكفاة لغير سبب من أسباب الشكاية أو القصاص ، وإنما هو سبب من الأسباب التى ترجع إلى سلامة الدولة أو ما نسميه فى العصور الحديثة بالسياسة العليا . وهذه أسباب لا يصح أن يغفل عنها ولاة الأمر فى أيام تأسيس الدول وتجربة النظم الحديثة ، وأولها

عصمة الدولة من فتنة الولاة المقتدرين المحبوبين .

فربما كان الوالى المقتدر المحبوب أخطر على الدولة الناشئة فى تأسيسها من الوالى العاجز البغيض ، إذا لم يتعهده نظر ثاقب وحساب عسير .

فقد تزيّن له نفسه ، أو تزين له رعيته ، أن يستقل بالأمر ويلتحل لذلك ماشاء من المعاذير . فإن فاته الاستقلال ورئيسه قوىّ مهيب لم يفته بعد زوال ذلك الرئيس ، ولو جاء بعده من يضارعه فى القوة والمهابة ؛ لأن الفترة بين زوال عهد واستقرار عهد آخر تؤذن بمثل هذا التقلقل وتفتح الثغرات لمن يريد أن يلج منها بعد طول تربص واستعداد .

ولم يكن عمر بن الخطاب يعرف تاريخ الإسكندر المقدونى وتواريخ العتاة من قياصرة الرومان ، ولا كان الغيب قد انكشف له فرأى ماتلاه من الأمثلة فى دول المغول والعثمانيين ودول المسلمين من مشرقيين ومغربيين ، ولكنه لو استقصى أخبارهم جميعاً وعرف فتنة الولاة بعد زوالهم لما ندم لحظة على عزل الذين عزلهم وهو يقول لهم : إنما عزلتكم لكيلا أحمل على الناس فضل عقولكم ، أو لكيلا تفتتنوا بالناس كما افتتن الناس بكم ، ولكان له سبب آخر وجيه بالغ فى الوجاهة يدعوه إلى تغليب

رغبات الرعية على مكانة الولاة ، وهو عصمة الدولة من أولئك الولاة أن يطول بهم العهد وتتم لهم القدرة ويحوطهم الحب والولاء فلا يبقى بينهم وبين الانتقاض إلا الفرصة السانحة ، وهى أقرب شيء سنوحاً فى إبان التأسيس والانتقال .

وما لم يكن عزل العمال لسبب من أسباب السياسة العليا التى من هذا القبيل فلا جزاء إلا بقسطاس دقيق محيط ولا سيما فى الشئون المالية . لأنه يعتمد فى محاسبتهم على وسائل متفرقة يستدرك بعضها نقص بعض ، فلا تكاد تخفى عليه خافية مما يريد الوقوف عليه .

فمن هذه الوسائل أنه كان يحصى أموالهم قبل الولاية ليحاسبهم بها على مازادوه بعد الولاية مما لايدخل فى عداد الزيادة المعقولة ومن تعلل منهم بالتجارة لم يقبل منه دعواه لأنه كان يقول لهم : إنما بعثناكم ولاة ولم نبعثكم تجاراً .

ومنها أنه كان يرصد لهم الرقباء والعيون من حولهم ليبلغوه ما ظهر وما خفى من أمرهم ، حتى كان الوالى من كبار الولاة وصغارهم يخشى من أقرب الناس إليه أن يرفع نبأه إلى الخليفة .

ومنها أنه كان يندب لهم وكيلا خاصاً يجمع شكايات الشاكين منهم ويتولى التحقيق والمراجعة فيها . ليستوفى البحث فيما

ينقله الرقباء والعيون .

ومنها أنه كان يأمر الولاة والعمال أن يدخلوا بلادهم نهاراً إذا قفلوا إليها من ولاياتهم ، ليظهر معهم ما حملوه فى عودتهم ، ويتصل نبأه بالحراس والأرصاد الذين يقيمهم على ملاقى الطريق .

ومنها أنه كان يستقدمهم فى كل موسم من مواسم الحج ليحاسبهم ويسمع ما يقولون وما يقال فيهم ، وعليهم شهود ممن يشاء أن يحضر الموسم من أهل البلاد . ونوى فى أواخر أيامه أن يستكمل الرقابة بالسير فى البلاد « فيقيم شهرين فى الشام ومصر والبحرين والكوفة والبصرة وغيرها . فإنه ليعلم « أنّ للناس حوائج تقطع عنه أما هم فلا يصلون إليه ، وأما عمالهم فلا يرفعونها إليه » .

وكان لا يكتفى بوسائله تلك إذا ٱستراب فيعمد إلى الحيلة للكشف عن الخبايا التى تريبه . ومن ذلك أنه سمع بعودة أبى سفيان من عند ولده معاوية والى الشام ، فوقع فى نفسه أنّ ولده قد زوده فى عودته بمال . وجاءه أبو سفيان مسلماً فقال له : أجزنا يا أبا سفيان ! قال : ما أصبنا شيئاً فنجيزك ! فمدّ يده إلى خاتم فى يده فأخذه منه وبعثه إلى هند زوجه ، وأمر الرسول أن يقول لها باسم زوجها : انظرى الخرجين اللذين جئت بهما فابعثيهما .

فما لبث أن عاد بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم ، فطرحهما عمر فى بيت المال .

وكانت سنته إذا ثبتت على الوالى شبهة التصرف فى بيت مال المسلمين أن يصادر المال الذى ظفر به أو يقاسم الوالى فيما أربى على كسبه المعقول ، فيترك له النصف ويضم النصف إلى بيت المال ، وهذا عدا مايجزيه به من عزل أو عقاب .

أما حساب الشكايات من المظالم فكانت سنته فيه التحقيق ثم الجزاء على شرعة المساواة بين أكبر الولاة وأصغر الرعية بغير تفرقة بين السيئة وجزائها . فمن ضرب ضُرب ، ومن غصب ردّ ماغصب ! ومن اعتدى قوبل بمثل اعتدائه وعليه زيادة التأديب .

وقد يأخذ الوالى أحياناً بوزر ولده أو ذوى قرابته إذا وقع فى نفسه أنهم يستطيلون على الناس بسلطان الولاية ولا ينهاهم الوالى المسئول عنها .

جاءه مصرى فشكا إليه واليها عمرو بن العاص ، وزعم أن الوالى أجرى الخيل فأقبلت فرس المصرى فحسبها محمد بن عمرو فرسه وصاح : فرسى ورب الكعبة ! ثم اقتربت وعرفها صاحبها فغضب محمد بن عمرو ووثب على الرجل يضربه بالسوط

ويقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين . وبلغ ذلك أباه فخشى أن يشكوه المصرى فحبسه زمناً ، وما زال محبوساً حتى أفلت وقدم إلى الخليفة لإبلاغه شكواه .

قال أنس بن مالك راوى القصة : فوالله مازاد عمر على أن قال له اجلس ... ومضت فترة إذا به فى خلالها قد استقدم عَمراً وابنه من مصر فقدما ومثلا فى مجلس القصاص . فنادى عمر : أين المصرى ؟ دونك الدرّة فاضرب بها ابن الأكرمين .

« فضربه حتى أثخنه ونحن نشتهى أن يضربه . فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ماضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ! ثم قال : أجلها على صلعة عمرو ! فوالله ماضربك ابنه إلا بفضل سلطانه ... قال عمرو فزعاً : ياأمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت ، وقال المصرى معتذراً : ياأمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى ... فقال عمر : أما والله لوضربته ماحلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه . والتفت إلى عمرو مغضباً يقول له تلك القولة الخالدة التى ماقالها حاكم قبله : « أيا عمرو ! متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » .

⁂

ومن هذا العدل فى شؤون الولاية نستطيع أن نفهم دستوره

فى شؤون القضاء ، فلن يكون هذا الدستور إلا دستور العدل المحكم فى الجزاء والفصل بين الحقوق . إلا أننا نعتقد أن وصاياه فى القضاء أحكم وأصلح لجميع الأزمنة من جميع وصاياه ، فلا تعقيب بعدها لمعقب فى زمانه أو فى زمان يليه ، مهما تختلف الأقوام والأوقات .

أنشأ وظائف القضاء وتخير لها العدول الأكفاء . ولم تكن به من حاجة هنا إلى سن الشريعة التى يحكمون بها فإنها ماثلة فى الكتاب والسنة ، ولكنه كان فى حاجة إلى تعليم القضاة كيف يتصرفون حين يلتبس عليهم الأمر ، فأحسن التعليم .

* * *

كان يكتب لأحدهم : « إذا جاءك شىء فى كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال ، فإن جاءك أمرٌ ليس فى كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها . فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به ، فإن جاءك ماليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أىّ الأمرين شئت : إن شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدّم ، وإن شئت أن تأخر فتأخر . ولا أرى التأخير إلا خيراً لك » .

وضرب لهم أصلح الأمثلة بٱجتهاده وٱستفتائه . فلم يقطع يد السارق فى عام المجاعة رعاية الزمن ، ولم يقطع يد الغلام الذى سرق من سيده رعاية لسنه أو للعلاقة بين السارق والمسروق منه وٱشتركت ٱمرأة وصاحبها فى قتل رجل فتحرج من قتل ٱثنين بواحد حتى أفتاه علىّ رضى الله عنه بأنهما مستحقان للقتل كما يستحق اللصوص المتعددون أن يقام عليهم الحد إذا سرقوا لحماً من بعير واحد ، فأخذ بفتواه .

* * *

ومن وصاياه للقاضى : «آس بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ، والبينة على من ٱدعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالا وأحل حراماً ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه . فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهم الفهم عندما يتلجلج فى صدرك مالم يبلغك فى كتاب الله ولا سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، وٱعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك ثم ٱعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ، وٱجعل للمدعى حقاً غائباً أو بينة أمداً

ينتهى إليه . فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ فى العذر … المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنينا فى ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات . ثم إياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر ، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس » .

ومن وصاياه لمن يلون الحكم : الزم خمس خصال يسلم لك دينك وتأخذ فيه بأفضل حظك : إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة أو اليمين القاطعة ، وأدن الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه وتعهد الغريب فإنك إن لم تتعهَّده ترك حقه ورجع إلى أهله ، وإنما ضيع حقه من لم يرفق به ، وآس بين الناس فى لحظك وطرفك ، وعليك بالصلح بين الناس مالم يستبن لك فصل القضاء » .

* * *

تلك نماذج متفرقة من وصاياه للقضاة وولاة الأحكام ، وهى فيما نراه أحكم وصاياه وأقربها أن يتبعها سواه .

ولذلك سبب لا يعسر تعليله . فقد كان عمر فى الجاهلية حكما من قبيلة محكمين ، أو سفيراً يسعى بين الناس بالصلح من قبيلة سفراء فهو فى هذه الصناعة عريق .

إلا أن المرء قد يجلس للحكم بين الناس كما جلس عمر ولا يحسن الوصية فيه كما أحسنها . وإنما بلاغ حسن الوصية أن تجمع الخصلتين اللتين اجتمعتا فى وصاياه لقضاته . فما من أحد يستطيع أن يوصى قاضياً بخير مما أوصى ، وما من عقدة قضائية تأتى من قبل القضاة أو من قبل المتقاضين إلا وهى ملحوظة فى كلامه ، وهاتان هما الخصلتان الباديتان فى دستور القضاء كما أملاه .

* * *

ولابد أن يلفت النظر فى سياسته للولاية وسياسته للقضاء أنه كان يأخذ بالواجب حيث وجب ، وإن اختلف الواجبان .

ففى الولاية كان يتحرى البواطن ويمعن فى تحريها ولا يكتفى من الناس بالظواهر .

وفى القضاء وما شابه القضاء كان يكتفى بالظواهر حتى تنقضها البينة القاطعة ، وكان يعلن هذه الخطة على المنبر فيقول : « أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر ، فإن من أظهر لنا قبيحاً وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا

علانية حسنة ظننا به حسناً ، أو يقول :

« إنما كنا نعرفكم إذ الوحى ينزل ، وإذ النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، فقد رفع الوحى . وذهب النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنما أعرفكم بما أقول لكم . ألا فمن أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً وأثنينا عليه ، ومن أظهر لنا شرًّا ظننا به شرًّا وأبغضناه » .

بل كان له فى الأخلاق الاجتماعية مذهب ثالث يشبه مذهبه فى القضاء ، فكان يكره أن يكشف المرء من أخيه مايستره عنه وينهى أن تظن بكلمة شرًّا وأنت تجد لها فى الخير محملا .

وهذه فى الظاهر نقائض ، وفى الحقيقة واجبات متعددة كل منها فى موضع لازم .

فالعلم بخبايا الحكومة واجب على كل ولىّ مسئول لا تنصلح الأحوال بغيره ، وفى الغفلة عنه مضرة محققة لجميع الناس .

والأخذ بالبينة دون الظاهر فى شئون القضاء واجب لا محيص عنه لضمان السلامة ومنع الجور ، وهو فى أحد طرفيه لا يخلو من الحذر الشديد من الطبيعة البشرية ، إذ فيه خشية من غواية الهوى أن تنطلق بالقضاة فى الحكم بغير برهان .

وفى الأخلاق الاجتماعية لا يؤمن التقاطع بين الأصدقاء إذا

جرت العلاقة بينهم على التجسس والخدعة ، ولا رعاية للمودة مالم تكن رعاية للحرمات ، ومنها الأسرار .

والتفرقة بين الواجبات المختلفة هي دليل البصيرة فى عرفان كل واجب منها ، وأنها تصدر عن رأى أصيل ولا تصدر عن تسخير العرف وإملاء التقليد والمحاكاة .

* * *

وأنشئت فى عهد عمر دواوين أخرى غير ديوان القضاء ودواوين الإحصاء والخراج والمحاسبة التى لم تكن من المؤسسات القائمة قبل عهده . فأنشأ البريد وبيت المال ومرابط الثغور ومصنع السكة لضرب النقود ودار الحبس للعقاب . ووكل معظم الدواوين إلى أبناء البلاد يزاولونها بلغاتهم لأنها ليست من أسرار الدولة وليس من الميسور أن ينصرف إليها فتيان العرب عما هو أولى بهم وهو فرائض الدفاع والجهاد ... فلو وَجد منهم من يفى لتلك الأعمال لكانت خسارة الدولة فى قيامهم بها أعظم من ربحها ، ولكنهم غير موجودين ولا عملهم فيها باللازم اللازب للمصلحة الكبرى ، وقد يكون عمل الفارسى فى مصلحة فارس والسورى فى مصلحة سورية والمصرى فى مصلحة مصر أحرى أن يعصمهم إن كان بهم عاصم ، وإلا فلا تثريب .

ووضع عمر نظاماً لتحصيل الجزية وتصرف فى وضعها على حسب الأمم والبلاد . فأعفى التغلبيين بالشام من الجزية وفرض عليهم بديلا عنها ضعف صدقة المسلم ، لأنهم أنفوا أن يؤدوها وأزمعوا اللحاق بأرض الروم .

وكان له نظام اقتصادى يوافق مصلحة الدولة فى عهده ، فكان يحض على التجارة ويوصى القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها لأنها ثلث الملك ، ولكنه أبقى الأرض لأبنائها فى البلاد المفتوحة ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند فى الجيش القائم . وإذا أسلم أحد الذميين أخذت منه أرضه ووزعت بين أهل بلده وفرض له العطاء . وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم وأن يعتصم الجند الإسلامى من فتن النزاع على الأرض والعقار ومن فتن الدعة والاشتغال بالثراء والحطام . وربما أغضى عن كثير فى سبيل الإعانة على تعمير البلاد بأهلها . فصفح عن أهل السواد « العراق » ليأمنوا البقاء فيه ، مع أنهم حنثوا بالعهد وعاونوا الفرس على المسلمين فى أثناء القتال .

ويلوح من كلامه فى أُخريات أيامه أنه كان على نية النظر فى تصحيح النظام الاقتصادى وعلاج مشكلة الفقر والغنى على نحو

غير الذى وجدها عليه . فقال : « لو ٱستقبلت من أمرى ما ٱستدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء »

ولم يرد فى كلامه تفصيل لهذه النية . ولكن الذى نعلمه من آرائه فى هذا الصدد كاف لٱستخلاص ما كان ينويه . فعمر على حبه للمساواة بين الناس كان يفرّق أبداً بين المساواة فى الآداب النفسية والمساواة فى السنن الأجتماعية . فكتب إلى أبى موسى الأشعرى : « بلغنى أنك تأذن للناس جما غفيراً . فإذا جاءك كتابى هذا فأذن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين ، فإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامّة » ولكنه لما رأى الخدم وقوفاً لا يأكلون مع ساداتهم فى مكة غضب وقال لساداتهم مؤنباً : ما لقوم يستأثرون على خدامهم ؟ ثم دعا بالخدام فأكلوا مع السادة فى جفان واحدة .

فالمساواة فى أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفى التفاضل بالدرجات ، ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا ويعرضوا عن العمل واتخاذ المهنة ، فكان يقول لهم فى خطبه : « يامعشر الفقراء ٱرفعوا رؤسكم فقد وضح الطريق فٱستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على المسلمين » وكان يوصى الفقراء والأغنياء معاً « أن يتعلموا المهنة فإنه يوشك

أن يحتاج أحدهم إلى مهنة وإن كان من الأغنياء » .

فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ماانتواه من أخذ فضول الغنى وتقسيمه بين ذوى الحاجة ، وهو تحصيل بعض الضرائب من الثروات الفاضلة وتقسيمها فى وجوه البر والإصلاح .

على أن عمر يصح أن يسمى مؤسساً لديوان الوقف الخيرى على الوجه الذى نعهده الآن . فقد أنشأ بيت الدقيق لإغاثة الجياع الذين لايجدون الطعام ، وأصاب قبل خلافته أرضا بخيبر فاستشار النبى عليه السلام فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدّق بريعها . فجعلها عمر صدقة لاتباع ولا توهب ولا تورث ، وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم . ولا جناح على من وليها أن يأكل بالمعروف ويطعم صديقاً فقيراً منها .

* * *

وعرضت لعمر مسائل التعمير على حسب الحاجة إليها فى وقته فلم تجده مسألةٌ منها دون ماتحتاج إليه من إصابة الرأى وحسن الروية . فكانت نصائحه فى تخطيط المدن واختيار مواقعها من أنفع النصائح ، وكانت دواعيه إلى بنائها من أشرف الدواعى وأليقها بالأمير .

شاهد فى الجند هزالا وتغير ألوان فسأل قائدهم سعداً :

ما الذى غيَّر ألوان العرب ولحومهم ؟ فأجابه : إنها وخومة المدائن ودجلة ، فكتب إليه إنّ العرب لا يوافقها إلا ماوافق إبلها من البلدان ، فابعث سلمان وحذيفة فليرتادا منزلا بريا بحريا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر ، وأمر أن تبلغ مناهج المدينة أربعين ذراعا وما يليها ثلاثين ذراعا وما بين ذلك عشرين ، وألا تنقص الأزقة عن سبعة أذرع ليس دونها شىء ، وألا يرتفع بناء الدور .

فبنيت الكوفة على هذا التخطيط .

وعلم أن الجند يشكون الشتاء ويعوزهم الملجأ الذى يسكنون إليه بعد الغزو فى حدود فارس . فكتب إلى عتبة ابن غزوان أن « ارتد لهم منزلا قريباً من المراعى والماء » ووصف له مايلتزم من مواقعه وخططه ، فبنيت البصرة عند ملتقى النهرين .

وهو الذى أشار على عمرو بن العاص أن يحفر خليجاً بين النيل وبحر القلزم لاتصال المرافق بين مصر وعاصمة الدولة ، وضرب له الموعد حولا يفرغ فيه من حفره وإعداده لمسير السفن فيه ، فساقه من جانب الفسطاط إلى القلزم ، ولم يأت الحول حتى جرت فيه السفن وسمى خليج أمير المؤمنين ولم يزل

مفتوحا حتى ضيعه الولاة وغفل عنه الخلفاء .

فسياسته التعميرية وافية بالغرض منها لعصره ، وقد يلاحظ عليها أبناء العصر الحاضر شيئاً لا يوافقهم كالحد من ارتفاع الدور والزهد فى تشييد القصور . أما هو فالوجه الذى توخاه فى سياسة التعمير أن يحمى الدولة فى نشأتها من الترف والبذخ وأن يحول بين الجند وبين الاستنامة إلى متاع القصور المشيدة والصروح الممردة وما فيها من بواعث الوهن والفتور . ومن فلاسفة العصر الحاضر من يحسب ضخامة البناء دليلا على ابتداء الضعف وعفاء العقيدة ، ويقول شبنجلر أحد هؤلاء الفلاسفة : إن الأمم فى نهوضها تعبر طريقين مختلفين : طريق العقيدة وقوة النفس وتلازمه بساطة الظواهر وعظمة الضمائر ، وطريق الفخامة المادية والوفرة العددية وفيه تنحل الضمائر وتخلفها العظمة التى تقاس بالباع والذراع وتقدر بالقنطار والدينار ، وكانت قبل ذلك تقاس بما لا يحس من العزائم والأخلاق

وعمر على كلتا الحالتين لم يتعد طبائع الأشياء ، ولم يأخذ فى زمانه بغير الصالح من الآراء

* * *

وقصارى القول أن هذا الرجل لم تواجهه فى ولاياته الواسعة

صعوبة أكبر منه وأحوج إلى قدرة أعلى من قدرته أو هيبة ودراية أجل مما كان له من هيبة ودراية ، فإذا عرضت الصعوبة الطارئة فهناك الحزم اللازم لمواجهتها والحيلة الصالحة لتدبيرها ، كأنما كان لها على استعداد ، وكأنما عاش حياته كلها يتمرّس بهذه الأمور

وكان اضطلاعه بتفريج الأزمات والكوارث كاضطلاعه بتدبير الحاجات إلى التعمير والتنظيم . ففى السنة الثامنة عشرة للهجرة فاجأه قحط الرمادة المشهور ، وهو القحط الذى لا يقال فى وصفه أوجز من قولهم يومئذ إن الوحش كانت تأوى فيه إلى الإنس ، وإن الرجل المتضور من الجوع كان يذبح الشاة فيعافها لقبحها .

فنهض لهذه الكارثة نهوضه لكل خطب ، واستجلب القوت من كل مكان فيه مزيد من قوت ، وجعل يحمله على ظهره مع الحاملين إلى حيث يعثر بالجياع والمهزولين العاجزين عن حمل أقواتهم ، وآلى على نفسه لا يأكل طعاما أنق من الطعام الذى يصيبه الفقير المحروم من رعاياه ، فمضت عليه شهور لا يذوق غير الخبز والزيت . ونظر فى كل شىء حتى فى تعليم كل بيت كيف ينتفع بالرزق الذى يرسله إليهم مع عماله ... فقال للزبير ابن العوام : « اخرج فى أول هذا العير فاستقبل بها نجداً ، فاحمل إلىّ أهل كل بيت قدرت أن تحملهم إلىّ ، ومن لم تستطع حمله

فمر لكل أهل بيت ببعير بما عليه ، ومرهم فليلبسوا كساءين ولينحروا البعير فليحملوا شحمه وليقددوا لحمه وليحتزوا جلده ، ثم ليأخذوا كبة من قديد وكبة من شحم وحفنة من دقيق فليطبخوا ويأكلوا حتى يأتيهم الله برزق» .

* * *

وهذه السهولة فى مواجهة كل حالة بما يوائمها هى التى تبرز لنا «مؤسسَ الدولة الملهم» فى هذا الرجل العظيم .

فكل عمل من هذه الأعمال سهل على القرطاس صعب عند تصورنا إياه وإحاطتنا بما يستدعيه من تدبير وإنجاز وخلق وهيبة . فكم بين المدينة وتلك الأطراف فى زمن أسرع وسائله بعير سريع ! وكم عمل عمر لملاحقة كل جيش يسير وكل بلد يفتح ، وكل أمة تحكم ، وكل عارض يطرأ على غير رقبة ولا سابقة خبرة ؟

تجنيد الجيوش لشتى الميادين وليس بسهل ، واختيار القواد على حسب ما يندبون له وليس بسهل ، والأمر بكل حركة على حسب كل ميدان وليس بسهل ، والسؤال عن قادة الأعداء ومداوراتهم ليستقصى خبرهم ويعرف ما يقابلهم به من الكيد والعدة وليس بسهل ، وإنشاء المدن والعمائر فى مواضعها ، وإقامة الدواوين عند الحاجة إليها ، وإرضاء الأمم والجيوش بالإصغاء

إلى شكاياتهم ولو جاءت فى غير أوانها ، والنهوض للكوارث والأزمات بما ينبغى لها ، والمشاورة لمن تسمع منه المشورة ، والاجتهاد بالرأى عندما تختلف الآراء ، والاشتغال بكل شاك كأنه لا يشتغل بغير ما شكاه ، وخدمة الناس فى دينهم وخلقهم بخدمته إياهم فى دنياهم ودولتهم ، وتجدد هذه المتاعب يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، وعاماً بعد عام . وهى شاقة لا سهولة فيها على غير صاحبها القدير عليها ولو زاولها عرضاً إلى أيام .

وجليلٌ بعض هذا غايةَ الجلال لو أن صاحبه قنع منه بالإشراف والمراجعة ولم يعمل بيده فيه كأنه خادم البيت المرهق وأجير الديوان الصغير ، لكنه كما نعلم كان يكدح بيده ويحمل على ظهره ويتعقب بعينه ، ولا يدع أحداً من خدام الدولة الواسعة إلا وهو شريك له فى مثل مايتولاه .

وأكبر ما يستحق الإكبار فى هذا الرجل الكبير أنه كان قادراً على تأسيس الدول وعلى فتح الأمصار ، ولكنه راض القدرتين فلم يقدم على فتح الأمصار إلا بمقدار .

فليس الفتح شهوة عنده ولا المجد الحربى لبانة من لباناته ، وهو على علمه بأن الله وعد المؤمنين أن يورثهم الأرض لم يكن يرى فى ذلك داعياً إلى العلة بالفتح كما كان يرى فيه دواعى

للتبصر والأناة ، حتى لا يسفك دم فى غير موجب ولا تعتسف خطة بغير روية .

فكان همه الأكبر تأمين الجزيرة العربية من أطرافها وحماية الإسلام فى عقر داره . ولولا أن الدول العظمى التى كانت تحدق بجزيرة العرب تحفزت للبطش بها وقمع دعوتها فى مهدها لكانت للدولة الإسلامية سياسة أخرى فى مصاولة أولئك الأعداء .

فدولة الروم كانت ترسل البعوث إلى تخوم الجزيرة وتهيج القبائل لحرب المسلمين من عهد النبى عليه السلام ، وكان المسلمون يعيشون فى فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها . يدل عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبي حيث يقول : « ... وكنا تحدثنا أن غسان تنتعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبى يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بابى ضرباً شديداً وقال : أثم هو ؟ ففزعت فخرجت إليه ، وقال : حدث أمر عظيم ... قلت : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا . بل أعظم منه وأطول ... طلق النبى صلى الله عليه وسلم نساءه ! » .

ومن هذا الحديث يتبين لنا مبلغ الفزع من تهديد الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار .

أما فارس فقد بلغ بطغيانها أن عاهلها غضب من دعوته إلى الإسلام فأوفد إلى الحجاز رسولا مع نفر من الجند ليأتيه بالنبي العربى حياً أو ميتاً ! ! ولولا أنه مات قبل إنجاز وعيده واشتعلت نيران الفتن فى بلاده لوطئت الجيوش الفارسية أرض الجزيرة قبل أن ينهض العرب لدفاع . وما هو إلا أن حفظ العرب حدودهم من قبل العراق الفارسى حتى سكنوا إلى ذلك وودّ عمر بن الخطاب : « لو أن بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم » ولم تتغير خطته هذه إلا حين استوى يزدجرد على عرش فارس وتأهب للغارة على المسلمين وإخراجهم من حيث نزلوا . فتجدّد القتال .

وقد طال تردّد عمر فى فتح مصر ولم ينبعث إلى غزوها حباً للغزو ولهجاً بالفتوح ، ولولا أن علم أن أريطون قائد الروم فى بيت المقدس قد فرّ منها إلى مصر ليحشد فيها الحشود ويتأهب للكرّ على الشام لطال تردّده فى الزحف عليها . ومع هذا أوشك أن يسترجع عمرو بن العاص بعد إشخاصه إليها ، ونهاه عن الإيغال فى المغرب بعد فتحها . لأن السطوة ـ وهو مقتدر عليها ـ لم تكن تزدهيه ولا تغويه ، ولأن الضن بالأرواح أغلب فى طبعه من الشغف بالفتوح و « أن رجلا من المسلمين

أحب إلىّ من مائة ألف دينار ! » .

* * *

فلا يخطئ القائل الذى يقول إن الأناة فى السطوة أكبر مايستحق الإكبار من هذا الخلق الرفيع ، وإن دلالته الإنسانية أكبر دلالة يشتمل عليها هذا السجل الحافل بالمآثر . لأنه يرينا القوة كيف تكون نعمة إنسانية عالية ولا تكون لزاماً نقمة من نقم الأثرة والأنانية ، ويرينا الرجل كيف يقوى فلا يخافه الضعيف بل يخافه من يخيف الضعفاء .

وبحق يتزود بهذه القوة مؤسس دولة تقوم على دين ، لأن الدولة قد تقيمها القوة الطاغية ، أما الدين فلا يهدمه شىء كما تهدمه قوة الطغيان .

إن البأس الذى رزقته نفس عمر لحظٌّ عظيم . ولكنه لو كان فى يدىْ غيرها لقد يكون نصيبها منه أوفى من نصيبها وهو فى يديها ، فلم يشحذه عمر قط لغرض يخصه دون غيره ، ولم يضرب به قط بمعزل عن الإيمان حتى فى أيام الجاهلية . فلو لم يقع فى روع عمر أن محمداً أهان قريشاً وانتقص دينها لما تصدى له بأذى ، ولولا حرمة الإيمان الجاهلى عنده لما ثار على إيمان محمد وصحبه .

وغاية ماهنالك أنه فرق بين إيمان وإيمان . فى الجاهلية كان

إيمانه مضللا فعقم ولم يأت بطائل ، وفى الإسلام كان إيمانه رشيداً فأتى بأطيب الثمرات .

* * *

قبل أن يقال إن عمر كان أكبر فاتح فى صدر الإسلام ينبغى أن يقال إنه كان يومئذ أكبر مؤسس لدولة الإسلام ، وأنه أسسها على الإيمان ولم يؤسسها على الصولجان ، فكان مؤسساً لها قبل أن يلى الخلافة وينفرد بالكلمة العليا ، وكان من يوم إسلامه آخذاً فى تشييد هذا البناء الذى تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء .

إن تاريخ عمر وتاريخ الدولة الإسلامية لا يفترقان ، فإذا بدأت بهذا فقد بدأت بفصل من تاريخ ذاك ، ولن يطول بك الاستطراد حتى تثوب إليه كرة أخرى .

عمر والحكومة العصرية

من الحقائق التى لايحسن أن تغيب عنا ونحن نقدر الأبطال من ولاة العصور الغابرة أنهم أبناء عصورهم وليسوا أبناء عصورنا ، وأننا مطالبون بأن نفهمهم فى زمانهم وليسوا هم مطالبين بأن يشبهونا فى زماننا ، وأن الرجل الذى يصنع فى عصره خير مايصنع فيه هو القدوة التى يَقتدى بها أبناء كل جيل ، ولا حاجة به إلى اقتداء بنا . ولا أن يشق حجاب الغيب لينظر إلينا ويعمل مايوافقنا ويرضينا .

ويحسن بنا أن نذكر مع هذا أن أشكال الحكومات بمرتبة دون مرتبة المبادئ التى تقوم عليها ، وأن المبادئ التى تقوم عليها بمرتبة دون مرتبة الروح الإنسانى الذى ينبغى أن يعمها ويتخللها ، لأن المبدأ يعيبه أن يخلو من الروح الإنسانى ولا يعيب الروح الإنسانى أن يخالف المبدأ فى بعض الأحايين . فالملكية والجمهورية شكلان من أشكال الحكومة قد يقومان على مبدإ واحد وهو مبدأ الحكومة الشعبية أو الديمقراطية ، ولكن العدل والحرية هما الروح الإنسانى المقدم على المبدإ وعلى الشكل معاً ، لأن فقد المبدإ والشكل لايضيرنا إذا وجدنا العدل والحرية ... أما فقدان العدل والحرية فهو الذى يضير ولو توافرت المبادئ والأشكال .

فإذا عرفنا العدل بروحه ولبابه فلا ضير عليه أن تنكره مبادئ الثورة الفرنسية أو مبادئ الوثيقة الكبرى فى البلاد الإنجليزية ،

أو مبادئ الدستور الأمريكى فى أيام آباء الدستور هناك ، أو مبدأ من المبادئ التى لا تنى تتجدد وتتغير كائناً ما كان .

ويحسن بنا أن نسأل أنفسنا كلما أعجبنا بعظيم من عظماء العصور الحديثة : ماذا كان هذا العظيم صانعاً لو نشأ فى القرن الأول للهجرة مثلا أو القرن الأول للميلاد ؟ أكان يصنع فيه ما هو « عصرىّ » فى زماننا أو يصنع فيه ما هو عصرى فى ذلك الزمان ؟ فمما لا مراء فيه أنه يخالف عمله فى زماننا ولا يخالف عمله فى زمانه الذى نشأ فيه ولا ملامة عليه فيما خالف وفيما وافق . بل اللوم علينا نحن إذ ننتظر مالا يُنتظر ونقيس على غير قياس .

وإلى جانب هذا كله ينبغى أن نذكر ولا ننسى أن عصرنا ليس بخير العصور ! وأننا لو ملكنا تبديله فى كثير من الأمور لبدلناه ، وأننا لا نتفق على استحسان الحسن ولا استقباح القبيح فيه . وأن الفارق الأكبر بينه وبين العصور الأخرى إنما هو فرق الألفة والاستغراب ، فعصرنا مألوفٌ لنا وسائرُ العصور مستغربة فى أنظارنا ، وكثيراً ما يكون الاستغراب عرضيًّا سخيفاً متعلقاً بالمظاهر والأزياء دون الجواهر وحقائق الأشياء .

أذكر من الصور التى رأيتها فى الصحف الأوربية — ولا أنساها — صورة جامعة لبعض المشهورين والمشهورات فى أزياء عصرنا وأزياء

العصور السابقة على اختلافها عرضتها الصحيفة وأحسبها كتبت تحتها : هل تعرف هؤلاء لو مروا بك فى الطريق ؟

فإذا تأملت الصورة رأيت فيها يوليوس قيصر فى القبعة الطويلة وكسوة السهرة السوداء ، ورأيت كليوبترة فى زى الباريسية العصرية ثم رأيت أميراً من أمراء هذا الزمن وحكيما من حكمائه على نمط التماثيل التى حفظت لقياصرة الرومان وحكماء اليونان . فإذا بك تستغرب ماتألف وتألف ماتستغرب ... وكأنك على استعداد أن تحادث يوليوس قيصر حديثك للرجل الذى يفهمك وتفهمه من الكلمة الأولى ، وعلى حذر أن تقارب الرجل الذى مثلته لك الصورة فى زى الأقدمين المخالفين لك فى العقيدة والشارة والذوق ونمط التفكير والنظر إلى الأشياء .

هذه صورة نشرت يومئذ للتسلية والفكاهة ، ولكنها خليقة أن تعلمنا الكثير وأن تصحح لنا مقاييس المقابلة والتقدير بين كل عصر سابق وعصر أخير .

* * *

ونحن — إذ ننظر إلى أعمال عمر بن الخطاب نقيسها إلى نظام الحكم فى زماننا — واجدون فيها كثيراً من المستغربات التى تحول بيلنا وبين تقديرها الصحيح للوهلة الأولى . ولكننا لا نلبث

أن نرفع القشرة وننفذ إلى اللباب حتى تزول الغرابة ونرى فى مكانها الحق الخالد الذى تتغير العصور ولا يتغير ، بل نرى فى مكانها أحياناً ما يصلح كل الصلاحية للتفسير حتى بمبادئ هـذا العصر الأخير .

خذ مثلا أنه — وهو أقدر المالكين فى عصره — كان يقنع بالكفاف ويلبس الكساء الغليظ ويهنأ إبل الصدقة أى يداويها بالقطران ، ويراه رسل الملوك وهو نائم على الأرض نومة الفقير المدقع ، وتعرض له المخاضة وهو داخل إلى الشام فينزل عن بعيره ويخلع خفيه ويخوض الماء ومعه بعيره ، ويسافر مع خادمه فيساوى بينهما فى المأكل والمركب والكساء .

حاكم من حكام العصر الحديث لا يصنع هـذا ولا يطالب بأن يصنعه ، وهو وأبناء العضر الحديث على حق فيما ارتسموه لأنفسهم من السمت والشارة ؛ لأن حاكم الأمة يحتاج إلى المهابة بين قومه وغيرهم من الأقوام . وهذا حسن مشكور .

ولكن هذه وجهتنا نحن فى هذا فما هى وجهة عمر فيه ؟

وهذه حجتنا نحن فيما ارتسمنا فما هى حجة عمر فيما ارتسم ؟

إننا إذا عقدنا المقارنة بين الوجهتين والحجتين ألفيناه فى غنى عن وجهتنا وحجتنا ، وأنه كان يصل إلى الغاية التى نرومها نحن

من طريق أقوم وأنفذ من الطريق الذى توخيناه .

فكان يعيش عيشة الفقراء وأمته وأمم أعدائه أهيب له مما تهاب التيجان فى القصور .

وكان عمل الرجل تثبيت سلطان وتثبيت عقيدة هى أساس الحكم قبل كل أساس ، فكانت عيشته الفقيرة أعون له على تثبيت العقيدة ، ثم لاغضاضة فيها على السلطان .

وكان يدين نفسه بهذه العيشة ولا يأبى على غيره أن يخالفها ، ويقنع باليسير ويعطى الحق الكثير لمن يستحقه على تفاوت فى المآثر والأعمال . فلما ندب أبا عبيدة لتوزيع الطعام فى عام المجاعة أعطاه ألف دينار وألح عليه فى قبولها ، ولما قسم الولايات جعل لكل وال كفاء عمله من أجر وطعام مكفولا له مع عطائه الذى يعطاه كسائر المسلمين . وهو الذى خالف أبا بكر فى التسوية بين الأعطية لعلمه بتفاوت الحقوق ، فقال له : أتسوى بين من هاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف ؟ أتجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ؟ ولقد ظل كلاهما على رأيه حتى قام عمر بالخلافة فأخذ بمذهب التفضيل وتوفية العطاء حسب الحقوق .

أما المهابة فمن آفتقر من الولاة إلى المظهر فيها لم يمنعه عمر ولم يوجب عليه أن يقتدى به فى خصاصته وشظفه . فله من ذاك

ما تقضى به مصلحة الدولة حيث كان .

وبهذا يكون الحاكم عمر بن الخطاب قد أدى « الواجب الحكومى » على الوجه الأقوم فلا سبيل لأحد إلى أن يؤاخذه فيه بقياس حديث أو بقياس قديم .

فإذا بقى أن نستدل بتشديده فى المعيشة على تفكيره أو خلقه فما هى الدلالة التى يدل عليها ؟ هل يدل هذا التشديد فى محاسبة النفس على شىء يعاب ؟ هل هو أدنى إلى النقص أو هو أدنى إلى الرجحان ؟

إن أناساً يشددون على أنفسهم عن كزازة فى الطبع وضيق فى الحظيرة وعجز عن ملابسة الدنيا ، وهذه نقائص تعاب فى مقياس الفكر والأخلاق .

ولكن هل كانت خليقة عمر بن الخطاب خليقة المرعّب المتوجس العاجز الذى يرجع الشظف عنده إلى العجز عن ملابسة الدنيا ؟

أعجلُ الناس بالاتهام لا يتهم عمر بهذا ولا بما يشبهه ويدانيه ...

وإنما تدل جملة أخلاقه على أن الخلق الذى ألزمه حياة الشظف إنما هو خلق قوىّ يروض صاحبه على ما يريد ، وليس بخلق ضعيف يجفل من التصرف والتكليف إجفال العجز والرهبة والوسواس .

وفى « طبيعة الجندى » التى قدمنا الكلام فيها بعضُ التفسير لنظرته فى حساب نفسه وفى الموقف الذى آختار أن يقفه بين يدى الله . فهو يعلم أنّ الله شديد الحساب وأن الله رحيم ، ولكن الجندى القوىّ إذا وقف بين يدى مولاه جعل تعويله على الوفاء بالأمر وقضاء الواجب فى أدق تفاصيله ، ولم يجعل معوله الوحيد على طلب الرحمة والصفح عن الخطيئة . فإن جاءه الصفح من مولاه فليس هذا بمعفيه أمام نفسه من آستقصاء الحساب ولو جار عليها . فأكرم لطبيعته الجادّة القوية أن يجور على نفسه من أن يترخص فى إعطائها ثم يتعرّض للصفح والغفران .

وكان وفاؤه لحق الصداقة كوفائه لحق الله سبباً من أسباب هذا الشظف الذى عاش عليه بعد النبي وخليفته الأول ، فقد أبى له وفاؤه أن يعيش خيراً مما عاشا وأن يستبيح — وقد صار الأمر إليه — حظاً لم يستبيحاه ، وكثيراً ماتوسل إليه خاصته أن يشفق على نفسه وأقنعوه بما علموا أنه أدنى إلى إقناعه ، وهو أن يتوسع فى العيش ليكون ذلك أقوى له على الحق ، فكان يقول لهم : « قد علمت نصحكم . ولكنى تركت صاحبىّ على جادّة ، فإن تركت جادّتهما لم أُدركهما فى المنزل » وكلما نصح له ذووه ومنهم بنته حفصة أن يستكثر من الطعام الطيب والنعمة السائغة سألها : كم كان نصيب النبى من هذا

أو من ذاك وأنت تعرفين نصيبه ؟ فيكون السؤال هو الجواب

ثم كانت رغبته فى إقامة الحجة على ولاته وعماله سبباً آخر من أسباب شظفه وقناعته بالقليل . فقد يستحى أحدهم أن يخون ليغنى وخليفته قانع لا يطمع فى أكثر من الكفاف .

وما كان عمر بالذى يجهل ماعرفه الناس من مروءة « الأبهة والوجاهة » وهو الذى يعلم ما جهلوه ، ولكنه كان غنيًّا عنها إيثاراً لغيرها مما هو أرفع منها وأدل على المروءة فى حقيقتها . فكان يقول : « المروءة مروءتان : مروءة ظاهرة ومروءة باطنة فالمروءة الظاهرة الرياش ، والمروءة الباطنة العفاف » .

فهو فى جملة أحواله يفرض الشظف على نفسه لأن قوته الخلقية تستطيع أن تريد فتفعل ، وتستسهل الجد الذى يصعب على غيرها . ففيها رجحان يكبره العقل والخلق ، وليس فيها نقص يعاب بمقياس التفكير أو مقياس الأخلاق .

إنما كان الرجل يحاسب غيره فيعطيه حقه فى غير بخس ولا حرج ، ويحاسب نفسه فيؤثر الشدة ليقطع الشك ويدرأ الشبهة ويقتدى بصاحبيه ، ويترك القدوة المثلى لمن يليه . فلا سبيل عليه لباحث فى نظم الحكم ولا الباحث فى معانى الأخلاق .

على أن عصورنا الحديثة تستغرب الشظف من عمر وهى تهلل

لملوكها وتكبر لهم حين يستتنون لأنفسهم سنته فى بعض أوقات الضيق والمحنة ، وهى الأوقات التى يتنبه فيها شعور الرعية للفارق بينها وبين راعيها فى المعيشة والتكليف . وأكثر ما يكون ذلك فى أوقات المجاعات والحروب وشح المؤنة على الإجمال .

ففى الحروب الأخيرة تجاوبت الصحف بالثناء على الملوك الذين راضوا أنفسهم وراضوا أسرهم وحاشيتهم معهم على جراية الحرب التى توجبها ضرورات التموين ، وعدوا من مفاخر الملوك أنهم لا يأكلون إلا ما تأكله شعوبهم وأنهم لا يرون لهم عزة فى الترف الذى يعز على رعيتهم ، فاقتدوا بعمر فيما أوجبه على نفسه عام القحط وعلمتهم الشدة كيف ينفذون إلى الواجب الإنسانى من وراء زخارف الحضارة الحديثة .

* * *

وشىء آخر يستغربه العصريون فى نظام حكومة عمر وإن كانوا ليتمنون مثله لو استطاعوه ، ونعنى به طريقته فى محاسبة الولاة والعمال سواء لتحقيق العدل أو لتحقيق الأمانة .

فكان يجزى الوالى جزاء المثل عن كل مظلمة وقعت على أحد رعاياه ، ويأخذ الوالى بسيئات أبنائه وذويه إن أساءوا وهم مستطيلون بما للولاية من حول وجاه .

وكان يحصى أموال الولاة ثم يستصفى مازاد عليها كلما فشت لهم فاشية من النعمة لايخبرونه بمصدرها .

وفى هذا وذاك ضمان للعدل والأمانة يستغربه العصريون لأنهم لا يألفونه فى طرائق الحكومات العصرية .

ولكن أتراهم يستغربونه لأنه غير حسن أو لأنه غير مستطاع ؟ بل لأنه غير مستطاع ولا ريب ، أو لأن الحكومات العصرية لاتملك أن تتحراه وتنصف فى تنفيذه .

أما أنه حسن فلا شك فى حسنه ولا فى أنه أحسن من نظائره بين النظم العصرية . لأن حكومات العصر الحديث قد تحمى الوالى وإن ظلم واعتدى فلا تسمح بمقاضاته إلا بإذن منها ! وقد تحميه مرة أخرى بالإحالة إلى الثقة بالوزارة ومنع المناقشة فى عمله ، لأنها هى المختصة بمناقشته فيه . وتعتذر فى الحالتين بعذر المحافظة على نظام الدولة أن يهدده مايهدد مراكز الحكام .

ولم يكن عمر يخشى هذا الخطر لأنه أقوى منه ، فله هو الحق وعلى النظم العصرية الملام .

أما الطريقة العصرية فى ضمان أمانة الحكام فهى أن تحرم عليهم الدساتير مباشرة الأعمال فى الشركات وما إليها ، ثم هى لاتأخذ منها درهما ولو دخلوا الخدمة صفر اليدين وخرجوا

منها بالضّياع والقصور والأموال .

فمن استغرب الطرائق العمرية فى هذا الباب فليستغربها ماشاء وهو يعلم أن الغرابة ليست بعيب ، وأن المألوف هو المعيب إن قصر عن الغرض المطلوب .

* * *

وما عدا هذا من اختلاف بين العهدين فقلما يعدو اختلاف الأسماء وتغيير العناوين ، وقلّ أن ينفذ إلى ماوراء القشور . وهذه بعض الشواهد التى تقرب أسباب النظر إلى حقيقة هذا الاختلاف .

مرّ عمر فى سوق المدينة فرأى إياساً بن سلمة معترضاً فى طريق ضيق فخفقه بالدرّة وقال له : « أمط عن الطريق يابن سلمة ! » .

ثم دار الحول ولقيه فى السوق فسأله : أردت الحج هذا العام ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين ، فأخذ بيده حتى دخل البيت وأعطاه ستمائة درهم وقال له : يابن سلمة ! استعن بهذه ، واعلم أنها من الخفقة التى خفقتك بها عام أول ! . قال إياس : ياأمير المؤمنين ماذكرتها حتى ذكرتنيها ... فأجابه عمر : أنا والله مانسيتها .

فالنظم العصرية تحار فى وضع هذه الحادثة فى باب من أبوابها المرتبة حسب الوظائف والأوامر والمراجعات .

ولكن ماذا يصنع جندى المرور فى عصرنا إذا شاء أن يميط الطريق ويفض الزحام ؟ وماذا تصنع المحاكم فى تعويض من أصابه الضرب بغير ضرورة ؟

إن جندى المرور ليضرب بالدرّة وبما هو أقسى منها ، وإن المحاكم لتعوض المضروب بشىء من مال الدولة عن خطإ الجند والموظفين . وعمر قد عوّض الرجل من ماله كما يؤخذ من قول ابن سلمة أنه ذهب به إلى بيته ، فإن لم يكن هذا المبلغ من مال عمر وكان من خزانة الدولة فقد غرم عمر كل دين عليه قبل موته ، ولم يفارق الدنيا إلا على ضمان وثيق أن يعاد كل درهم من دينه إلى ذويه ، وقد يكون الخطأ يومئذ فى الحساب لا فى تصرف عمر بن الخطاب .

* * *

ورأى عمر امرأة فى زىّ استغربه فسأل عنها فقيل له إنها الأَمَة فلانة ! فضربها بالدرّة ضربات وهو يقول لها : يالكعاء ! أتشبهين بالحرائر ؟

وهنا مجال واسع للحذلقة العصرية فى الكلام على « الحرية الشخصية » وعلى حق من يشاء أن يلبس مايشاء ويسير حيث يشاء .

ولكن ماذا تصنع الحضارة العصرية بالنساء المريبات اللاتى

يتنكرن بأزياء الحرائر ويأوين إلى البيوت فى أحيائهن ويخرجن معهن إلى الطريق ؟ وبماذا يختلف شأن النساء المريبات من شأن الإماء فى زمن كن فيه متهمات الأعراض ؟

* * *

ورأى عمر رجلا يتبختر ويمشى مشية قبيحة لا تليق بالرجال فأمره أن يتركها فأبى وزعم أنه لا يطيق تركها . فجلده ، وعاد بعد جلده إلى التبختر فجلده مرة أخرى . ثم مضت أيام وجاءه الرجل وقد ترك تلك المشية القبيحة ودعا له : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين . إن كان إلا شيطاناً أذهبه الله بك .

الحرية الشخصية مرة أخرى !

غير أن عمر فى عقوبته هذه إنما كان يعاقب على أمر نهى عنه القرآن وليس له أن يبيحه بحال ؛ فهو قانون يعرفه من أوقع العقاب ومن وقع عليه ومن شهدوه وأقروه ، وكلهم يأبى أن يمشى فى الأرض مرحاً ويعدها من قبائح الآداب .

ولكننا فى العصر الحديث نقسم النواهى والأوامر إلى قسم يحاسب عليه القانون وقسم يحاسب عليه العرف المأثور . وعقاب العرف حق الأمة وليس بحق الحكومة والقضاء .

وحجة العصر الحديث أن العقاب القانونى هنا غير منصوص

عليه وليس النص عليه بمستطاع ، وربما فتح الباب للأغراض والأهواء وآستبداد الحاكمين إذا آستطيع .

وعندنا أن حجة العصر الحديث فى هـذا ناهضة لاشك فى صدقها ، ولكنها إن نهضت فإنما تنهض على العصر الحديث ولا تنهض على عمر ولا على من وثقوا بعدله وأسلموه زمام العرف والقضاء على السواء ... فماذا لو استطاع العرف فى عصرنا أن يحاسب الناس بالحبس والجلد والغرامة على رذائل الذوق وقبائح الآداب دون أن يخطئ أو يجور ؟ أيأبى الإصلاح وهو آمن عقباه ؟ إن أباه فليس صوابه فى إبائه بأكبر من صواب عمر فى تقريره ، وليس على عمر ولا على رعيته جناح أن يطمئنوا إلى عدل يعيينا أن نطمئن إلى مثله .

* * *

وقد تقدم أن عمر غضب على الحطيئة لهجائه الناس ونهاه أن يهجو أحداً فضرع إليـه الرجل وقال : إذن أموت ويموت عيالى من الجوع . فأنذره ليقطعن لسانه ! ... ثم عطف عليـه فساومه على ترك الهجاء بثلاثة آلاف درهم . فسلم الناس من لسانه واستغنى عن هذه الصناعة ما عاش عمر . ثم عاد إليها بعد موته .

إن أمين الحساب فى خزائن الدول الحديثة يحار فى أى باب

من أبواب المصروفات يضع هذه الدراهم التى اشترى بها هجاء الحطيئة ، ولكنه لا يحار طويلا حتى يذكر باب الدعوة وما تنفقه الدول من الملايين ثمناً للثناء والهجاء . فيضعها هنالك وهو أهدأ ضميراً مما وضع فى الباب كله ؛ لأنه مال تنتفع به الرعية وتنتفع به الأخلاق ، ولا نفع فيه لذوات الحاكمين .

ولنضرب أمثلة من طراز آخر على الطريقة العمرية التى يستغربها العصريون وهم مخطئون فى استغرابها أو قادرون على النظر إليها كما ينظرون إلى المألوفات لو أطلقوا عقولهم من عقال الصيغ والأشكال ونفذوا من ورائها إلى الجواهر والأصول .

كان عمر يعسّ فى المدينة فسمع صوت رجل وامرأة فى بيت ، فتسور الحائط فإذا رجل وامرأة عندهما زق خمر . فقال يا عدو الله ! أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على معصية ؟ فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ! أنا عصيت الله فى واحدة وأنت فى ثلاث . فالله يقول : (ولا تجسسوا) وأنت تجسست علينا . والله يقول : (وأتوا البيوت من أبوابها) وأنت صعدت من الجدار ونزلت منه . والله يقول : (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) وأنت لم تفعل ذلك ... فقال عمر : هل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال نعم ، والله لا أعود .

فقال : اذهب فقد عفوت عنك .

ما أسرع ما تقول الحذلقة العصرية وهى مستريحة البال : هذه بدوات البادية فى حكمها ... تجسس ثم محاجة جدلية ثم نزول عن عقاب . وهى « طريقة تعوزها الإجراءات الرسمية » التى نحن عليها حريصون وبها جدُّ فخورين !

لكن ما القول فى مطابقة هذه الطريقة كل المطابقة لما يجرى عليه النظام الحديث فى إجراءاته الرسمية بغير استثناء ؟

فالدساتير الحرّة تمنع الرقابة وفض الرسائل واستباحة الأسرار ... والحكوماتُ مع هذا المنع الدستورى تضطر إلى استطلاع الأحوال واتقاء الجرائم بمراقبة المتهمين وذوى الشبهات . فإذا اتفق فى حادث من الحوادث أنها استباحت سراً يدل على جريمة محظورة فماذا يكون من سير الإجراءات الرسمية ؟ يكون ما كان من عمر فى الحادث الذى رويناه بغير اختلاف ... فالقضاء لا يأخذ بدليل يمنعه الدستور ولا تثبت عنده الجريمة إلا بدليل مشروع ، والحكومة تضطر هنا إلى السكوت ومتابعة الحالة حتى تسفر عن بينة يجوز لها أن تعتمد عليها أمام القضاء . وهى فيما تصنع من هذا القبيل أعجز من عمر فيما صنع . لأنه جعل الاستطلاع سبيلا إلى العظة والتوبة . واستغنى عن الإجراءات

الرسمية التى نحن عليها حريصون وبها جدّ فخورين !

* * *

وتقترب من حادث تطول فيه الألسنة العصرية أبعد مما طالت فى شتى الحوادث التى قدمناها ، ونعنى به كتابه الذى خاطب به النيل يوم قيل له إنه أمسك عن الفيضان.

وقد زعم المؤرخون أن أهل مصر ذهبوا إلى عمرو بن العاص فى شهر بؤنة فأخبروه أن للنيل عندهم سُنة قديمة لا يجرى إلا بها ، وهى «أنهم إذا كانت ليلة ثلاث عشرة من هذا الشهر عمدوا إلى جاريةٍ بكرٍ بين أبويها فحملوا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقوا بها فى النيل» ... فلم يجبهم عمرو إلى ما سألوه وقال لهم : هذا لا يكون فى الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله . فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى لا يجرى فيها النيل قليلا ولا كثيراً . ثم رفع عمرو الخبر إلى عمر فاستصوب ما صنع وكتب له : إنى بعثت إليك بورقة مع كتابى هذا فألقها فى النيل ، وفى الورقة كتاب يخاطب به النيل يقول فيه : «من عبد الله عمر إلى نيل مصر . أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر . وإن كنت تجرى من قبل الله فنسأل الله أن يجريك»

قال رواة هذه القصة : إن عَمراً ألقى بالورقة فى النيل قبل

يوم الصليب بشهر وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً واستراحوا من ضحاياه فى ذلك العام وفيما بعده من الأعوام .

والرواية على علاتها قابلة للشك فى غير موضع عند مضاهاتها على التاريخ . وقد يكون الواقع منها - إن وقعت - دون مارواه الرواة بكثير .

ولتكن على هذا صحيحة بحذافيرها فما هى الغضاضة فيها على العلم الحديث ولا نقول على العقل « البدوى » قبل نيف وألف سنة ؟

إن عمر لم يجد أهل مصر معولين فى فيضانهم على القناطر والسدود وفنون الهندسة فأبى عليهم أن يعولوا عليها ، ولكنه وجدهم معولين على خرافة يعافها العقل والشعور فأنكرها وحق له أن ينكرها ، ولم يقل لهم إن ورقته الملقاة فى النيل هى التى تجريه ، بل قال لهم إن النيل ليجرى بغير تلك السنة التى استنوها له وبغير القربان الذى يتقربون به إليه ، وليس فى هذه القصة كلها مايستغرب من حاكم عصرى مؤمن بالله منكر للخرافات . فورقة عمر أقرب إلى العقل فى زماننا هذا من الكؤوس والقوارير التى تكسر فى الأنهار عند فتح قناطرها

وجسورها ، وأقرب إلى العقل من البخور الذى يحترق فى البيع والهياكل جلباً للفيضان واستغاثة بالسماء .

* * *

ونحن لا نعرض لهذه الأشتات من طريقة عمر فى حكومته لأنها هنات تلجئ المعجب به إلى دفاع وتسويغ . وليس فى كل هذه الأشتات وأشباهها ما يلجئ عمر ولا المعجبين به إلى دفاع أو تسويغ .

وإنما عرضنا لها توسعةً لأفق النظر إلى العظمة الإنسانية فى مختلف أزمانها ، واستخفافا بالغرائب التى تخلقها العادة العارضة لعبادها ، ثم هى لا تستحق من هوانها أن نخسر من أجلها شعورنا بعظمة الإنسان وإنها لأنفس ما نصونه ونعتزّ به فى جميع الأزمان .

عدل عمر نخسره لأنه كان يقضى فيه بغير « آستمارة » مدموغة ينص عليها قانون المرافعات ! أو لأنه كان يقضى فيه على غير « الإجراءات العصرية » فى مواجهة الحقوق الشخصية ! أو لأنه كان يقضى فيه قضاء يختلف الفقهاء فى عنوانه وفى الرف الذى يضعونه عليه بين رفوف الأضابير !

يا لها من حماقة تخجل العصر الحديث ! تخجله وهو واقف بين العصور يتطاول عليها بتسخيف الحماقات وإدحاض الخرافات .

عُمَرُ والنَّبِيّ

يندر أن يظفر الباحثون فى طبائع الإنسان بمغنم نفسى هو أوفر ثمرة وأنفس محصولا من دراسة عمر بن الخطاب ، لأن الظواهر المختلفة التى تتجلى فى هذه النفس العظيمة ليست من ظواهر كل يوم ولا ظواهر كل دراسة ، ولأن اتفاقها البسيط مع تركيبها العجيب مما يتعذر جداً فى النفوس التى نعهدها ، ومما يتعذر جداً حتى فى نفوس الأفذاذ من العظماء .

بيد أن المغنم الأكبر فى هذه الدراسة إنما هو مغنم علم الأخلاق . لأن علم الأخلاق أحوج إلى الاستدلال بالظواهر الطبيعية ، وأفقر إلى الأسناد والدعائم التى تقيمها أمثال هذه الدراسات .

فكل نفس ـ عظمت أو صغرت ـ فدراستها مغنم لعلم النفس لاشك فيه ، كائنةً ما كانت النتيجة التى نتأدى إليها من بحث خفاياها وتنظيم شواهدها .

لكن الوصول إلى نتائج علم الأخلاق هو الصعب الجديد الذى لن يزال اليوم وبعد اليوم صعباً وجديداً إلى أمدٍ بعيد .

فالمفروض أن نتائج علم الأخلاق « فكرية تكليفية » يستنبطها الفكر الذى يختلف فى صوابه كما يختلف فى خطئه ، ويمليها التكليف الذى يطاع ولا يطاع ، ويراض عليه الإنسان رياضته

على الأمر الغريب « الأجنبى » عن نوازع الطباع .

فإذا اهتدينا إلى نفس تعزز تلك النتائج الفكرية التكليفية التى هى أقرب إلى الآمال المنشودة منها إلى الوقائع الموجودة فقد ظفرنا بمغنم كبير .

وإذا ظفرنا بحقيقة نفسية هى فى الوقت نفسه حقيقة فكرية وحقيقة خلقية فذلك هو المغنم المضاعف الذى قلما ينال .

ونفس عمر بن الخطاب هى تلك النفس التى تدعم علم الأخلاق من الأساس ، وهى ذلك الصرح الشامخ الذى ننظر إلى أساسه فكأننا تسلفنا النظر إلى ذروته العليا ، لأنه قرب بين الآمال والقواعد أوجز تقريب ، إذ هو التقريب الملموس .

آمال كثيرة من آمال محبى الخير ودعاة الإصلاح هى فى نفس عمر ابن الخطاب وقائع مفروغ منها ، كأنها وقائع المرئيات والمسموعات .

فمنها فيما أسلفناه أن القوة لا تناقض العدل فى طبيعة الإنسان بل يكون العدل هو القوة التى تخيف فيخافها الظالمون .

ومنها فيما نحن بصدده الآن أن القوة لا تناقض الإعجاب على خلاف ما يتبادر إلى الأكثرين .

فإن الأكثرين يحسبون أن الرجل الذى يُعجب به الناس لا يُعجب هو بأحد ، وأن البطل الذى يقدسه عشاق البطولة

لا يعشق البطولة فى غيره ، وأن التطلع إلى الأعلى صفة ينطبع عليها الصغار ليرتفعوا بعض الارتفاع ويحسنوا الخدمة والعون للكبار ، ولكنها صفة ينفر منها الكبير ويحس فيها الغضاضة أن يصغر إلى جانب المتفوقين عليه ، ممن هم أكبر قدراً وأحق بالإعجاب .

لكن البطل الذى ندرسه هذه الدراسة ينقض ذلك الحسبان أقوى نقض مستطاع ، لأنه بطل يروع ويعرف روعة البطولة ... ويستحق الإعجاب غاية استحقاقه ثم يخيل إليك من فرط ولائه لمن يفوقونه أنه خلق للإعجاب بغيره ولم يخلق ليكون هو موضع إعجاب .

فعمر كان يحب محمداً حب إعجاب ، ويؤمن به إيمان إعجاب ، ويستصغر نفسه إذا نظر إلى عظمة محمد ، وما هو فيما خلا ذلك بصغير فى نظر نفسه ولا فى نظر الناس .

كان محمد عليه السلام كما نعلم قدوة فى الدعة وحسن المعاملة لجميع صحبه وتابعيه ، وكان يعاملهم جميعاً معاملة الإخوان والزملاء فلا يغمرهم برهبة التفاوت الشاسع والتفوق البعيد ، فلو جاز أن ينسى أحد فارقاً بينه وبين عظيم لنسى أصحاب النبى هذا الفارق بما يلقونه من مساواته وحسن معاملته ، ولو نسياناً إلى حين .

إلا أن عمر « العظيم » سمع مرة من صديقه محمد عليه السلام كلمة « يا أخى » فظل يذكرها مدى الحياة .

استأذنه فى العمرة فأذن له وقال : « ياأخى لاتنسنا من دعائك » ... فما زال عمر يقول بعدها كلما ذكرها « ماأحب أن لى بها ماطلعت عليه الشمس لقوله ياأخى ! » .

شهادة لعظمة محمد أنه يؤاخى الناس كباراً وصغاراً وإن الناس كباراً وصغاراً لاينسون مافى مؤاخاته من فخر وغبطة وما بينهم وبينه من فارق بعيد .

وشهادة لعظمة عمر أنه أهل لذلك الإخاء ، لأنه يدرك مافيه من عظمة ، ويشعر بما فيه من رضوان .

وما يدريك ماعمر الذى يشيع فى قلبه الفرح بهذا الإخاء ؟

ليس بالرجل الذى يحب تواضع المرائين ، وليس بالرجل الذى يجهل مقداره أو يهاب مخلوقاً بغير الحق ، وبغير الإعجاب .

عمر هذا هو الذى تولى الخلافة وحجته الأولى فى ولايتها أنه أكفأ المسلمين لها غير مدافع ، وأنه كما قال « لوعلمت أن أحداً أقوى منى على هذا الأمر لكان أن أقدم فتضرب عنق أحبّ إلىّ من أن أليَه » .

نعم ، هو عمر أقدر المسلمين كما يعلم ، وهو عمر الذى يستصغر نفسه إذا نظر إلى المثل الأعلى والقدوة الفضلى ، وهو إذاً أكبر مايكون بهذا الاستصغار .

لقد كان يُسمع وهو خليفة يقول كالساخر وما هو بساخر : « بخ بخ يا ابن الخطاب . أصبحت أمير المؤمنين ! » .

أكان يقولها لأنه كان يجهل أنه أكفأ العرب للخلافة بعد صاحبيه ؟ ... كلا . بل كان يقولها لأنه يعرف النظر إلى المثل الأعلى ... يعرف الإعجاب بما فوقه . يعرف محمداً ويعرف أن اللحاق به أمل لا يطال . يعرف الإعجاب بطلا معجباً ببطل ، ويشاء فضله أن تحصى له هذه بين أصدق شواهد البطولة فيه .

ومن الخطأ أن يتوهم المتوهم أن عمر كان يتصاغر لأنه يشعر بصغره ، ويتواضع لأنه يشعر بضَعةٍ فيه .

إن الصغير لا حاجة به إلى تصاغر لأنه صغير ، وربما كانت حاجته الكبرى إلى مداراة شعوره الدخيل بتفخيم الرواء وتزويق الطلاء . والتخايل بالمسكن والكساء .

وإنما كان عمر يتصاغر لأنه يشعر بعظمته ويكبح ما يخامره من اعتداد بنفسه ، ومحال أن تمتلئ نفس بمثل هذه القوة ثم تخلو من شعور بقوتها واعتداد بقيمتها . فليس ذلك من معهود الطباع في حيّ من الأحياء ، ولا نقصر القول على الإنسان .

ولهذا كان عمر يتصاغر على قدر ما يراه من بواعث الكبرياء ، لا على قدر ما يراه من بواعث الصغر ، فأبى أن يركب البرذون وهو

يغالب عزة الفتح داخلا إلى الشام دخول المنتصر، وقيل له فى ذلك فصاح بهم: خلوا سبيل جملى! إنما الأمر من هاهنا، وأشار إلى السماء!

وكلما اعتز من حوله من خاصة أهله وخلصاء رعاياه بما يرونه فيه من بسطة السلطان وعلوّ الكلمة غض من اعتزازهم وأحضر فى أذهانهم ما ينسيهم السلطان المبسوط والكلمة العالية. فقال لأصحابه يوما وقد مرّ ببعض الشعاب على مقربة من مكة: «لقد رأيتنى فى هذه الشعاب أرعى إبل الخطاب، وكان غليظا يتعبنى، ثم أصبحت وليس فوقى أحد!».

وضايقت هذه الكلمة ابنه فقال له: ما حملك على ما قلت يا أمير المؤمنين؟»... قال: «إن أباك أعجبته نفسه فأحب أن يضعها».

وانظر هنا إلى كلمة «أمير المؤمنين» يقولها الابن، ثم انظر إلى كلمة «أباك» يقولها أمير المؤمنين.

ومن قبيل هذا ركوعه لله ذليلا خاشعاً يوم أمر أبا سفيان أن ينقل الحجر من مكانه فنقله، فخشع لله الذى جعله يأمر أبا سفيان فى شعاب مكة فيستمع لما أمر.

وليس هذا وأشباهه تصاغراً يكشف الصغر، إنما هو تصاغر يكشف القوة والاعتداد بها ويكبحها بعنان متين هو نفسه دليل القوة والاعتداد.

* * *

بل يشاء بأس هذا البطل أن تتمادى فيه الصفات إلى غايتها

وهى متناقضة فى النظرة الأولى ، فإذا بهذا التمادى يردها إلى الوفاق والتكافؤ ولا يوسع ما بينها من ظواهر الاختلاف .

فمما رأيناه أنه عادل يفوق العدول ، وقوى يفوق الأقوياء ، فإذا العدل والقوة فيه وفقان متساندان لا يختصمان ولا يتناقضان .

ومما رأيناه أنه بطل تعجب بطولته الأصدقاء والخصوم ، ثم هو فى إعجابه بالبطولة كأنه خلو من دواعى الإعجاب .

وبقى من موافقاته النادرة أن الإعجاب عنده لا ينقض الاستقلال ، ولا يهدد «الشخصية» بالفناء والزوال . فيعجب بمن يفوقه غاية الإعجاب ويحتفظ معه باستقلال رأيه غاية الاحتفاظ ، ولا يتناقض الأمران .

فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من إعجاب عمر .

ولم يكن أحد مستقلا برأيه فى مشورة محمد أكبر من استقلال عمر . فهو آية الآيات على أن فضيلة الإعجاب لا تغض من صراحة الرأى عند ذى الرأى الصريح .

فما أحجم عمر قط عن مصارحة النبي عليه السلام برأى يراه ، ولو كان ذلك الرأى من أخص الخصائص التى يقف عندها الاستقلال .

فمحمد فى بيته وهو صاحبه . ومحمد فى شريعته وهو صاحبها ، كان يستمع إلى عمر حين يقترح وحين يستنزل الأحكام ، وحين يستدعى الوحى فى أمر من الأمور .

فكان يشير على النبي عليه السلام أن يحجب نساءه ، ويبلغ ذلك إحدى أمهات المسلمين زينب فتقول له : إنك علينا يا ابن الخطاب والوحى ينزل علينا فى بيوتنا ؟ وتخرج إحداهن سودة وهى تحسب أن أحداً لا يعرفها لاستتارها بالظلام فيعرفها بطول قامتها ويناديها « عرفتك يا سودة ! » ليؤكد ضرورة الحجاب . فيؤمر المسلمون بعد ذلك ألا يسألوهن إلا من وراء حجاب .

ولما هم النبي عليه السلام بالصلاة على عبد الله بن أبىّ كبير المنافقين يوم وفاته تحوّل عمر حتى قام فى صدره وأخذ يذكره مساوئ عبد الله وأقاويله فى النكاية بالإسلام وحكم القرآن فيه وفى أمثاله أن « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وألح فى التذكير حتى أكثر على النبي عليه السلام وهو يبتسم ويقول له « أخر عنى يا عمر » لو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له زدت ، ثم صلى عليه ومشى معه حتى فرغ من دفنه ... ثم ماكان إلا يسيراً كما قال عمر حتى نزلت هاتان الآيتان « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » .

وروى أبو هريرة عن النبي عليه السلام أنه أنفذه إلى رهط من المسلمين فقال له اذهب إليهم « فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة » فكان أول من لقى

عمر . فصدّه وعاد به إلى النبي يسأله : « يارسول الله بأبي أنت وأمي ، أبعثت أبا هريرة من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشره بالجنة ؟ » قال النبي : نعم . فلم يتريث عمر أن قال : فلا تفعل يارسول الله ! فإني أخشى أن يتكل الناس عليها . فخلهم يعملون » فوافقه عليه السلام وقال : « فخلهم ! » .

وفي التشريع أو التحليل والتحريم كان عمر لا يقنع حتى يصل إلى القول الفصل فيما يستفسر عنه ويتردّد في حكمه ، فمازال يسأل عن الخمر حتى حرمت وبطل فيها الخلاف . وهو هو الذي كانت الخمر شهوة له في الجاهلية يحبها ويكثر منها ، ولو شاء لالتمس الرخصة فيها ولم يكثر من السؤال عن تحريمها ، ففي سؤاله عنها وحذره منها فضل أكبر من فضل الاستقلال بالرأي والإخلاص في المراجعة ، وهو فضل الغلبة على النفس والتحصن من الغواية بالأمر الذي لا هوادة فيه .

وجرى صلح الحديبية الذي كان ظاهر الغبن فيه على المسلمين وظاهر الفوز فيه للمشركين . فيستطيع قارئ التاريخ قبل أن يحصى أسماء المعارضين للصلح والصابرين عليه أن يعلم أين كان عمر بين الفريقين . فقد غمه هذا الصلح غماً شديداً وذهب إلى أبي بكر يراجعه ويناجيه : علام نعطى الدنية في ديننا ؟ فأجابه أبو بكر : ياعمر الزم غرزك (أي رحلك) فإني أشهد أنه رسول الله . وردّد عمر إنه

ليشهد أنه رسول الله ، ثم ذهب فى بعض الروايات إليه عليه السلام فسأله : ألسنا يارسول الله على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ ورسول الله يجيبه : بلى ! بلى ! فيعود فيسأل : علام نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟

فلما ناداه : ابنَ الخطاب ! إنى رسول الله ! ولن يضيعنى الله أبداً ، ثم علم أنه الفتح المنتظر ، ثاب إلى الرضى وكف عن السؤال .

والمحنة على ماهى عليه أعظم مما يطيقه صبر عمر وتسكن إليه سورة طبعه . فمن شروط الصلح أن يرجع المسلمون عامهم ذاك فيردوا من جاءهم من قريش ولا ترد إليهم قريش أحداً ممن يجيئون إليها ، وأن يكتب النبى اسمه فى عقد الصلح فلا يكتب فيه أنه رسول الله ، وهذه محنة وردت على حمية عمر بالوارد الجلل الذى ليس أقسى منه ولا أمرّ على هذه الحمية العزوف . ولكن الصلح لم ينته حتى تفاقمت المحنة وادلهمت الغاشية كأن ما ابتلاه منها لا يكفيه . فبينما هم يكتبون إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله . فقام إليه سهيل - وكان وكيل المشركين فى عقد الصلح - فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ليدفع به إلى قريش ، وأبو جندل يصيح يامعشر المسلمين ، أأُرد إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ فواساه النبى ودعاه إلى الصبر والاحتساب ، ووثب عمر إليه يمشى إلى جنبه ويدنى منه

قائم السيف ويقول له : اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب . ورجا - كما قال بعد ذلك - أن يأخذ أبو جندل سيفه فيضرب به أباه ... قال : ولكن الرجل ضن بأبيه ونفذت القضية .

فالمحنة أعظم مما تطيقه الحمية العمرية بغير وازع من هداية نبوية . ولأياً ما سكنت نفسه واطمأنت إلى حكمة سيده ومعلمه وهاديه . ولا سيما حين ناداه : ابنَ الخطاب ! إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبداً ...

هذه المراجعة كانت من خلائق عمر التى لا يحيد عنها ولا يأباها النبي عليه السلام ، وكثيراً ما جاراه واستحب ما أشار به وعارض فيه . فلا جرم يراجع النبي فى كل عمل أو رأى لم يفهم مأتاه ومرماه ما أمكنته المراجعة وما قلقت خواطره حتى تثوب إلى قرار .

اللهم إلا أن تستعصى المراجعة ويعظم الخطر فهناك تأتى الخليقة العمرية بآية الآيات من الاستقلال والحب والحزم الذى يضطلع بجلائل المهمات . فلما دخل النبي عليه السلام فى غمرة الموت ودعا بطرس يملى على المسلمين كتاباً يسترشدون به بعده أشفق عمر من مراجعته فيما سيكتب وهو جد خطير : وقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا . ومال النبي إلى رأيه فلم يعد إلى طلب الطرس وإملاء الكتاب . ولو قد علم النبي أن الكتاب ضرورة لا محيص عنها لكان عمر يومئذ أول المجيبين .

وكانت هـذه سنته فى حياة النبي وبعد موته فى كل عمل لا يستريح إليه ، فلم يحجم عن مراجعة أمره حياً وميتاً فى مسألة ليست من مسائل الوحى الذى فيـه فصل الخطاب ، وما كانت المسألة مسألة رأى فهو ناهض لها برأيه حتى يؤمن بخطئه أو يردّه عن المعارضة أمر مطاع

كذلك صنع فى قيادة أسامة بن زيد قائد الجيش إلى البلقاء وفيه جلة الصحابة من كبار السن والمقام . فقد ولاه النبي القيادة ومات عليه السلام وهو فى أول الطريق . فقال أسامة لعمر : ارجع إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه يأذن لى أن أرجع بالناس ، فإن معى وجوه الناس ، ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل[1] رسول الله وثقل المسلمين أن يتخطفهم المشركون » وقالت الأنصار : فإن أبى إلا أن نمضى فأبلغه عنا واطلب إليه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنًّا من أسامة » .

وغضب أبو بكر وكان جالساً فوثب وأخذ بلحية عمر وهو يهتف به : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ! استعمله رسول الله وتأمرنى أن أنزعه ؟

فوجبت الطاعة . لأنه أبرأ ذمته بالمراجعة وسمع أمر الرئيس

(١) الثقل : الحشم والمتاع .

الذى لارجعة فيه ، وعمر جندىّ متى صرح له الأمر من صاحب الأمر لم يبق له إلا أن يطيع .

وخُتمت سنة النبي بوفاته فلم يكن بين الصحابة أحد أحرص على هذه السنة وألزم لها وأكثر رجوعا إليها من عمر . ولم تكن له وصية مقدمة على الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله . إلا أنه مع هذا لم يكن يغفل عن العلل إذا وجب البحث عن العلة التى وراء السنة النبوية ، فخالف أبا بكر رضى الله عنه فى إقطاعه الأرض لعيينة ابن حصن والأقرع بن حابس وقال لهما إنّ رسول الله كان يتألفكما على الإسلام وهو يومئذ ذليل ، وإن الله قد أعز الإسلام ... « فاذهبا فاجهدا جهدكما ... » .

فقد علم سنة النبي مع « المؤلفة قلوبهم » ولم يغفل عن سببها وموقتها ، فهى سنة تطاع لحكمتها ولا توضع فى غير موضعها ، وليس على المسلمين حرج أن يختاروا للمؤلفة قلوبهم معاملة غير التى ألفوها من صاحب الرسالة ، إذا تغيرت الحكمة واختلفت العلة ، واستغنى الإسلام عن ناصرين تتألفهم العطايا والأنفال .

ولمثل هذا السبب ولا شك نهى عن زواج المتعة ونهى عن التحلل من بعض مناسك الحج ولم يكن منهياً عنهما كلّ النهى فى حياة النبي عليه السلام . فكان الرجل يتزوج بالمرأة لأجل معلوم

ثم يتركها . وكان منهم من ينوى الحج ثم يتحلل من بعض مناسكه، فنهى عنهما عمر فى أيام خلافته وقال : « متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أنهى عنهما وأضرب عليهما » .

وموافقات عمر للقرآن وللسنة كثيرة لايدعونا المقام هنا إلى إحصائها واستيفائها ، وكذلك مراجعاته ومناقشاته فيما يرد عليه من أحكام لاتنجلى له مآتيها ومراميها ، فحسبنا منها دلائل استقلاله وصراحة عقله فيما سردناه ، وحسب الإسلام فخراً أن يؤمن به الإنسان إيمان عمر ثم يستقل برأيه وطبعه استقلال عمر . فالإيمان فى أقصاه لايعطل الرأى المستقل فى أقصاه ، وكل صفة فى عمر فهى صفة مستقصية لا وسط فيها . إذا آمن فذلك غاية الإيمان وإذا استقل فذلك غاية الاستقلال ، وإذا أعجب فذلك غاية الإعجاب ...

وإن الظفر الذى يظفره علم الأخلاق من دراسته لمبعثهُ هذا الشاهد من الصفات التى تتناقص فى ظاهرها وهى على عهدنا بها فى عمر متفقات متساندات لاتستغنى واحدة منها عن سائرها .

فإن لم يكن فى دراسة عمر إلا أن نرى رجلا عادلا بالغاً فى عدله ، قوياً بالغاً فى قوته ، معجباً بالبطولة بالغاً فى إعجابه ، مستقلا بالرأى بالغاً فى استقلاله ، لكفى بذلك ظفراً لعلم الأخلاق ، وكفى بسيرة واحدة أن تقرر لنا هذه الحقائق التى تستكثر

على عشرات السير ، وهى أن القوة لا تناقض العدل ، وأن البطولة لا تناقض الإعجاب ، وأن الإعجاب لا يناقض الاستقلال ، وتلك الحقائق أثبت فى عمر من معارف بدنه وملامح سيماه .

* * *

وكانت مودة النبي لعمر كمودة عمر للنبي شرفا له من جانبيه ، وشهادة لعظمته وعظمة معلمه ومؤدبه وهاديه .

كانت نظرة محمد إليه نظرة عالية لا تعلوها نظرة أحد من أصحابه فلم يكن أحد يكبر عمر كما كان يكبره أكبر عارفيه ، ولم يكن رضاه عن مخالفاته ومراجعاته بأقل من رضاه عن موافقاته وتسليماته . لأنه كان ينظر إلى بواعث هذه وتلك فيحمدها ويرجو للإسلام خيراً منها ، بل يدخر للإسلام سورته كما يدخر له تسليمه وطاعته ، ويسوسه فى رفق وكرامة سياسة المعلم لتلميذه الذى يعينه ويستعين بغيرته ويروضه رياضة الإمام لمريده الذى يهيؤه للإمامة بعد حين ، ويشجعه بقبول الحسن من رأيه تشجيعَ من يثبّت فيه حسن الرأى ويستزيده منه .

ولا يتأتى أن ينظر النبي الملهم إلى عمر دون أن يرى فيه أولى مشابهاته للطبائع النبوية وهى الإلهام الدينى والبصيرة الروحية ، فكان عليه السلام يقول فيه : « قد كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال

يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر » .

ومثله قوله فى بعض ما نُقل عنه عليه السلام : « لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب » وقوله : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » ... وقوله : « عمر بن الخطاب معى حيث أُحِب ، وأنا معه حيث يُحِب ، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان » .

وتلك لمحات نبىّ ملهم إلى بصيرة ملهمة تقارب بصيرة الأنبياء ... وإن فى هذه اللمحات لمعرفة بالنفس ونفاذاً إلى الضمير من أجلها كان محمد مصلح نفوس وهادى ضمائر ، وفاتح عهد روحىّ فى تاريخ الإنسان .

ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن محمداً قد أحاط بكل فضيلة من فضائل عمر وكل خليقة من خلائق طباعه . وراقبه قبل إسلامه وبعد إسلامه فلم تفته كبيرة ولا صغيرة من مواطن العظمة فيه ؛ إلا أنه لم يحمد منه شيئاً كما حمد حبه للحق وكراهته للباطل ، فهى الخصلة التى تلاقيا فيها وتقاربا من قِبلها ، وإن كان محمدٌ لأرحب صدراً وأعلم بالناس من أن يكلف صاحبَه أن يشبهه كل الشبه فى علاج الحق والباطل ، فلا بدّ من فارق بين الرجلين هو الفارق الذى لابدّ منه بين المعلم والمريد وبين الإمام والمأموم .

ولا نخالنا نلمس هذا الفارق كما نلمسه من قصة الأسود

ابن شريع ذلك الشاعر الذى كان ينشد النبي بعض الأماديح فاستنصته مرتين إذ دخل عليهما عمر والشاعر لا يعرفه . فصاح : واثكلاه ! من هذا الذى أسكت له عند النبي ؟ فقال النبي : هذا عمر ... هذا رجل لا يحب الباطل ! » .

وتلك قصة تكبر عمر مرة وتكبر النبي مرات ، فلا يسمعها السامع فيخطر له أن محمداً كان يقبل الباطل الذى يأباه عمر . أو كان يهوى اللغو الذى يعرض عمر عن سماعه ... وإنما يسمعها فيعلم أى الرجلين يهدى صاحبه فى مناهج الحق ويدرّبه على كراهة الباطل ويعلم أن الإمام يطيق ما لا يطيقه المريد ويتسع صدره لما تضيق به صدور تابعيه ، وأنّ محمداً أراد أن يعود الناس مهابة عمر وأن يستبقى لعمر سورته فى محاربة الضلال ، والأيام كفيلة بترويض تلك السورة فيما ينبغى أن تراض عليه .

وهنا يتجلى مذهبان فى كراهة الباطل ، ويتجلى فارق واضح بين مذهب المعلم ومذهب المريد .

فعمر كان ينكر الباطل إنكار المحارب ويرفع له سلاحه حيثما رآه ، ومحمد كان ينكره ولا يرفع له سلاحه حيثما رآه ... لأنه يعلم ضروباً من الباطل وضروباً من الإنكار .

ومن الإنكار أحياناً أن يتجاوز عنه ، وأن يشفق عليه إشفاق

الرجل على سخف الطفل الصغير ، وأن يتربص به الأيام حتى يزول وأن يعالجه بسلاح المحارب وبغير سلاح المحارب ، وهو بذلك قد أعدّ له ضروباً من الإنكار ، وكان أكمل عدّة له من الراصدين له فى ميدان واحد

أنقول إن الفارق بين محمد وعمر فى هذا هو الفارق بين نبىّ وخليفة !

إن قلنا ذلك فقد قلنا حقاً جامعاً لاشبهة فيه ، ولكننا لانعدو به تحصيل الحاصل وتكرير الأسماء ... فمحمد نبىّ وعمر خليفة مافى ذلك خلاف . ولا بدّ بينهما من فارق مافى ذلك خبر جديد ، فما هو الفارق الذى لايعدو تكرير الأسماء أو تكرير الصفات ؟

الفارق فيما نرى هو الفارق بين إنسان عظيم ورجل عظيم .

فالنبى لايكون رجلا عظيما وكفى . بل لابد أن يكون إنساناً عظيما فيه كل خصائص الإنسانية الشاملة التى تعم الرجولة والأنوثة والأقوياء والضعفاء ، وتهيؤه للفهم عن كل جانب من جوانب بنى آدم . فيكون عارفاً بها وإن لم يكن متصفاً بها ، قادراً على علاجها وإن لم يكن معرضاً لأدوائها ، شاملا لها بعطفه وإن كان ينكرها بفكره وروحه . لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الأنداد ، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة ، وأخبر بسعة آفاق الدنيا التى تتسع لكل شىء بين الأرض والسماء ، لأنه يملك

مثلها آفاقا كآفاقها ، هى آفاق الروح .

ومن الصغائر الآدمية التى كثيراً ما يطيقها الإنسان العظيم ويَبرم بها الرجل العظيم كلّ غرور صبيانى يحيك بنفوس الناس وهو ضروب ليست لها نهاية : غرور الشاعر بأماديحه ، وغرور الفنان بصنعته ، وغرور المرأة بجمالها ، وغرور الشيخ بتراثه ، وغرور الأحمق بخيلائه ، وغرور الجاهل بعلمه ... وفى كل ضرب من هذه الضروب كان بين محمد وعمله فارق واضح وتفاوت محسوس ، وكانت بينهما دروس تجرى بها الحوادث تعليما وهدى كما تجرى عرضاً غير ظاهر فيه قصد التعليم والتلقين .

وعمر رضى الله عنه قد استفاد من دروس معلمه وهاديه فى هذه الضروب شتى الفوائد ، كما ظهر من سياسته فى أيام خلافته ومن مراجعة نفسه والنبي عليه السلام بقيد الحياة .

فقد أشار على النبي بقتل عبد الله بن أبىّ بن سلول حين مشى بالفتنة بين المسلمين . فأبى النبي وترك عبد الله يمضى فى شططه حتى أنكره قومه وعنفوه ، وتصدّى له مِن صُلبه من يريد له الموت ، فقال النبي لعمر حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ، قال عمر : قد والله علمت

لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

وكان عمر يستكثر صلاة النبي على عبد الله بن أبيّ بعد موته ويستعظم أن يهبه قميصه وأن يكفنه أهله فى ذلك القميص، وكان النبي يرعى فى ذلك حق ابنه الذى أخلص فى إسلامه وبلغ من إخلاصه أنه اقترح على النبي قتل أبيه ، وسئل النبي كما جاء فى بعض الروايات : لم وجهت إليه بقميصك وهو كافر ؟ فقال : إن قميصى لن يغنى عنه من الله شيئاً ، وإنى أؤمل من الله أن يُدخل فى الإسلام كثيراً بهذا السبب ! فقيل إنّ ألفا من الخزرج أسلموا لما رأوا زعيمهم يطلب الاستشفاء بثوب الرسول ، وخرجت الصحابة وعمر فى طليعتها بعبرة باقية من هذا الدرس النبوىّ الحكيم .

وشبيه بدرس عبد الله ابن أبيّ درس الخطيب المفوه سهيل ابن عمرو الذى أسر فى بدر فأشار عمر على النبي بكسر ثنيتيه السفليين ليعجز عن الكلام إذ كان مشقوق الشفة السفلى ... فأبى النبي « عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه » فما زال وما زال عمر حتى رآه فى حروب الردة يقطع بلسانه كما يقطع السيف ، فحمد له ذلك المقام .

وجاء الفتح بعد صلح الحديبية فرأى عمر كما رأى المعارضون معه أن قريشاً خسرت ولم تربح بالصلح الذى عارضوه ، وأنّ المسلمين ربحوا ولم يخسروا بقبوله ، وأنهم زادوا عدداً وزادوا

حلفاء من غير المسلمين ، وأن الذين رفضهم النبي من تابعيه عملا بالصلح لم ينفعوا قريشاً بل كانوا بلاء عليها أشد من بلاء القتال .

وبدا ذلك من مبدإ الأمر لعمر فاعتبر به وقال : « ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا »

وتجتمع خلاصة هذه الدروس كلها فى خبر واحد من أخبار عمر بعد ولايته الخلافة . وذلك حين بلغوه فتح « تُستر » وذكروا له أن رجلا ارتد عن الإسلام فقتلوه : فلامهم على قتله وقال لهم : « هلا أدخلتموه بيتاً وأغلقتم عليه وأطعمتموه كل يوم رغيفاً فاستتبتموه ؟ اللهم إنى لم أشهد ولم آمر ولم أرض إذ بلغنى »

فهذا عمر تلميذ محمد فى الإسلام ، وهذا عمر شاهد دروس ابن سلول ومن على شاكلته من المنافقين والمشركين ، وهذا عمر المستفيد بما وعى من تلك الدروس ، ومعنى ذلك جميعه أن محمداً أعظم من عمر ، وليس معناه أن عمر لم يكن بعظيم .

* * *

ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن النبى عليه السلام كان يعلم ما يحتاج إليه صاحبه وما يستغنى عنه من الدروس . فعمر لم يعوزه قط درس قوى يعلمه حب الحق وكراهة الباطل لأنها خليقة متمكنة

منه أصيلة فيه موشوجة بطبعه ، ولكنه قد يعوزه حينا بعد حين أن يتعلم الصبر على الباطل ولا سيما فى فوعة الشباب . وألا يأسى على الحق أن تفوته معركة زائلة فى صراعه الدائم مع خصمه القديم ، فهى معركة لا تضيع بصدمة ولا تؤخذ بهجمة . ولا تزال سجالا منظورة العواقب فى ساعة النصر وساعة الهزيمة على السواء .

وربما أعوزه مايعوز الأقوياء فى معظم الأحايين ، وهو أن يذكروا أن الناس جميعاً ليسوا بأقوياء ، وأن الناس جميعاً ليسوا بعمر بن الخطاب ، فإذا استطاع عمر أن يمنع الخمر مرة واحدة فقد يشق ذلك على آخرين ، وإذا استطاع أن يتصدى للموت فى كل لحظة فليس ذلك فى وسع كل مسلم ، وقلما يستحضر الأقوياء هذه الحقيقة إلا بعد تذكير وروية . أما على البداهة فهم يقيسون الناس على أنفسهم ويحسبونهم أهلا لما هم أهل له وكفؤا لما هم قادرون عليه ، ولهم من الشرف فى نسيان هذه الحقيقة فوق ما لهم من الشرف فى تذكارها ودوام استحضارها .

وقد كان تفكير عمر كله على البداهة فى عهد النبى عليه السلام فكان يفضى إليه بما يوحيه عفو خاطره وتمليه بادرة فكره ، مطمئناً إلى مرجع الرأى ومقطع القول بين يديه ، شاعراً بواجبه الأول أحسن شعور فى هذا المقام ، لأنه شعور الرجل الكريم الذى لا يضن بشىء من عونه فهو يعرض أقصى ما عنده من البأس ويدع

لصاحب الأمر أن يكتفى باليسير منه إذا شاء، ولكن ليس عليه هو أن يعرض اليسير ويترك لصاحب الأمر أن يطلب الكثير.

مثل عمر فى هذه المواقف مثل صاحب المال تنزل الضائقة الحازبة فيبسط ما عنده من المال جميعاً ويدع للوالى القائم بالتدبير أن يختار من ماله مقدار ما يريد، وذلك أفضل الحسنيين وأكرم الواجبين، وهو الواجب الذى يليق بعمر فى صحبة الرسول.

ولا يحسبن قارئ أننا نعتسف التأويل والتخريج لننظر إلى عمر فى أجمل الصور ونوجه أعماله أحسن توجيه. فما نقوله هنا لا يعدو تفسير عمر نفسه لما اتصف به من الشدة فى عهد رسول الله وتفسيره كما قال غير مرة أنه كان سيفاً للرسول إن شاء ضرب به وإن شاء أغمده فى قرابه، وأنه كان جلوازه القائم بين يديه، وليس من شأن الجلواز أن يمسك كثيراً أو قليلا من بأسه حتى يؤمر بإمساكه، ويُرد إلى الهوادة واللين.

بل هذا الذى نقوله هو الذى قاله أبو بكر رضى الله عنه فى شدة عمر ولينه، فكلما تحدثوا إليه بغلظته قال: إنما يشتد لأنه يرانى لينا، ولا غلظة على الضعفاء فيه.

فكان جميلا بعمر أن يسهو عن تلك الحقيقة وأن يحتاج فيها إلى تذكير واستحضار، وكان أفضل واجبيه لامراء أن يعرض

البأس حتى يؤبى ، ثم يثوب إلى اللين ولا جناح عليه .

وهو اليقين الذى لا يخامرنا الشك فيه أن عمر كان خليقاً أن يفهم تلك الحقيقة بتفصيلاتها لو جعل باله إليها ولم يجعل باله إلى تقديم ما عنده «والجود بأقصى جوده» فى انتظار القول الفاصل من رأى النبى عليه السلام ، ولولا استعداده لفهم تلك الحقيقة وما شابهها لما انتفع بالقدرة ولا أغنت معه المثل والتجاريب .

ومهما يكن من حاجته إلى دروس معلمه وهاديه فالذى نعتقده أن مكانه من الخلافة لم تقرره الحاجة إلى تلك الدروس ، لأن الصحابة كلهم على حكم واحد فى هذا الاعتبار سواء منهم الخلفاء الراشدون وغير الخلفاء الراشدين . فما من رجل كان بين أصحاب محمد عليه السلام إلا كان مفتقراً إلى جانب من جوانب هديه وتهذيبه وتقويمه ، وما كان عمر على التخصيص بأشد افتقاراً إلى ذلك من رفاقه وتابعيه وإن اختلف ما يعوزه وما يعوزهم من مواضع الهدى ، والتهذيب ، والتقويم .

وواضح مع هذا أن دعوة النبى عليه السلام أبا بكر للصلاة بالناس فى مرض وفاته لم تكن بالمصادفة ولا بالاختيار الذى يتساوى فيه أبو بكر وعمر فى ذلك المقام . فقد دعاه ثم دعاه حتى وصل الأمر إليه رضى الله عنه فلباه ، وتفصيل ذلك كما جاء فى رواية البخارى أن النبى اشتد عليه المرض فقال : مروا أبا بكر

فليصل بالناس : قالت عائشة رضى الله عنها : إن أبا بكر رجل رقيق القلب إذا قام فى مقامك لا يكاد يسمع الناس من البكاء. فلو أمرت عمر ؟ فعاد النبي يقول مُرُوا أبا بكر فليصل ! فعاودته فقال مرة أخرى مروه فليصل إنكن صواحب يوسف ».

وحدّث عبد الله بن زمعة أن بلالا دعا النبي إلى الصلاة فقال : مروا من يصلى بالناس « فخرجت فإذا عمر فى النـاس ، وكان أبو بكر غائباً . فقلت : قم يا عمر فصلّ بالناس . فقام ، فلما كبر سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته ، وكان عمر رجلا مجهراً . فقال : فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون . فبعث إلى أبى بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس ».

قال عبد الله بن زمعة إن عمر لقينى فقال لى : ويحك ! ماذا صنعت بى يا ابن أبى زمعة ؟ والله ما ظننت حين أمرتنى إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك . ولولا ذلك ما صليت بالناس ... قلت : والله ما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ! ولكن حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة .

والواضح من كلتا الروايتين أن النبي عليه السلام قصد إلى اختيار أبى بكر للقيام فى مقامه من إمامة المسلمين وضمّن ذلك ما ضمنه من معنى الاستخلاف والتقديم .

فعلى أى وجه نفهم هـذا الاختيار الذى صدر عن قصد وروية ولم يصدر عن مصادفة واتفاق ؟ وعلى أى وجه تساءل النبي عليه السلام حين سمع صوت عمر ولم يسمع صوت أبى بكر فقال : « يأبى الله ذلك والمسلمون » ؟

إننا لانفهم ذلك إلا على وجه واحد يجمل بمحمد ويجمل بأبى بكر ويجمل بعمر كما يجمل بالمسلمين .

فمن البديه أن ينظر النبي فى اختيار خليفته إلى جميع الاعتبارات التى تدخل فى الحسبان ولا يقنع بالنظر إلى اعتبار واحد .

فإذا نظر النبي إلى جميع الاعتبارات فأى غضاضة على عمر أن يقع الاختيار على أبى بكر ولا يقع عليه ؟

إن اختيار أبى بكر يجمع للإسلام فضائل الرجلين ولا غضاضة فيه على أحدهما ولا على المسلمين . ولكن الغضاضة أن يتأخر أبو بكر وهو أسن وأسبق إلى الإسلام وثانى اثنين فى الغار ، وأقمن أن تبطل حوله منافسة الأنداد ، وله الرأى الصائب والشجاعة المأثورة والإيمان الثابت والمسالمة المرضية والحق الظاهر فى الإيثار كلما قوبل بغيره من الحقوق .

ومع هـذا الرجحان الذى انفرد به أبو بكر ترجيح آخر لاستخلافه فى الموقف الذى كان منظوراً بعد موت النبي عليه السلام ،

وهو موقف رضًى ومسالمة بين المسلمين يغنيان إذا جرت الأمور في مجراها الطيب المأمون . فإذا تأزمت واضطربت ونفدت حيلة اللين حتى نبذه أبو بكر في رفقه وهوادته فذلك إذن موطن الإجماع ، وإذا صلب غيره واجتمعت كلمتهم على الصلابة ولم يبق من يلين في الأمر سواه فصلابتهم أقمن إذن أن تنعطف بلينه إلى الإجماع الذى لاشذوذ فيه .

فالنبي عليه السلام قد حسب للعواقب كل حساب ، وقد نظر في استخلافه إلى كل اعتبار ، وقد وازن بين أمور كثيرة ولم يوازن بين صاحبين ليس بينهما محل للتنافس والملاحاة .

ومما نظر إليه عليه السلام أن عمر أصغر من أبي بكر بعشر سنوات أو نحو ذلك . فدور أبي بكر لايحجب دور عمر ، وإذا انتفع الإسلام بمزايا أبي بكر في حينها الذى هو أحوج إليها فسينتفع الإسلام بمزايا عمر في الحين الذى يتولاه فيه ، يوم تغنى الصلابة في مدافعة الأعداء ما أغناه الرفق في تأليف الأوداء .

ولا يحسبن قارئ هنا أيضاً أننا نستخلص النتائج من التاريخ وندرك ما كان بعد أن كان ؛ فالواقع المنصوص عليه أن الذى رأيناه بعد وقوعه قد كان منظوراً إليه قبل أن ينكشف عنه الغيب ، وقد نظر إليه النبي عليه السلام فقال : « أريت في المنام أني أنزع

بدلو بكرة على قليب فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعا ضعيفاً ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا فلم أر عبقريا يفرى فريّه حتى روى الناس وضربوا بعطن[١] »

ولم يخف معنى هذه الرؤيا على معبريها لأنها لا تحتمل غير تعبير واحد ، وهو الذى أشار إليه الشافعى رحمه الله ففسر ضعف النزع بقصر المدّة وعجلة الموت والاشتغال بحرب أهل الردة عن « الافتتاح والازدياد الذى بلغه عمر فى طول مدّته »

* * *

ويجوز أن النبى عليه السلام قد أدخل فى حسابه تقديرات أخرى من هذا القبيل لا يحيط بها أبناء عصره ولا نراها نحن فى عصرنا . فلهذه المسائل فى جميع العصور نواحيها الموضعية ونواحيها الخاصة التى لا يدركها كل من عاش بينها ولا يتأتى نقلها بالكتابة والتدوين . ومتى كانت هذه هى التقديرات التى فصلت فى مسألة الترشيح للخلافة فأى غضاضة فيها على عمر ... ؟ إنها شىء لا يتناوله وحده وليست لكفاءة أبى بكر ولا لكفاءته هو كل اليد فيه ، وإن الذى حدث لا يعدو أن يكون موازنة بين أحوال ثم تقديماً للصالح فى تلك الأحوال ، أو هو تأخير موعد ومناسبة

(١) القليب : البئر ، والذنوب : الدلو المملوءة ، والعطن : مبرك الابل حول الماء

وليس بتأخير حق وكفاءة ، فأبو بكر كفؤ للخلافة وعمر كفؤ للخلافة ، ولكن تقديم أبى بكر أصلح وأولى وأوفق لأحوال الزمن ولكرامة الصحابة والمسلمين أجمعين .

وإنك لتكون على ثقة من حقيقة واحدة فى رهط محمد تجزم بها وأنت آمن أن تخالف التاريخ فيما بطن وفيما ظهر ... وذلك أنه عليه السلام لم يبرم قط أمراً فيه غضاضة على أحد من أصحابه ، ولا سيما فى مسألة الاستخلاف أو التقديم للإمامة والصلاة بالناس ، فكل الذى حدث فيها فهو الذى يجمل بالنبى من تقدير وتدبير ، ويجمل بصاحبيه من إيثار وتوقير . ويجمل بالإسلام من تمكين وتعمير ، وانتفاع بعمل كل عامل . واقتدار كل قدير .

* * *

بقى جانب من جوانب العلاقة بين النبى وعمر لا يسكت عنه لكثرة ما قيل فيه ، فضلا عن وجوب النظر فيه لأنه يتمم العلم بتلك العلاقة ويزيدنا فهما لها واستقصاء لمداها واطلاعا على طريقة عمر فى الموازنة بين الواجبات والشئون حيثما اشتجرت بين يديه ، ونريد به جانب العلاقة بين عمر وآل البيت وبين عمر وابنى عم النبى الكبيرين علىّ وابن عباس بعد انتقال النبى إلى الرفيق الأعلى .

فالذين أولعوا فى التاريخ بخلق القضايا والمخاصمات يقولون كثيراً

فى هذه العلاقة ويمثلون عمر على صورة الرجل الذى كان يتحدى بنى هاشم ويناجزهم مناجزةً لعصبية فيه عليهم ، ولكنهم لا يذكرون من الوقائع مايعزز شبهة أو يرجح بظن فى هذه الوجهة . وكل ماحفظته لنا أنباء العصر فإنما تخلص بنا إلى الخلاصة التى تجمل بعمر وتحمد منه . وهى الوفاء المحض لذكرى النبى عليه السلام فى آله وخاصة بيته ، والأمانة المحض لمصلحة العرب والإسلام مقدمة على كل مصلحة خاصة أو عامة ، وكل ماعدا ذلك لغو وباطل .

فعند تقسيم الأعطية كان لآل النبى النصيب الأوفى والمكان المقدم بين الصحابة ، وكان لهم التفضيل فى كل حق من حقوق المسلمين حسبما كان بينهم وبينه عليه السلام من رحم وقرابة ، وفضلهم عمر على أقرب الناس إليه فى اللقاء والحفاوة ، فكان فى بعض الأيام ينتظر الحسين بن على رضى الله عنه فذهب إليه الحسين فلقى عبد الله بن عمر فى الطريق فسأله : من أين جئت ؟ قال : استأذنت على عمر فلم يأذن لى . فرجع الحسين ولم يذهب إليه ... ثم لقيه عمر معاتباً وسأله : مامنعك ياحسين أن تأتينى ؟ قال : قد أتيتك ولكن أخبرنى عبد الله بن عمر أنه لم يؤذن له عليك فرجعت ... فعز ذلك على عمر وقال له : وأنت عندى مثله ! وأنت عندى مثله ؟ وهل أنبت الشعر على الرأس غيركم ؟

وكسا عمر أصحاب النبي فلم يكن فى الأكسية مايصلح للحسن والحسين رضى الله عنهما . فبعث إلى اليمن فأتى لهما بكسوة تصلح لهما وقال حين رآها : الآن طابت نفسى !

وسافر إلى الشام فاستخلف علياً رضى الله عنه على المدينة وأخذ نفسه باستفتائه والرجوع إليه فى قضائه متحرجاً من دعوته إليه حين يحتاج إلى سؤاله : استفتاه بعضهم فى مجلسه فقال : اتبعونى ، وأخذهم إلى علىّ فذكر له المسألة فقال علىّ : ألا أرسلت إلىّ ؟ قال عمر : أنا أحق بإتيانك .

وكذلك كان يستفتى ابن عباس فى الدين والأدب ولا يلقاه باحثاً مسترسلا فى الحديث إلا قال له معجباً متبسطاً : غص غواص ! وقلما سئل فى أمر وابن عباس حاضر إلا قال يشير إليه : عليكم بالخبير بها .

ولم يحجم عن توليتهم الولايات إلا كما أحجم عن تولية الجلة من الصحابة ورؤوس قريش الذين أبقاهم عنده للمشورة وصانهم عن محاسبته وعتابه . وفى ذلك يقول لابن عباس : إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وتركم ... والله ماأدرى أصرفكم عن العمل أو رفعكم عنه وأنتم أهل ذلك ؟ أم خشى أن تعاونوا لمكانكم منه فيقع العتاب عليكم ، ولا بد من عتاب ؟

أما مسألة الخلافة فالذى يزعمه فيها الذين يخوضون فى القضايا والمخاصمات أن عمر رضى الله عنه تعمد أن يحول بين علىّ والخلافة بصرفه النبى عن كتابة الكتاب الذى أراد أن يبسط فيه وصاياه فلا يضل المسلمون بعده ، ويزعمون أنه هو قد حال بين علىّ والخلافة مرة أخرى يوم تركها للشورى ولم يستخلفه باسمه لولايتها .

واستكثروا من عمر صرامته فى دعوة علىّ إلى مبايعة أبى بكر كما جاء فى بعض الروايات التى تُرجَّح صحتها ، وخلاصتها « أن عمر أتى منزل علىّ وبه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال : والله لأحرقن عليكم الدار أو لتخرجن إلى البيعة فخرج الزبير مصلتاً بالسيف فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه ... » أو قال لهما فى رواية أخرى : والله لتبايعان وأنتما طائعان أو لتبايعان وأنتما كارهان » .

فاستكثر المستكثرون هذه الصرامة وعدوها من إصرار عمر على الإجحاف بعلىّ وإقصاء بنى هاشم عن الخلافة .

أما القول بأن عمر هو الذى حال بين النبى عليه السلام والتوصية باختيار علىّ للخلافة بعده فهو قول من السخف بحيث يسىء إلى كل ذى شأن فى هذه المسألة ، ولا تقتصر مساءته على عمر ومن رأى فى المسألة مثل رأيه .

فالنبي عليه السلام لم يدع بالكتاب الذى طلبه ليوصى بخلافة عليّ أو خلافة غيره . لأن الوصية بالخلافة لاتحتاج إلى أكثر من كلمة تقال ، أو إشارة كالإشارة التى فهم المسلمون منها إيثار أبى بكر بالتقديم ، وهى إشارته إليه أن يصلى بالناس .

وقد عاش النبى بعد طلب الكتاب فلم يكرر طلبه ولم يكن بين عليّ وبين لقائه حائل ، وكانت السيدة فاطمة زوج عليّ عنده إلى أن فاضت نفسه الشريفة . فلو شاء لدعى به وعهد إليه .

وفضلا عن هذا السكوت الذى لا إكراه فيه نرجع إلى كل سابقة من سنن النبي فى تولية الولاة فنرى أنه كان يجنب آله الولاية ويمنع وراثة الأنبياء ، وهذه السنة مع هذا السكوت لايدلان على أن محمداً صلوات الله عليه أراد خلافة عليّ فحيل بينه وبين الجهر بما أراد .

ولم يعتمد عمر على الشورى فى اختيار الخليفة بعده وله مندوحة عنها . فقد رأى من أصحابه - كما قال - حرصاً سيئاً وخلافا لايحسمه رأى واحد ، وكانت حيرة عظيمة بين الاستخلاف وترك الاستخلاف ، فلما قيل له وهو طعين يودع الحياة : ماذا تقول لله عز وجل إذا لقيته ولم تستخلف على عباده ؟ أصابته كآبة . ثم نكس رأسه طويلا ثم رفع رأسه

وقال : « إن الله تعالى حافظ الدين . وأى ذلك أفعل فقد سُنّ لى . إن لم أستخلف فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف ، وإن استخلفت فقد استخلف أبو بكر » .

واختار للشورى فى أمر الخلافة أناساً ليس بين المسلمين أولى منهم بالاختيار ، وكأنهم كانوا مسمين بأسمائهم لهذه المهمة لولم يرشحهم هو لرشحهم لها كل مختار .

ولم يكن الفكاك من التبعة هو الذى أوحى إليه أن ينفض يديه ويلقى بالعبء على عواتق غيره . فعمر لا ينجو بنفسه ليوقع أحداً فيما يحاول النجاة منه ، ولكنه قدر أن الرجل الذى تختاره كثرة المحكمين هو أولى أن ينعقد عليه الإجماع وينحسم بترجيحه النزاع . فمن خرج عليه فهو باغى فتنة يتبعها الأقلون ويردعها الأكثرون .

وكان مع هذا يودّ لو اجتمع الرأى على اختيار علىّ بعد المشاورة فقال لابنه : لو ولوها الأجلح « أى المنحسر الشعر » لسلك بهم الطريق فسأله ابنه : فما يمنعك ياأمير المؤمنين أن تقدم عليا ؟ قال أكره أن أحملها حيا وميتاً .

وفيما عدا الاستخلاف بعد النبي والاستخلاف بعد عمر فالسياسة التى جرى عليها عمر كانت كلها سياسة عامة قائمة على

أساس عام لاتفرقة فيها بين بنى هاشم وغيرهم ولا بين علىّ وغيره.

فكان يكره أن تستأثر بالأمر عصبة دون غيرها بالغة مابلغت منزلتها ، ولم يكره ذلك من بيت هاشم دون سائر البيوت.

كان يحجر على وجوه قريش أن يخرجوا إلى البلدان إلا بإذن وإلى أجل ، وبلغه أنهم يشكونه فأعلن فى الناس « إن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونة على مافى أنفسهم . ألا إن فى قريش من يضمر الفرقة ويروم خلع الربقة ، أما وابن الخطاب حىّ فلا . إن أخوف ماأخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد ».

وكان يزجر قومه بنى عدى كلما أحس منهم الطمع فى خلافته لأنه واحد منهم ، فيصارحهم قائلا : « بخ بخ بنى عدى . أردتم الأكل على ظهرى ، وأن أهب حسناتى لكم ، لاوالله حتى تأتيكم الدعوة وإن أطبق عليكم الدفتر ... » أى وإن كتبتم فى الأعطية آخر الناس . وهو الذى أبى أن يختار ابنه للخلافة وقال للمغيرة بن شعبة الذى زين له استخلافه . « لاأرب لنا فى أموركم ، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من بيتى . إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شرا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد » .

وجمع عليا وعثمان فى مجلس الشورى لاختيار الخليفة فالتفت إلى علىّ فقال : « اتق الله ياعلىّ إن وليت شيئاً ،

فلا تحملن بنى هاشم على رقاب المسلمين » .

والتفت إلى عثمان فقال : « اتق الله إن وُليت شيئاً فلا تحملن بنى مُعيط على رقاب المسلمين » أو قال بنى أمية .

وكان أكبر همه أن يعصم الإسلام من الملك الذى يستأثر به مستأثر لأناس دون أناس ، وكثيراً ماسأل : والله ماأدرى أخليفة أنا أم ملك ؟ مستعيذاً بالله من كل سلطان لايعم جميع رعاياه بالخير ... وكلمته لابن عباس حيث قال : « إن الناس كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة وإن قريشاً اختارت لأنفسها فأصابت » هى كلمته حيثما تكلم فى هذا الصدد لايخص بها بيتاً دون بيت ولا معشراً دون معشر ولا قبيلة دون قبيلة . إلا الأمانة لمصلحة المسلمين جميعاً حيثما اتفقوا عليها أو كان لهم رجاء فى الاتفاق .

وما كانت لعمر صرامة مع علىّ لم تكن له مع غيره فى مأزق الخوف من الفتنة والذود عن الوحدة . فقبل أن يسلم الروح كانت وصيته وهو لايعلم من الخليفة بعده : « إن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا وأبى اثنان فاضرب رؤسهما . فإن رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر فأى

الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس » .

وما اختار ابنه عبد الله للفصل بين الفئتين المتساويتين إلا لأنه خارج من الاختيار ، ثم لم يجعل له القول الفصل حتى يفتح للناس مخرجا من رأيه إن شاءوا ألا يتبعوه .

ولن يقضى بأمثل من هذا القضاء فى مأزق الفتنة أحدٌ له قضاء عادل منزه عن خبايا القلوب .

* * *

فما اتخذ عمر من حكم بين الناس فهو الحكم الذى يحمل به ويحمد منه ولا ينتفع به قبل أن ينتفع سائر الناس : هو الحكم الذى يعم ويعدل ولا يخص ويتحيز ، وهو الحكم الذى لو سئل فيه النبي سيد بنى هاشم لأعاد فيه قوله : « عمر بن الخطاب معى حيث أحب وأنا معه حيث يحب ، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان » .

عُمَرُ والصَّحابة

بايع عمر فبطل الخلاف إلا مالا خطر فيه .

وبويع عمر فبطل الخلاف إلا مالا خطر فيه .

وقد تواترت أقوال الصحابة فى عمر بما يشيد بفضله ويشهد بقدره ويُكبر فى أعين الناس أكبرَ من تقال فيه . لأن الذين قالوها أناس لهم حلوم راجحة وألسنة صادقة وعقيدة راسخة وقلوب لاتهاب أن تقول الحق فى إنسان . ولكن الشهادتين اللتين شهد بهما الواقع أدل على قدر عمر بين الصحابة من كل ما قيل . لأن شهادة الواقع هى الشهادة التى يقولها الصادق باختياره ويحاول الكاذب أن يكذب فيها فلا يستطيع . وإنما يجوز الصدق والكذب فيما يملكه اللسان أو يملكه الشعور . أما الشهادة التى تعبر عن نفسها بلغة الواقع فهى قائمة من وراء كلام الألسنة ومن وراء هوى النفوس : إنكارها كإنكار المحسوس الذى تقع عليه الأيدى ولا تغمض عنه العيون .

وقد انتهت مسألة الخلافة بعد النبي بسلام .

ولكن انتهاءها بسلام لايعنى أنها كانت ستنتهى وحدها بسلام على أية حال ، ولا يعنى أنها انتهت لأنها من المسائل التى يؤمن فيها الخطر وتمتنع فيها الفتنة . إذ الحقيقة أن انتهاءها على هذا النحو قد كان أعجوبة من أعاجيب التاريخ ، مع ما يحيط بها من دواعى النزاع

ومن كوامن القلق والخوف على غير سابقة يستقيم بها العرف وتتضح بها معالم الطريق .

فما هو إلا أن لحق النبي بالرفيق الأعلى حتى تحفزت دواعي النزاع من كل فج ، وتكشفت كوامن القلق والخوف من كل مكمن ، وجهل أعلم الناس كيف تنجلي الغاشية ويستقر القرار .

فالأنصار يقولون إنهم أحق بالخلافة من المهاجرين ، لأنهم كثرة والمهاجرون قلة ، ولأنهم في ديارهم والمهاجرون طارئون عليهم ، ولأنهم جميعاً عرب مسلمون ولهم فضل التأييد والإيواء .

والمهاجرون على قلتهم غير متفقين على اتفاق ينعقد به الإجماع ، وحجتهم الغالبة أنهم السابقون إلى الإسلام ومنهم جلة الصحابة الأولين .

وتسايرت الأحاديث بحق آل البيت النبوي في الخلافة النبوية ، وبين آله رجلان قويان هما عليّ والعباس . لو أصغيا إلى هذه الدعوة ومضيا فيها لتمخضت عن خطب عظيم .

وكأن هذه العصبيات لم تكف دعاة الخلاف حتى جاء أبو سفيان يزيدها عصبية أخرى بالمفاخرة بين أكبر القبائل وأصغرها في قريش فدخل على عليّ والعباس يثيرهما ويعرض عليهما النجدة والمعونة ، ويهيب بعلي باسمه . ثم بالعباس باسمه : « ياعلي ! وأنت ياعباس ! ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ والله لو شئت

لأملأنها عليه - يعنى أبا بكر - خيلا ورجلا وآخذنها عليه من أقطارها » ... فيجيبه علىّ بما هو أهله : « لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا ؛ ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ماخليناه وإياها » ثم يبلغ من كرم النحيزة أن يؤنب أبا سفيان من طرف خفى على سعيه فى هذه العصبية فيقول : يا أبا سفيان ! إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض ، وإن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض ، متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم ! » .

ولم تكن هذه العصبيات كل ماهنالك من دواعى النزاع وكوامن القلق والخوف . فقد كان هنالك منافقون أسلموا وهم راغمون ، وكان هنالك ضعفاء من المسلمين يقفون على شفير من الفتنة لا يلبث أن يضطرب تحت أقدامهم حتى ينهار ، وكان هنالك أناس لا ينصرون ولا يخذلون فهم إن لم يفسدوا فى الأرض لا يصلحون .

وبين هذه المخاوف والنوازع تنتهى مسألة الخلافة بسلام فيكون انتهاؤها بسلام أعجوبة الأعاجيب . وتبحث عن سر هذه الأعجوبة أو عن سرها الأكبر فيغنيك فيها أن تذكر اسماً واحداً هو اسم عمر بن الخطاب ... إلى أين كانت تلك الفتنة ذاهبة لو لم يقف فى وجهها عمر وقفته المرهوبة يوم السقيفة ؟

سؤال يدلك على سر تلك العجيبة قبل كل جواب . فما عُرف

رأى عمر فى البيعة حتى بطل الخلاف إلا مالا خطر له . واطمأن من يوافق ، وعلم من يخالف أن خلافه لا ينفعه ، واجتمعت كلمة على مبايعة أبى بكر أوشكت أن تكون كلمات .

قال أبو بكر لعمر : ابسط يدك نبايع لك .

قال عمر : أنت أفضل منى .

قال أبو بكر : أنت أقوى منى .

قال عمر : إن قوتى لك مع فضلك . لا ينبغى لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون فوقك ياأبا بكر . أنت صاحب الغار مع رسول الله ، وثانى اثنين ، وأمرك رسول الله حين اشتكى فصليت بالناس ، فأنت أحق الناس بهذا الأمر .

ووثب عمر فأخذ بيد أبى بكر . فتواثب الجمع من علية الصحابة يبتدرون البيعة ، ثم كان الغد فجلس أبو بكر على المنبر وتكلم عمر بين يديه يقول للناس : « إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وأولى الناس بأموركم ، فقوموا فبايعوا » ...

فكانت البيعة العامة ، وتركت شجرة الخلاف لجفاف ، فإن لم تذبل لساعتها فهى وشيكةُ ذبول .

بايع عمر فقطعت جهيزة قول كل خطيب .

وذلك قدر عمر عند الصحابة ، وقدره عند أبى بكر ، وقدره عند الله ، تغنى شهادة السرائر فيه عن شهادة كل كلام .

وفى تلك الكلمات الموجزات التى تبادلها الصديقان العظيمان خلاصة نقد الناقدين وبحث الباحثين وحكم التاريخ فى أبى بكر وعمر ، وفى موقف الخلافة من بدايته إلى منتهاه .

قال عمر : إنك أفضل منى .

وقال أبو بكر : إنك أقوى منى .

وقال عمر : إن قوتى لك مع فضلك .

صدقا غاية الصدق ، وجاملا غاية المجاملة ، وقضيا بالعدل والحكمة والإخاء ، وتركا التاريخ يقول مايقول ويسهب مايسهب ، ثم لايزيد فى فحواه كلمة على ماضمنته تلك الكلمات الموجزات .

ولقد كان من قوة عمر أنه كان يراجع أبا بكر فى خلافته حتى يرجع عن رأيه ، وكان من فضل أبى بكر أنهم يسألونه مستثيرين : والله ماندرى أأنت الخليفة أم عمر ؟ فيقول : هو لو كان شاء !

وكان فضل أبى بكر وقوة عمر جمعاً لايشذ عنه مكابر ، ومن شذ عنه فما له من فضل ولا من قوة ينفعانه .

بل كان الرجلان على اختلافهما فى المزاج كأنهما رجل واحد يراجع نفسه بين الرأيين المختلفين ، حتى يستقر على أحدهما فإذا هو

رأى جميعٌ لا خلاف فيه ؛ لأنهما يصدران عن عقيدة واحدة ويتجهان إلى غرض واحد . فهما غير مفترقين إلى أمد طويل .

وأُعجوبة الأعاجيب فى هذا الأمر موقف الرجلين من المشكلة الكبرى التى واجهتهما معاً بعد موت النبى بأيام قلائل وهى مشكلة الردّة ونكوص العرب عن أحكام الدين ، وحيرة الصحابة الكبار فيما يعامل به المرتدون .

وليس العجب أن يختلف أبو بكر وعمر فى مشكلة كبيرة أو صغيرة ، وإنما العجب هو نوع هذا الخلاف الذى لم يتوقعه أحد . فيخالف أبو بكر لأنه يجنح إلى الشدّة والصلابة ، ويخالف عمر لأنه يجنح إلى اللين والهوادة . ثم يلتقيان ولا يتعارضان .

فأبو بكر يأبى إلا أن يحارب الذين منعوا الزكاة ويقول مصرا على قوله : « والله لو منعونى عناقاً (١) لقاتلتهم على منعها » .

وعمر يقول له : « كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله ! » .

ويشارك عمر فى رأيه جلة الصحابة كأبى عبيدة الذى قال فيه النبى « إنه أمين الأمة » وسالم مولى أبى حذيفة الذى قال فيه النبى

---

(١) معزة .

« إن سالما شديد الحب لله » وأناس من هذه الطبقة فى صحابة الرسول :

ويعود أبو بكر فيقول : « إن الزكاة حق المال » وفيها نحارب بالحق . ثم يهيب بعمر : رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك ؟ أجبار فى الجاهلية وخوّار فى الإسلام ؟

فإذا بعمر يثوب إلى شدته بعد أن أفرغ أمانة الرأى كما قال : « ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر للقتال حتى عرفت أنه الحق » وما أسهل أن يُعرف الحق لمن يريد أن يراه ولا يغمض عينيه .

أرجلان هنا مختلفان أم رجل واحد ؟

قل هذا وذاك فالقولان مستويان . مادمت لا تنسى أن الرجلين المختلفين معهما العقيدة الراسخة التى لا تفارقهما ، وطالما جمعت العقيدة جيوشاً على قلب واحد ، فضلا عن رجلين .

وإنما كان يعيب عمر أن يعارض إذا كان فى المسألة وجه واحد لا يحتمل المعارضة بحال ، فأما أن يكون لها وجه آخر يبديه ويشرح حجته فالذى يعيبه ويضير الإسلام أن يكتم ذلك الوجه وأن ينطوى عليه صامتاً فى موقف البحث والمشاورة ، وهو الناصح الأمين .

ومسألة الردة قد كان لها وجه آخر غير الذى رآه أبو بكر رضى الله عنه ، وكان عمر خليقاً أن يرى ذلك الوجه الآخر لأنه

موافق لمجمل آرائه فى الحرب والسياسة . فقد كان بطيئاً إلى الحرب كما عرفنا من عادته ووصاياه ، وكان أبطأ مايكون عنها إذا نشبت بين العرب أو المسلمين ، وكان جيش الإسلام بعيداً عن المدينة فى غزوة الروم التى خرج بها أسامة بن زيد بعد قيام أبى بكر بالخلافة ، فالتريثُ إلى أن يستكمل الإسلام عدته ويسترجع الغائبين من جنده وجهٌ غير ضعيف ، أو هو فى أقل الأمر وجه لايحسن كتمانه عن الأمير المسئول .

وقد كان من عادة عمر أن يطيع صاحب التبعة متى وجبت الطاعة واستقر القرار ، فلا ضير إذاً ألا يألوه جهده معارضة حتى يتبين مذاهب الرأى على اختلافها ، ثم هو مستعد بقوته لمعاونته بأقصى مااستطاع .

ومثل هذا الرجل معارضته قوة فوق قوة وخيرٌ لاضير فيه .

وخليق بنا أن نفهمها على صوابها فى مسألة الردة فنعلم بعد النظرة الثانية أنها من دلائل قوته المعهودة وليست من فلتات الضعف فيه ، لأنه رأى الرأى فلم يحجم أن يبديه ويشرح حجته ، جريئاً فيما رآه .

وعلى هذا الدأب ظل عمر قوة لأبى بكر بموافقته ومعارضته على السواء . وأصاب فيما قال له يوم بايعه : « إن قوتى لك

مع فضلك » . فكسب الإسلام خليفتين معاً بتقديم أبى بكر للخلافة لأنهما لم يبغيا بالخلافة مأرباً غير خدمة الإسلام .

ثم بويع عمر بالخلافة فبطل الخلاف إلا مالا خطر فيه .

عرضها عليه أبو بكر فقال : لا حاجة لى فيها ؛ فقال أبو بكر « ولكن لها بك حاجة ياابن الخطاب » ... وسأل خيرة أصحابه فقال له عبد الرحمن بن عوف : هو والله أفضل من رأيك فيه ، وقال عثمان بن عفان . إن سريرته خير من علانيته ، وإنه ليس فينا مثله ، وسأل أسيد بن الحضير فقال : « اللهم أعلمه الخيرة بعدك . يرضى للرضى ويسخط للسخط والذى يُسر خير من الذى يعلن ، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه » .

وأجمع المهاجرون والأنصار على تزكية عمر وتصويب أبى بكر فى ترشيحه . ولعلهم لم يذكروا من مناقبه إلا ماهو به أعلم وأخبر ، فلم يزده ثناء المثنى علماً بصاحبه ! ولم يكن قدح القادح ليخلف رأيه فيه ؛ لأنه على عرفانه بالدنيا وعرفانه بالناس لا يجهل أن رجلا كعمر بن الخطاب فى حزمه وصدقه لن يخلو من مبغض ؛ ولن يبغضه أحد لما يعيبه ويحول بينه وبين ولاية أمر المسلمين .

قال له وهو يعرض عليه الخلافة : « ياعمر ! أبغضك مبغض وأحبك محب . وقدماً يُبغض الخير ويُحب الشر » .

وإن منهم لمن حذره شدة عمر وقالوا له : إنك كنت تأخذ على يديه ولا نطيق غلظته ، فكيف وهو خليفة ؟ وما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافه علينا » ؟

فبلغ الصبر بالرجل الصبور مداه ، وأمر من حوله أن يجلسوه فجلس فقال لمن خوفوه الله وعمر : « أبالله تخوفوننى ؟ خاف من تزود من أمركم بظلم . أقول : اللهم إنى قد استخلفت على أهلك خير أهلك ! » .

ولو شاء أبو بكر لقال إن ماخوفوه من شدة عمر لفضيلة من فضائله التى قدمته عنده على غيره . فقد خاف عليهم الفتنة ، وكان أكبر حذره أن تجىء الفتنة من أولئك الأعلام الذين يتبعهم الطغام وليس لهؤلاء غير عمر يرهبونه ويتقون الفتنة باتقائه ، فمن هنا وصاه فحذره « هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قد انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم لنفسه » وقال له : « إن لهم لحيرة عند زلة واحد منهم فإياك أن تكونه واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ماخفت الله ، ولك مستقيمين مااستقامت طريقتك » .

فالذين حذروه عمر إنما رغبوه فيه ولم يحذروه منه ، لأنه أراد لهم من يخافونه ويستقيمون معه ، فكانت سيئة عندهم

حسنة عند أبى بكر ورجاء فى صلاح أمر الأعلام والطغام .

فلما اتفق مدح المادحين ونقد الناقدين على إيثار عمر بالخلافة فرغ أبو بكر من مشورته وأبرأ إلى الله ذمّته ودعا بعثمان فأملى عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماعهد به أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها ، وأوّل عهده بالآخرة داخلا فيها ، حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب : إنى استخلفت عليكم بعدى ... » .

ثم أخذته غشية فكتب عثمان « عمر بن الخطاب » ولم يترك الكتاب خلوا من الاسم مخافة أن يذهب الموت بأبى بكر فى تلك الغشية فيلج من يلج بالخلاف ، وله شبهة يحوم عليها .

وإنه ليكتبها إذ أفاق أبو بكر فقرأ عليه ما كتب . فكبر وأدرك ماوقع فى روعه فحياه ودعا له : « جزاك الله عن الإسلام خيراً : والله إن كنت لها لأهلا » ... ثم أتم الكتاب .

ثم بويع عمر بالخلافة بإجماع لم ينعقد لخليفة قبله ولا بعده إلا أن تكون وراثة فى دولة استقرّت لها دعائم وثبتت لها أركان .

فكانت شهادة من الصحابة والمسلمين أجمعين بما هو أنطق من الألسنة والقلوب : بالبديهة التى لا تكذب فى صادق ولا كذوب .

وجائزٌ جداً أن يبدأ عمر خلافته وهذا رأى المسلمين فيه ، وأن يختمها آخر الأمر ورأيهم فيه على اختلاف ، إذ الحكم يخلق العداوات ، ويفتق أسباب التباعد فى الظنون والآراء ، ويفتن صاحبه حتى يتبدّل من حيث يريد ولا يريد . فشهادة أخرى من شهادات الواقع والبداهة أن عمر قد فارق الدنيا والمختلفون فيه ينقصون ، والمتفقون على حمده يزيدون ، ثم هم يزيدون فى حمدهم إياه وثنائهم عليه .

دخل زياد على عثمان فى خلافته بما بقى عنده لبيت المال ، فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئاً من فضة ومضى به . فبكى زياد ... قال عثمان : ما يبكيك ؟ قال : أتيت أمير المؤمنين بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهما فأمر به أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام وإن ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ ، فلم أر أحداً قال له شيئاً ... قال عثمان « إنّ عمر كان يمنع أهله وقرابته ٱبتغاء وجه الله . وإنى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله . ولن تلقى مثل عمر . لن تلقى مثل عمر . لن تلقى مثل عمر ! »

وبكى علىٌّ يوم موته فسئل فى بكائه فقال : « أبكى على موت عمر . إن موت عمر ثلمة فى الإسلام لا ترتق إلى يوم القيامة » .

وقال عبد الله بن مسعود : « كان إسلامه فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة » .

وقال معاوية يوازن بين الخلفاء : « أمّا أبو بكر فلم يُرد الدنيا ولم تُرده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها . وأمّا نحن فتمرّغنا فيها ظهراً لبطن » .

وقال عمرو بن العاص وهو يحدّث نفسه : « لله در ابن حنتمة . أي آمرئ كان ! » .

ولم يقل فيه قائل راض ولا ساخط إلا ثناء كهذا الثناء ، بعد خلافة طويلة لو خرج منها بنصف الثناء لأربى على الأمل في إنصاف بنى الإنسان .

* * *

ورعى عمر قدر الصحابة والتابعين كما رعوا قدره ... إلا أنه كان مفضلا فى هذا كما كان مفضلا فى جميع محامده وحسناته ، فإنه رعى أقدارهم وهو مستطيع ألا يرعاها ، وقليل منهم من كان قادراً أن يعمل معه غير ما عمل ، ويقول فيه غير ما قال .

جمع منهم مجلس المشورة لا يبرم أمراً ولا ينقضه إلا بعد مذاكرتهم والآستئناس بنصيحتهم وسابق علمهم من مأثورات النبي وأحاديثه .

وارتفع بهم أن يكونوا أتباعا له فجنبهم ولاية الأعمال قائلا لمن راجعه فى ذلك « أكره أن أدنسهم بالعمل » فسبق الدساتير العصرية بحسن تقسيمه وصادق حدسه وتدبيره : هم مجلس الأمة وليس لأحد من مجلس الأمة أن يلى عملا من أعمال الحكومة ، فهما فى الدولة وظيفتان لا تجتمعان .

وقدم صغارهم على أعظم العظماء من رؤس القبائل وقروم الجزيرة العربية . فحضر بابه سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب فى جمع من السادة ينقطع ندهم بين الكابرين ، وحضره معهم صهيب وبلال وهما موليان فقيران ، ولكنهما شهدا بدراً وصحبا رسول الله . فأذن لهما قبل علية القوم ! وغضب أبو سفيان فقال لصاحبه : لم أر كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ؟ أما صاحبه فكان حكيما فقال : أيها القوم ! إنى والله أرى الذى فى وجوهكم ... إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم . دُعى القوم - إلى الإسلام - ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟ » .

ولو غير عمر لما تقدم عنده صهيب وبلال . ولا أمن أن يغضب عليه أبو سفيان وسهيل .

لكنه الحق فوق كل قدر عند هذا القسطاس الذى يعطى كل ذى

قدر قدره حيث ينبغى له من تقديم وتأخير . فيقدم من يقدمه عمله ويؤخر من يؤخره عمله ، ولا عليه من غضب الغاضبين ولوم اللائمين .

فلما ندب الناس إلى غزو العراق فبادر إليه أبو عبيد بن مسعود وتخلف من حضر الدعوة من الصحابة ولاه قيادتهم وأبى أن يوليها رجلا من السابقين من المهاجرين والأنصار . وأجاب من راجعوه قائلا : لا والله ! لا أفعل . إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو . فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرئاسة منكم مَن سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء . والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً » .

ثم دعا معه ابن عبيد وسليطا بن قيس فأبلغهما « إنكما لو سبقتما لوليتكما ... » والتفت إلى أمير الجيش الذى اختاره فقال له : « اسمع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ، فإنها الحرب » .

هذا ما استحقوه . فلا رجحان لهم إلا بالحق ولا رجحان عليهم إلا للحق .

ومن الحق الذى له الرجحان عليهم حق الأمة جمعاء وحق الأمان الذى يعم الدولة ويوطد أركانها . فإذا خيف على الدولة من بعضهم فأمان الدولة مفضل عليهم ، وحقها الأكبر مقدم

على الكبير من حقوقهم. فربما حبسهم فى المدينة لايسافرون منها إلا بإذنٍ وإلى أجل، مخافةً منهم على الناس ومخافة عليهم من الناس. ويستأذنه أحدهم فى غزو الروم والفرس محتجاً بسابق بلائه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيتخذ من سابق هذا البلاء حجة عليه يذوده بها عن السفر، ويقول له: «إن لك فى غزوك مع رسول الله ما يكفيك ويبلغك، وبحسبك، وهو خير لك من الغزو اليوم، وإن خيراً لك ألّا ترى الدنيا ولا تراك».

* * *

على هذا الوجه وحده ينبغى أن نفهم كل علاقة كانت بين عمر وبين أحد من أكابر الصحابة والتابعين، فهو القسطاس الذى لايجور، وكأنه لايعرف الجور لوشاء.

بل على هذا الوجه وحده نفهم كل علاقة بينه وبين أحد من عامة المسلمين. فلكل رجل حقه ولكل عمل حقه، ولا ضير على أحد أن يتأخر قدره ويتقدم عمله، ولا ينفع أحداً أن يتقدم قدره ويتأخر عمله. فكل عمل وله حساب، وكل قدر وله كرامة، وأكبر الصحابة خليق أن ينزل منزلة المرءوسين لمن سبقهم إلى العمل النافع. وأصغر الناس خليق أن ينال جزاءه الحسن إذا استحقه، وكل قسطاس غير هذا القسطاس فإنما يقارفه الحاكم لظلم أو لخوف،

وليس لهذا ولا ذاك سبيل إلى عمر . لأنه عادل ، ولأنه لا يخاف ، وإذا وقع مايخافه غيره فهو ضليع بالتبعات .

على هذا الوجه وحده ينبغي أن نلتمس التأويل فى محاسبات عمر ومعاملاته إذا وقع منها مايحتاج إلى تأويل ، وقلّ فى محاسبات عمر ومعاملاته ما يحتاج إليه ؛ لأنه كان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره . وحسابُه لنفسه أعسر من حسابه للآخرين .

ففى جميع محاسباته للقادة والولاة من كبار الصحابة لم توضع مسألة فى موضع التأويل الكثير والمناقشة الحادمة كما وضعت مسألة خالد بن الوليد رضى الله عنه .

ولا يُعقل أن تكون هذه المسألة شذوذاً عن خطته مع جميع القادة والولاة ، لأن الذى صنعه فيها عمر هو الذى كان منتظراً أن يصنعه ، سواء كان القائد خالداً أو كان رجلا غيره ... وهذا الذى ينفى الشذوذ والحيف ، أو ينفى المعاملة الخاصة التى تكيل للناس بكيلين وتزن لهم بميزانين ، وتنظر إليهم بنظرين مختلفين .

عزل عمر خالداً وهو سيف الإسلام وبطل الجزيرة والشام وإذا كان لابد لخالد بن الوليد من عازل أو قاض عادل فلن يكون عازله وقاضيه غير عمر بن الخطاب ... هو على قدر عزله بلا مراء ، وهو قدر كبير .

فقال أُناس إنها منافسة الند للند والشبيه للشبيه ، وقال أناس عزله لغير خطإ أتاه ، وقال أناس إنها ترة قديمة ولولاها لما كان الخطأ الجديد بمستوجب عزله ، وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده .

والذين ظنوا هذه الظنون لهم شبهات من ظواهر الأمور تخيلها لهم وتقربها إلى حدسهم ، لأن المشابهة بين عمر وخالد كانت مشابهة خلق وخلق توحى الظن بالتنافس والملاحاة ، وكانت مشابهة خالد لعمر فى خلقته تلتبس على بعض الناس فيكلمون عمر وهم يحسبونه خالد بن الوليد .

فمن شاء أن يخبط بالظن فله أن يحسب أن عمر قد عزله لغير سبب يستوجب عزله ، لأن عمر نفسه قد صان على القائد الكبير كرامته وأمسك عن الخوض فى أمر عزله بعد الفراغ من ضجته الأولى ، وكتب إلى الأمصار يبرئه من الخيانة ويعلنهم « أنه لم يعزله لسخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به » ... قال : « فخشيت أن يوكلوا به ويبتلوا ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » .

ولما سأله خالد فى ذلك قال له « إن الناس افتتنوا بك فخفت أن تفتتن بالناس » .

فمن شاء أن يخبط بالظن هنا فقد يخبط ما شاء وله شبهة فيه ،

ولكنه لايرجع إلى الوقائع من قديمها وحديثها حتى تسقط شبهاته بين يديه . ويوقن أن عمر لم يحاسب خالداً بميزان غير الذى حاسب به جميع القادة والولاة ، وأن المدهش الحق أن يبقيه فى الولاية والقيادة بعد ما أخذه عليه ، لأنه حينئذ يكون قد وزن بميزانين وكال بكيلين .

والذى أخذه عمر على خالد يرجع بعضه إلى أيام النبى عليه السلام ، وبعضه إلى أيام أبى بكر رضى الله عنه ، وبعضه إلى أيامه ، وكله مما يصح أن يؤخذ به فى موقف الحساب ، وإن كان الذى حدث فى أيام عمر وحدها كافياً لما قضاه فى أمره .

ففى فتح مكة نهى رسول الله خالداً عن القتل والقتال وقال له وللزبير « لاتقاتلا إلا من قاتلكما » . ولكن خالداً قاتل وقتل نيفاً وعشرين من قريش وأربعة نفر من هذيل ، فدخل رسول الله مكة فرأى امرأة مقتولة فسأل حنظلة الكاتب : من قتلها ؟ قال : خالد بن الوليد . فأمره أن يدرك خالداً فينهاه أن يقتل امرأة أو وليداً أو عسيفاً - أى أجيراً - وبعث إليه من يسأله : ماحملك على القتال ؟ فاعتذر بخطإ الرسول فى تبليغه . وشهد الرسول على نفسه بالخطإ فكفّ عنه .

ثم بعث رسول الله خالداً إلى بنى جذيمة داعياً إلى الإسلام

ولم يبعثه للقتال ، وأمره ألا يقاتل أحداً إن رأى مسجداً أو سمع أذاناً ، ثم وضع بنو جذيمة السلاح بعد جدال بينهم واستسلموا . فأمر بهم خالد فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم ، وأفلت من القوم غلام يقال له السميدع حتى اقتحم على رسول الله وأخبره وشكاه إليه . فسأله رسول الله : هل أنكر عليه أحد ماصنع ؟ قال : نعم . رجل أصفر ربعة ورجل أحمر طويل ... وكان عمر حاضراً فقال أنا والله يارسول الله أعرفهما . أما الأول فهو ابنى ، وأما الثانى فهو سالم مولى بنى حذيفة . وظهر بعد ذلك أن خالداً أمر كل من أسر أسيراً أن يضرب عنقه ، فأطلق عبد الله ابن عمر وسالم مولى أبى حذيفة أسيرين كانا معهما ... فرفع رسول الله يديه حين علم ذلك وقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد » ... ثم دعا على بن أبى طالب وأمره أن يقصد إلى القوم ومعه إبل وورِق ، فودى لهم الدماء وعوضهم من الأموال .

وفى عهد أبى بكر رضى الله عنه وجه خالداً إلى بعض أهل الرِّدة يدعوهم إلى أحكام الإسلام أو يقاتلهم حتى يتوبوا إليها . فعزم على المسير إلى مالك بن نويرة ولم يأمره الخليفة بالمسير إليه . وأحجم الأنصار ينتظرون أن يكتب إليهم الخليفة بما يراه ، وقال خالد : قد عهد إلىّ أن أمضى وأنا الأمير

ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة وكنت إن أعلمته فاتنى لم أعلمه ، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهدٌ إلينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ، فأنا قاصد إلى مالك ومن معى من المهاجرين والتابعين ولست أكرههم ... » .

ثم جاءته الخيل بمالك بن نويرة فى نفر من بنى ثعلبة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم يشهد قوم أنهم أذَّنوا وأقاموا وصلوا ويشهد آخرون أنه لم يكن من ذلك شىء . فلما اختلفوا فيهم أمر بحبسهم فى ليلة باردة . وأرسل فيما قيل منادياً ينادى : أدفئوا أسراكم ؛ فظن القوم أنه أراد قتلهم ... لأن إدفاء الأسرى كناية عن القتل فى لغتهم .

ويروى أن مالكا قال لخالد : ابعثنا إلى أبى بكر فيكون هو الذى يحكم فينا . فلم يجبه خالد إلى طلبته وقال له لا أقالنى الله إن أقلتك وتقدم إلى ضرار بن الأزور بضرب عنقه . وتزوج بامرأته فى الحرب وهو أمر تكرهه العرب وتعايره .

وقد بلغ الخبر عمر بن الخطاب فقال لأبى بكر : إن سيف خالد فيه رهق . فاعتذر له أبو بكر بأنه « تأول فأخطأ » وودى مالكا واستدعى خالداً إليه .

قدم خالد فدخل المسجد وعليه قباء وفى عمامته أسهم غرزها

للمباهاة فقام إليه عمر فنزعها وحطمها وقال له : قتلت امرءاً مسلماً ثم نزوت على امرأته ؟ والله لأرجمنك بأحجارك !

وكان أبو بكر رضى الله عنه همّ بعزل خالد لاستئثاره بتصريف المال الذى فى ولايته فسأل عمر : من يجزئ جزاء خالد ؟ فندب عمر نفسه ليخلفه إن لم يكن بد من ذلك ، وتجهز عمر حتى أنيخ الظهر فى الدار . لولا أن مشى أصحاب رسول الله إلى أبى بكر يوصونه أن يحتفظ بعمر لحاجته إليه ، وأن يبقى خالداً فى ولايته لحاجته إليه . فعمل بما أشاروا .

ذلك ماكان فى عهد النبى وأبى بكر . فلما بويع عمر كتب إلى خالد أن يراجعه فى حساب المال وألا يعطى شاة ولا بعيراً إلا بأمره ، فأحاله إلى ماجرى به العمل قبله . وكان قد أجاب أبا بكر بكلام مقتضب قال فيه : « إما أن تدعنى وعملى وإلا فشأنك بعملك » فلم يطقها عمر وقال : « ماصدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه » .

وقد أبرمه منه أنه وهب الشاعر الأشعث بن قيس عشرة آلاف درهم ، ونمى الأمر إليه كما كانت تنمى إليه أخبار الولاة والقواد من عيونه وأرصاده . فكتب إلى أبى عبيدة أن يحاسبه على هذه الهبة « فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بالخيانة

وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف » .

وقد أبى خالد أن يجيب فى مبدإ الأمر فاعتقله أبو عبيدة بعمامته كما أمر عمر ونزع منه قلنسوته فى موقف المحاسبة حتى قال إنها من ماله . فقومت عروضه وضم مازاد منها إلى بيت المال ، وقال له عمر يومئذ : « ياخالد ! والله إنك علىّ لكريم ، وإنك إلىّ لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء » .

ولم يعزله عمر دفعة واحدة على أثر قيامه بالخلافة كما جاء فى بعض الأخبار ، لأن اسم خالد كان بين أسماء الشهود على عهد بيت المقدس بعد فتحه ، والأرجح أن فى تاريخ القصة خطأ وقع فيه بعض المؤرخين ومنهم ابن الأثير ، فكتب عن عزل خالد فى أخبار السنة الثالثة عشرة للهجرة ثم ذكره فى أخبار السنة السابعة عشرة ، وأورد فى الموضعين أقوالا متشابهات .

* * *

تلك جملة المآخذ التى أخذها على خالد من عهد النبي عليه السلام إلى عهد خلافته ، وما من أحد يعرف عمر ثم يلوح له أنه أنكر من خالد شيئاً كان يقبله من غيره ، وأنه نصب له ميزاناً غير الموازين التى يحاسب بها القواد والولاة وكل صاحب عمل مسئول .

فرأىُ عمر فى إنكار هذه المآخذ معروف من بداية أيامه ،

والذين لزموه وتأدبوا بأدبه ينكرونها مثله ولو كانوا على البعد منه ، كما حدث من ٱبنه فى بعثة جذيمة حيث أبى على خالد بطشه بمن أوثقهم وعرضهم على السيف . ثم أنكر النبى عليه السلام ما أنكراه وٱستصوب ما ٱستصوباه .

فعمر كان يكره الإسراع إلى القتال ويوصى قواده جميعاً بالتريث فيه ، وربما نحى القائد المغوار عن القيادة وهو كفؤ لها لأنه يعجل بالقتال ، كما قال لسليط بن قيس : « لولا أنك رجل عجل فى الحرب لوليتك هذا الجيش ، والحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث » .

وكان يتحرج غاية الحرج أن يستبيح دم برىء أو مشكوك فيه ، وتقدم فى هذا الكتاب أنه لام أُناساً من أصحابه لأنهم قتلوا رجلا ٱرتد عن دينه ، وقال لهم : هلا ٱستتبتموه وحبستموه ؟ وتبين من رأيه فى أهل الردة أنه كان يؤثر الهوادة والٱستتابة على القتال . فإن كان قتال فالذى لا حيلة فيه ولا محيص عنه ، فإنكاره لمقتل مالك بن نويرة وأصحابه هو رأيه الذى لا شذوذ فيه ، ويضاف إليه إنكار البناء بامرأته ، ووقوع البناء بها فى أثناء المعركة ، وهو أمر لا ينفرد عمر بكراهته وانتقاده ، بل تكرهه العرب عامة ، مسلمين وغير مسلمين .

وكان عمر يحاسب جميع الولاة أدق حساب : يكتب عروضهم قبل ولايتهم ، ويسألهم فيما فشا من طارئ أموالهم ويأمرهم إذا عادوا إلى أهلهم أن يدخلوا المدينة نهاراً لينكشف ما عادوا به إليهم ، ويقاسمهم كل درهم يربى على المحسوب من أرزاقهم . ويجرى على هذه السنة مع كل وال وكل عامل ذى أمانة . فلم يستثن منها أحداً قط ، ولم يُعرف وال قط ، سلم من مصادرة أو حساب عسير .

فالذى صنعه مع خالد حين أنكر « سرعة هجماته وشدة صدماته » سنة عمرية لاشذوذ فيها ، والذى صنعه حين حاسبه على هباته وتوزيعاته سنة عمرية كذلك لاشذوذ فيها ، ولو أنه صنع غير هذا الصنيع لقد كان ذلك هو الشذوذ المستغرب الذى لايقع من عمر بن الخطاب خاصة . لأنه لايحابى ولا يفرّق فى المعاملة ولا يبالى غضب قائد كبير ولا وال قدير . وليس يحب أن يقال إنّ رجلا من الرجال لاغنى عنه لدولة الإسلام . فربما كان شيوع هذه العقيدة أخطر على الإسلام من عزل وال مظلوم أو ولاة مظلومين .

ولاننس الأمانة الكبرى التى هى أكبر من أمانة الرفق بالولاة والعدل فى محاسبة العمال ، ونعنى بها أمانة الدين والدولة أو مانسميه نحن فى أيامنا « بالسياسة العليا » .

وعمر لا يتركنا نفسر أعماله هنا باجتهادنا فى فهمها وتأويلها على ما نراه ، بل يصرح للناس فيها بما يغنيهم عن التفسير والتأويل .

فكان يرعى فى شئون الولاة الكبار والقواد المشهودين أمرين يجيزان له عزلهم ولو لم يقع منهم ما يوجب المؤاخذة .

أحد هذين الأمرين أن يفتتن بهم الناس فيفتتنوا هم بالناس كما قال لخالد بعد عزله . والخوف فى هذا الأمر من القائد الكفؤ أعظم من الخوف من قائد صغير لم يبل أحسن البلاء ولم تتساير بذكره الأنباء ، فليس لهذا خطر فى بقائه كخطر القائد الكبير .

وخطته هنا عامة لا يخص بها والياً دون وال ولا قائداً دون قائد . فلما عزل زياد بن أبى سفيان عن ولاية العراق سأله زياد : لم عزلتنى يا أمير المؤمنين ؟ ألعجز أم خيانة ؟ فقال له : لم أعزلك لواحدة منهما ، ولكنى كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس . وقديماً قال فيه عمر : لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه . فالحيطة منه وفاق رأيه فيه .

وقد كان من خلق عمر أن يقدم الحذر ويأخذ بالحيطة ويطيل الروية ثم يجزم بالرأى السديد فى غير إبطاء ، ولهذا كان يكره ولاية الرجل الفخور وينهى عنها فى خلافته وقبل خلافته ، فأشار على أبى بكر ألا يولى خالد بن سعيد وكلمه فى عزله لأنه رجل فخور يحمل

أمره على المغالبة والتعصب ... فعزله أبو بكر كما أشار .

فإذا اجتمع لعمر هـذا السبب من أسباب السياسة العليا إلى المـآخذ التى أنكرها على خالد فلا جناح عليه ، ولا محل للشك والظنة فى أسباب عزله .

لقد رأى زهو خالد بالنصر والغلب قبل أن يفتح الشام ويسبق بالشهرة أنداده من القوّاد : رأى ذلك يوم عاد من حرب أهل الردّة فدخل المسجد وفى عمامته السهام . ورآه يوم استقل ببيت المـال فى ولايته على عهد أبى بكر وعلى عهده ، ورآه فى أمور كان يبتدئها ولا يستأذن فيها ، ورآه مما يُحس ولا يلمس ، ومما يقدر ولا يُنتظر « فإذا أشفق أن يفتتن بالناس كما افتتنوا به فلا جناح عليه » .

وثانى الأمرين اللذين يدخلان فى تقديرات السياسة العليا ويجيزان العزل فى غير جريرة ظاهرة أن يصبح القائد ضرورة لاغنى عنها لتسيير الجيوش وفتح الفتوح وأن يُعزَى إليه النجاح فتتخاذل العزائم وتصغر أقدار القادة دونه ، وأن تعظم العقيدة فيه فتضعف العقيدة بالله . ويخسر الجيش بذلك أضعاف مايخسره بإقصاء قائده ولو لم يكن له نظير .

فإن كان له نظير كما تبين من اختيار عمر لقواده فى كل ميدان

فلا خسارة هناك . بل هو كسب العقيدة وكسب قائد جديد .
وإذا حان اليوم الذى يُنتفع فيه بالقائد المعزول فهو قمين أن ينفع مابقيت فيه بقية من صلاح وخير .

وتعويل عمر على العقيدة أمر تعزوه إلى كل شىء فتراه فيه على صواب : تعزوه إلى إيمانه بالله فهو فيه مصيب ، وتعزوه إلى حسن سياسته فهو فيه مصيب ، وتعزوه إلى تقديره للواقع فهو فيه مصيب . فكل أولئك كان خليقاً أن يرجّح كفة العقيدة عنده على كل كفة ، وأن يوجب عليه استبقاءها قبل كل استبقاء . وألا يزال بالناس يذكرهم ماذكرهم به حين كتب إلى الأمصار بعد عزله خالداً « إن الله هو الصانع وألا يكونوا بعرض فتنة » .

ولو أن رئيساً لخالد غير عمر بن الخطاب فى إيمانه المكين لما فاته أن يعلم أين كانت قوة المسلمين وبم كان انتصارهم فى جميع الميادين ، ولا فاته أن يستبقى هذه القوة بكل وسيلة وأن يفتديها بجميع مافى يديه : تلك قوة العقيدة لامراء ، إن ضاعت فلا عوض عنها ، وإن بقيت فللقادة عوض كثير .

فكيف بعمر بن الخطاب الذى يؤمن بهذا إيمان تسليم كما يفكر فيه تفكير سياسة وتدبير ؟ لئن نسى ذلك لهو الحقيق باللوم على نسيانه ، ولئن ذكره فاقتضاه ذكره أن يعزل خالداً

بغير جريرة لما كان عليه من لوم .

وهو كما رأينا لم يعزله لغير جريرة ، أو لم يكن حسابه له مختلفاً عن حسابه للقادة والولاة ... وقد كان أبو بكر نفسه - وهو من أبقى خالداً - يلمح بعض الخطر من افتتان الناس به حين قال : أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد !

ويؤكد تعويل عمر على العقيدة فى كل نجاح وإسناده كل فشل إلى ضعفها والترخص فيها أن الجيش الذى غزا مصر أبطأ فى فتحها فالتمس عمر علة ذلك فى ضعف نياتهم وكتب إليهم يقول : « عجبت لإبطائكم عن فتح مصر تقاتلونهم منذ سنتين . وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ماأحب عدوكم ، وإن الله تبارك وتعالى لاينصر قوما إلا بصدق نياتهم » .

فنظرته فى عزل خالد هى النظرة العامة التى لاتخصيص فيها لرجل ولا لمعركة ولا لمكان ، وتقديمه العقيدة على كل عدّة من عدد النصر هو الخطة التى جرى عليها فى مراقبة القادة ومراقبة الجيوش وتدبير عدد النصر وتجنيب المسلمين مآزق الخذلان ... وهل أخطأ ؟ هل كانت منه حماسة إيمان ولم تكن روية تفكير ؟ هل يرى غير هذا الرأى ناقد عسكرى من أعداء الإسلام لوبحث فى الأمر ونفذ إلى حقائق الأسباب ؟

كلا . بل هو صدق الرأى وصدق الإيمان معاً مقترنين لايشير هذا بغير مايشير به ذاك .

ودون هذا من أسباب « السياسة العليا » يجيز لعمر مااستجازه من عزل خالد من القيادة والولاية ، ولا سيما بعد ماأخذ عليه ماأخذ وبعد ماعلم الناس أنه لايسامح أحداً فى أمثال هذه المآخذ . فما باله يسامح خالداً فيها ؟ إنه إذن لصانع النصر الذى لاغنى عنه ، وإن الخطر الأكبر الذى يخشاه لقد حق على الجند وعلى الدولة ، ولقد حق معه خطر آخر لايقلّ عنه : أن يسكن الناس إلى التفرقة فى الحساب ، وأن يألفوا مايعاب إذا عيب من الرؤس والأقطاب ، دون الأتباع والأذناب .

ومسألة أخرى يجب ألا يغفل عنها الرجل العصرى وهو ينظر فى عزل خالد للأسباب التى قدمنا أو لأى سبب غيرها ... وذلك أن حقوق الولاية فى عصرنا غير حقوق الولاية فى عصر عمر على التخصيص ، وهو العصر الذى بدأت فيه تجربة الولاية والعمالة فى دول الإسلام .

فالولاية فى عصرنا مركز يستحقه موظف الحكومة بعد مرانة طويلة ودراسة خاصة واستعداد مقصور على طائفة من المرشحين لها لم تشركهم فيه طائفة أخرى ، وكأنها صناعة العمر

التى لايحتمل عمر الإنسان تجديد صناعتين مثلها . فإذا قيل إن والياً عزل فى عصرنا فكأننا نقول إن تاجراً صودر ماله أو زارعا حيل بينه وبين زرع أرضه . ومصادرةٌ من هذا القبيل حرىّ أن تلتمس لها أسباب من قبيلها فى الرجاحة والإقناع .

غير أن الولاية فى عهد عمر لم تكن كذلك بوجه من الوجوه ، ولم يكن لصاحبها مثل هذا الحق الذى اصطلح عليه العرف وإن لم ينص عليه القانون ، وإنما كانت تجربة ارتجالية يتساوى فيها جميع الصالحين من المسلمين ، لاتنقطع بها صناعة العمر ولا سابقة الاستعداد والمرانة ، فيصح أن يعزل الوالى لأسباب أهون من تلك الأسباب التى قدمناها فى الرجاحة والإقناع ، ويصح أن يكون للعزل معنى المناوبة فى ندبة متساوية بين جميع المسلمين .

* * *

لله در « ابن حنتمة » أى رجل كان !

كلمة قالها رجل يعرف الرجال ... قالها عمرو بن العاص وكأنه لم يكن يود أن يقولها لولا أنطقه بها الإعجاب الذى لايجدى فيه كتمان .

وهى كلمة يقولها الناظر فى سيرة عمر كلما وقف من أخبارها موقف الناقد الذى يبحث عن الخطأ فيلفيه حيثما بحث عنه عسيراً

جد عسير ... أى رجل كان هذا الرجل ؟ أى عدل كان عدله ؟ أى قسطاس كان قسطاسه ؟ أى حساب كان حسابه لنفسه ؟ وأى سبيل للناقد إلى رجل كان يحاسب نفسه هذا الحساب ؟

وربما اختلفت الأمزجة أو اختلف تركيب العقول والأبدان فقلْ فى ذلك ماتشاء، وقلْ فى خلائق عمر ماتشاء ... قل هى الشدّة والصرامة ، أو قل هى الخشونة والصلابة ، أو قل هو نسيان الضعف وفرط الغيرة على الحق فى عالم تستكثر فيه مصانعة الحقوق ويستعظم فيه تكلف الصواب ... قل مابدا لك من ذلك واذهب ماشئت أن تذهب فيه ، فإنك لاتعطى المزاج حقه ولا تفرض له فرضه حتى تحار بعد ذلك فى سبب انتقاد أو علة اختلاف ، لأنه لايزاول أمراً إلا وهو صواب لامحل فيه لسوء الطوية من وجهة ذلك المزاج .

* * *

كنا نقرأ عن عزل خالد ماتتفق قراءته من هنا وهناك ، وكنا نستمع إلى الذين يردّونه إلى المنافسة والتناظر فنجيز هذا ولا نمنعه أو نرى فيه منالا من قدر عمر ومنقصة تغض من إعجابنا بمزاياه . لأنه قد يغار من خالد ويعزله لغير جريرة ويبقى له بعد ذلك قدره الجليل وأثره الضخم فى تاريخ الإنسان .

وفى عصرنا هذا رأينا أبطالا خدموا أقوامهم ثم بلغ من ضغنهم

على منافسيهم أنهم قتلوهم ولم يقنعوا بإقصائهم عن الحكم ولا بمحاسبتهم بين يدى القضاء . ثم نصب الناقدون لهم موازين النقد فأسقطوا السيئات من الحسنات وقرنوا قتل أفراد بإحياء أمة فبقى لأولئك الأبطال حقهم الخالد فى الثناء والتعظيم .

وإذا بلغ من صواب عمر أنك لاتحصى عليه خطأ غير عزله لخالد وما جرى مجراه فما أكثر هذا صواباً على الآدمى وإن كان من أعظم العظماء !

بدأنا نقرأ عن هذه القصة وفى خلدنا هذا الفرض الذى لايحملنا على استبعادها ، وعندنا أنه خطأ يذكر إلى جانب حسنات ، فلا ضير أن يكون له موضعه فى جانب تلك الحسنات .

ثم نقرأ كل ماتسنى لنا أن نقرأه فى هذه القصة فلا نزال نستبعد الخطأ ونستبعده ، ولا تزال كلمة ابن العاص تعود إلى لساننا وتعود ، حتى نطقنا بها كما هى ، وغفر الله لابن العاص .

وهكذا كنا نصنع فى كل خطأ نسب إلى عمر وتواتر على السماع دون تمحيص واستقصاء . فلا تزال بنا الوقائع حتى يثبت بطلانه من أساسه ، أو يضعف سنده ضعفاً لايبيح الاعتماد عليه ، إلا لمن يتجنى ويتمحل ذرائع النقد ودعوى التخطئة والعيب .

كلا . هذا رجل لايسهل نقده ، ولا يتأتى لإنسان أن يحاسبه

كما حاسب هو نفسه ، ولن يقع الخلاف بين المنصف وبينه إلا على أنه اختلاف فى الأمزجة وتركيب العقول والأبدان . فإذا وضع هذا موضعه من التقدير فأعسر عسير بعد ذلك أن تلومه على خطأ ، وأن تحصى عليه خطأ فيه من سوء النية نصيب .

* * *

فالذى حصل والذى كان متوقعاً حصوله ينفيان الظنة عن مروءة عمر وإنصافه فى قضية خالد بن الوليد . وقد حكم فيها بما وجب عنده ، وانتهى كل شىء بعد ذلك فى هذه القضية بانتهاء الغرض منها فى مصلحة الدولة ومصلحة السياسة العليا . إذ لاموضع فيها لحزازات النفوس وصغائر المنافسة وما تجر إليه من لغو المشاكسة وفضول الكلام .

قال لخالد : لن تعتب علىّ فى شىء بعد اليوم ، ثم أمسك عن الخوض فى قضيته إلا أن تثار فى معرض عام ، فيشير إليها حيث تثار على سبيل الاعتذار ، ويقبل ماشاء له كرم الخليقة أن يسمع من ملام الأقربين والمشايعين وإن أغلظوا فى المقال ، على ماكان له من هيبة ترد الجامح وتخيف من لايخاف .

قال من خطبته بالجابية : إنى أعتذر إليكم من عزل خالد ابن الوليد فإنى أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين

فأعطى ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان .

فتصدّى له أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وجابهه بكلام غليظ يقول منه : « والله ماأعذرت ياعمر . ولقد نزعت غلاماً استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأغمدت سيفاً سله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعت أمراً نصبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطعت رحماً وحسدت بنى العم ... » .

فما زاد عمر على أن قال وهو يعذره « إنك قريب القرابة ، حديث السنّ ، تغضب فى ابن عمك » .

ولم ينس أن يصون للرجل اسمه ومنزلته فى أمصار المسلمين ، فكتب ما ألمعنا إليه آنفاً يرحض عنه سمعة العجز والخيانة ، ويجعل العزل لفضيلة فيه لالقصور منه ، ولا لتثريب عليه .

وعلم بموته فاشتدّ حزنه عليه واسترجع مراراً ونكس رأسه وهو يكثر من الترحم عليه . ثم قال : كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقيبة .

ولم يهمه أن يذكر صوابه أو خطأه فى عزله بمقدار ماأهمه أن يعلن فضله ويذكر حسناته فقال : « قد ثلم فى الإسلام ثلمة لاترتق » . وقيل له : لم يكن هذا رأيك فيه . فلم يحجم أن يعلن قائلا : « ندمت على ماكان منى إليه » ... وقال فى غير هذا

المعرض وبلغه أنه لم يعقب من حطام الدنيا غير فرسه وغلامه وسلاحه : « رحم الله أبا سليمان . كان على غير ماظنناه به » .

وقد كان عمر ينهى عن الندب والعويل . فلما مات خالد واجتمع بنات عمه يبكينه وسئل عمر أن ينهاهن قال : « دعهن يبكين على أبى سليمان ، مالم يكن نقع أو لقلقة . على مثله تبكى البواكى » !

ودخل هشام بن البخترى فى أُناس من بنى مخزوم على عمر فاستنشده شعره فى خالد ، وقال له وقد أطال الإصغاء إليه : « قصرت فى الثناء على أبى سليمان . رحمه الله ، إن كان ليحب أن يذل الشرك وأهله ، وإن كان الشامت به لمتعرضاً لمقت الله . رحم الله أبا سليمان ! ماعند الله خير له مما كان فيه » .

ومن الحق أن يقال إن قضية خالد قد أرتنا مروءة خالد كما أرتنا مروءة عمر ، وقد عرضت لنا هذا البطل فى صفحتيه فإذا هو بطل الفؤاد فى ولايته وبعد عزله ، وفى شدته على عدوه وطاعته لأميره ... وما على مثله من ضير أن يحق عليه العزل فى ميزان عمر بن الخطاب فذاك ميزان تعلو فيه الكفة ولا يزال صاحبها راجحاً أى رجحان .

وقد استحق المجد بيقين واستحق العزل بظن ، ولولا مصلحة

أعلى من مصلحة الإبقاء على رضاه لقد كان ذلك الظن حقيقاً بالغض عنه والتجوز فيه .

وكفى بالرجلين فضلا أن يختلفا ومن وراء اختلافهما فضل يعترف به كلاهما ويعترف به كل محب وشانئ وكل منصف وجاحد ، وما نخال أن تقديرنا خالداً وتقديرنا عمر يدعونا أن ننصب الميزان فى هذه القضية من جديد . فقصارى مانغنم من ذلك أن خالداً كان جديراً بالبقاء فى منصبه ولم يكن مستحقا لعزله ، وليس ذلك بشىء إلى جانب مارأيناه حين نصب الميزان فى القضية كما نصبه خليفة الإسلام ، فقد أرانا عدلا أعظم من بطولة الأبطال . فإن أخطأ البطل - على تقدير خطئه - فالعدل أعظم منه وأحرى أن يتعقبه كأنه من أضعف الضعفاء ، وذلك ميزان أشرف لعمر ولخالد وللإسلام من كل ميزان .

ثقافة عمر

إذا تكلمنا عن ثقافة عمر بلغة العصر الحاضر جاز لنا أن نقول إنه كان رجلا وافر الحظ من ثقافة زمانه ، أنه كان أديباً مؤرخا فقيها ، مشاركا فى سائر الفنون ، مدرباً على الرياضة البدنية ، خطيباً مطبوعا على الكلام ، فليس أرجح من نصيبه فى ثقافة زمانه نصيب .

ظل فى إسلامه كما كان فى جاهليته عظيم الشغف بالشعر والأمثال والطرف الأدبية ، بل ظل كذلك بعد قيامه بالخلافة واشتغاله بجلائلها ودقائقها التى لاتدع له من وقته فراغا لغيرها ، فكان يروى الشعر ويتمثل به ويحث على روايته ويعتدّها من تمام المروءة والمعرفة كما قال لابنه عبد الرحمن « يابنىّ انسب نفسك تصل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك ، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه . ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤدّ حقا ولم يقترف أدبا » ... وقال للمسلمين عامة : ارووا الأشعار فإنها تدل على الأخلاق » .

ونظر إلى فائدته العملية كما نظر إلى متعته الأدبية ، فقال فيه إنه جذل من كلام العرب يسكن به الغيظ وتطفأ به النائرة ويبلغ به القوم فى ناديهم ويعطى به السائل .

وكانت متعته بطرائف الأدب من متع الحياة التى لا يبالى

الموت لو حرم نصيبه منها ، فكان يقول : لولا أن أسير فى سبيل الله ، وأضع جبهتى لله ، وأجالس أقواماً ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب الثمر لم أبال أن أكون قد مت .

وإذا اقترنت العبادة باستطراف الحديث المهذب عند عمر فتلك غاية ما يبلغه فضل الأدب عنده من ثناء وتقريظ .

وقد كان إعظام الرجل فى عينيه بمقدار حذقه للحديث وقدرته على الإبانة والمنطق الحصيف . فنظر يوماً إلى هرم بن قطبة ملتفا فى بت بناحية المسجد وقد عرف تقديم العرب له فى الحكم والعلم وهو ما هو من دمامة وضآلة ومنظر زرىّ ، فأحبّ أن يكشفه ويسبر حكمته ، فسأله فى علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل : أرأيت لو تنافرا إليك اليوم أيهما كنت تنفر ؟ فأجابه الرجل : يا أمير المؤمنين ! لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جذعة ، أى لأعاد الحرب فتية كما كانت ، فأثنى عليه وقال : لهذا العقل تحاكمت إليه العرب !

وجاءه وفد فيه الأحنف فتركهم جميعاً واستفتح ما عنده من الحديث فأعجبه وأعظم قدره وعقد له الرئاسة إلى أن مات .

وسرّه أن عاد العرب إلى رواية الشعر بعد أن شغلهم عنه الجهاد فى سبيل الدين : فكان يقول إن الشعر « كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب

بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته » فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقله وذهب منهم أكثره .

ومن ناحية الأدب فيه وناحية الدين معاً حثه على تعلم العربية « لأنها تثبت العقل وتزيد فى المروءة » وقد أوصى بوضع قواعد النحو لأنه قوام العربية .

ولم يزل عمر الخليفة هو عمر الأديب طوال حياته ، لم ينكر من الشعر إلا ماينكره المسئول عن دين ، ولم ينس قط أنه الأديب الحافظ الراوية إلا حيث ينبغى أن ينسى ذلك ليذكر أنه القاضى المتحرز الأمين .

فنهى عن التشبيب بالمحصنات كما نهى عن الهجاء ، وجىء له بالحطيئة متهماً بهجاء الزبرقان بن بدر حيث يقول فيه :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها　　　واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فنسى أنه الأديب الراوية ولم يذكر إلا أنه القاضى الذى يدرأ الحدود بالشبهات ولا يحكم بما يعلم دون مايعلمه أهل الصناعة ، وقال للزبرقان : ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة . ثم سأل حسان بن ثابت

فقضى بأنه هجاه وأفحش فى هجائه ، فحبسه وأنذره ونهاه أن يعود إلى مثلها ، فانتهى طوال حياة عمر ، ثم عاد إلى الهجاء بعد وفاته .

واستعداه تميم بن مقبل على النجاشى لأنه قال فى قومه بنى العجلان :

إذا الله عادى أهـــل لؤم وذلة

فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل

فذكر عمر قضاءه ولم يذكر روايته للشعر ، وقال على سنة القضاة يدفع الحدود بالشبهات : إنه دعاء والله لايعادى مسلماً .

قال تميم : فإنه يقول عنا :

قبيلته لايغدرون بذمة ولايظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليتنى من هؤلاء .

قال تميم : وإنه يقول :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم

وتأكل من عوف بن كعب بن نهشل

فقال عمر : كفى ضياعا بمن تأكل الكلاب لحمه .

قال تميم : وإنه يقول :

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر : ذلك أصفى للماء وأقل للسكاك (أى الزحام) .

قال تميم ، وإنه يقول :

وما سمى العجلان إلا لقولهم

خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كلنا عبد ، وخير القوم أنفعهم لأهله .

قال تميم ، فسله عن قوله :

أولئك أولاد الهجين وأسرة اللـــئيم ورهط العاجز المتذلل

فقال عمر : أما هـذا فلا أعذرك عليـه ، وحبس الشاعر وضربه وأنذره لئن عاد ليضاعفن له العقاب .

وقد تجوزنا فقلنا إن عمر نسى علمه بالشعر ليذكر إبراء الذمة فى القضاء . وقد حاول ذلك جهده فأفلح لو يفلح أديب فى نسيان أدبه . ولـكنه مطلب ما ٱستطيع قط ولن يستطاع . فكان عمر فى تخريجه للكلام وعلمه بمـا تنصرف إليـه معانيه أخبر بالشعر من قاض لا يفقه منه إلا ظاهر لفظه ومعناه .

* * *

ومن المشهور عن عمر أنه كان عليما بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر أنسابها كعلمه بالمتخير من شعرها والسائر من أمثالها . جنح إلى ذلك بطبعه ونقله عن أبيه ، وكثيراً ما كان يقول كما جاء فى البيان والتبيين : سمعت ذلك عن الخطاب ولم أسمع ذلك عن الخطاب .

ومن وصاياه : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أهله قال من قرية كذا » . ومنها « عليكم بطرائف الأخبار ، فإنها من علم الملوك والسادة ، وبها تنال المنزلة والحظوة عندهم » .

* * *

وفقه عمر بالشريعة التى كان مسؤلا عن نفاذها مشهور بين الفقهاء كاشتهار أدبه واطلاعه على تاريخ قومه . فكان عبد الله ابن مسعود يقول : « كان عمر أعلمنا بكتاب الله ، وأفقهنا فى دين الله » وكان إذا اختلف أحد فى قراءة الآيات قال له : اقرأها كما قرأها عمر ، وأطنب فقال : « لو أن علم عمر بن الخطاب فى كفة ميزان ووضع علم الأرض فى كفة لرجح علم عمر بعلمهم » ولقد كانوا يروون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم ... وقال ابن سيرين « إذا رأيت الرجل يزعم أنه أعلم من عمر فشك فى دينه » وكل ما فسر به آى القرآن فى معرض الحكم والعظة فهو التفسير الراجح فى وزن العقل والدين ، وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة فهو الحكم الواضح الصحيح .

ونصائحه للعلماء والمتعلمين نصائح عالم يعرف ماهو العلم وماذا يجمل بالعلماء فى طلبه ، فكان يقول : تعلموا العلم وتعلموا للعلم

السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه وتواضعوا لمن تعلّمون ، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم » وكان يوصى طلابه « أن يكونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم ، ويسألوا الله رزق يوم بيوم ، ولا يضيرهم ألا يكثر لهم » ولا يزال يذكرهم أن التفقه مقدم على السيادة « فتفقهوا قبل أن تسودوا » .

ولم يقصر نصائحه على علم الدين وحده ولا علم الأدب واللغة وحده ، بل تناول كل ما عرف به من معارف زمانه فقال : « تعلموا من النجوم مايدلكم على سبيلكم فى البر والبحر ولا تزيدوا عليه » .

ولا شك أن نصائحه العملية فى طلب العلم كانت أغلب من نصائحه النظرية فيه . شأنه فى ذلك شأن رجل الدولة الذى يعلّم الناس ماينفعهم ويصلح معاشهم ويهذب أخلاقهم ... ولكننا مخطئون إن فهمنا من هذا القول الذى رويناه فى علم النجوم أنه كان يكره الزيادة الحديثة فيه كما عرفناها نحن فى أيامنا ، فإنما الزيادة التى كرهها هى تلك الزيادة التى كانت على عهده تخوض فى التنجيم وتربط أقدار الناس بالكواكب وتجعل منها أرباباً تُعبد وأرصاداً تؤتمن على أسرار الغيب . وذلك ما ننهى عنه الآن ونعد النهى عنه من تحقيق العلم الصحيح .

ولم يفته الحرص على المعرفة التى تخترع منها منافع للناس فى أمر المعاش . فطلب إلى أبى لؤلؤة غلام المغيرة أن ينجز مادعاه من اختراع طاحون تدار بالهواء ، وهو علم الصناعات كما انتهى إليه فى عصره ، لايضيره أنه قسط ضئيل ، بل حرصه عليه مع ضآلته دليل على مايلقاه منه تشجيعُ الصناعة يوم يراها جليلةً كبيرة الآثار .

على أن زبدة الثقافة كلها فى أقطاب الحكم وعظماء الأعمال إنما تتلخص فى شىء واحد هو الدراية بالناس ونفاذ البصر فى شؤون الدنيا وصدق الخبرة بدخائل النفس البشرية ، أو هو مانسميه فى أيامنا هذه بالرأى السليم والحكمة العملية ، وهو مجال كان عمر ابن الخطاب قليل النظراء فيه ، وحُفظت له كلمات فى معانيه يندر مثيلها بين كلمات الحكام ، ولا يكثر مثيلها بين كلمات الحكماء .

فأى كلمة أدل على النفس البشرية من قوله : « ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ، ولكنه الذى يعرف خير الشرين » .

وأى نفاذ فى تركيب الطبائع أمضى من نفاذه إذ يقول : « ماوجد أحد فى نفسه كبراً إلا من مهانة يجدها فى نفسه » ؟ أليس هذا بعينه هو مركب النقص الذى يلهج به علم النفس الحديث ؟

وأى رأى فى تجربة الناس أصدق من رأيه حين يقول :

« لا تعتمد على خلق رجل حتى تجربه عند الغضب ؟ أو حين أثنى بعضهم على رجل أمامه فسأله : أصحبته فى السفر ؟ أعاملته ؟ فلما أجابه نفيا قال : فأنت القائل بما لم تعلم ؟ » .

وأى فهم لمعنى الاستعداد للعمل أقرب من فهمه حين ينصح العاملين : « إذا توجه أحدكم فى الوجه ثلاث مرات فلم ير خيراً فليدعه » ؟ .

كذلك سداد جوابه حين سئل فيمن يشتهى المعصية ولا يقارفها وفيمن ينتهى عنها وهو لا يشتهيها أيهما أفضل وأجزل مثوبة عند الله ؟ فكتب فى هذا فصل الخطاب إذ قال : « إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها . أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر كريم » .

وكذلك وصيته بكتمان السر وتبيينه لحسن عقباه حين قال : « من كتم سره كان الخيار بيده » .

وكذلك وصيته فى الحب والبغض حين قال « لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفاً » .

وكذلك مخافته محنة الفراغ على الناس أشد من مخافته محنة الخمر حين قال : « أحذركم عاقبة الفراغ فإنه أجمع لأبواب المكروه من السكر » .

وكذلك وصاياه التى كانت تحفل بها كتبه إلى الولاة وخطبه فى الصلوات والأعياد كلها آيات من هذه الحكمة العلية التى هى خلاصة الثقافة المحمودة فى أقطاب الحكم خاصة ، وفى كل رجل يزاول شؤون الحياة على التعميم .

أما مشاركته فى سائر الفنون والمعارف التى كانت ميسورة على عهده فمنها المستغرب عند من يتخيل صورة عمر من جملة أخباره ، ولا يتقصى فيها إلى التفصيل .

فقليل من يتخيل أن عمر كان يعرف « جغرافية » الشرق كأحسن مايعرفها رجل فى وطنه ، ولكنه كان يعرفها حقا عن سماع وعن رؤية وعن زكانة تعين السماع والرؤية . بل كان يفرض على الولاة أن يحيطوا بعلم ما يتولونه من البلاد ويعزل من يرى فيه تقصيراً عن ذلك . فاستقدم عمار بن ياسر أمير الكوفة لما شكوه إليه وقالوا فى شكواهم إياه « إنه لايدرى علام استعمل » وجعل يسأله عن المواقع والبلدان من بلاد العرب والفرس حول الكوفة سؤال مطلع خبير ، ثم عزله لتقصيره بعد اختباره .

ومن الواجب أن نشك فى كل خبر يوهم أن عمر كان يجهل معرفة من المعارف العملية التى يحتاج إليها فى تدبير الدولة ، فلا يعقل مثلا أنه كان يجهل المعرفة العامة بالحساب وقد كان

تاجراً منذ نشأته فى الجاهلية وكان يحضر الجيوش ويعرف ماهى الألوف وماهى عشرات الألوف ، فإذا استفسر عن رقم فلن يكون إلا استفسار تجاهل واستعظام وليس بجهل وغرارة كما جاء فى أخبار الخراج من هجر والبحرين .

قال أبو هريرة مافحواه : قدمت من هجر والبحرين بخمسمائة ألف درهم : فأتيت عمر بن الخطاب ممسياً أسلمه إياه فسأل كم هو ؟ قلت خمسمائة ألف درهم ! قال : وتدرى كم خمسمائة ألف درهم ؟ ! قلت نعم : مائة ألف ومائة ألف خمس مرات ... قال : أنت ناعس ، اذهب فبت الليلة حتى تصبح !

فكل شيء يجوز أن يفهم من هذه القصة إلا أن عمر كان يجهل ذلك الرقم ولم يسمع بمثله قبل ذلك ، وهو الذى شهد الدولة وحسابها من عهد أبى بكر وأحصى الجند والمال فى عهده ... إنما هى غبطة واستعظام ، وليس هو جهلا بدلالة هذا الرقم فى جملة الحساب .

وإذا قل من يتخيل علم عمر بالجغرافية والحساب فأقل من أولئك من يتخيل له حظا من السماع والغناء ، ولكنه كان يسمع ويغنى فى بعض الأحيان ، ولا ينهى عن غناء إلا أن تكون فيه غواية تثير الشهوات . جيء له برجل يغنى فى الحج وقيل له :

إن هذا يغنى وهو محرم . فقال : دعوه فإن الغناء زاد الراكب .

وروى نائل مولى عثمان بن عفان أنه خرج فى ركب مع عمر وعثمان وابن عباس ، وكان مع نائل رهط من الشبان فيهم رباح بن المعترف الفهرى الذى كان يحدو ويجيد الحداء والغناء . فسألوه ذات ليلة أن يحدو لهم فأبى وقال مستنكراً : مع عمر ! قالوا : أَحْدُ فإن نهاك فانته . فحدا ، حتى إذا كان السحر قال له عمر : كفّ فإن هذه ساعة ذكر . ثم كانت الليلة الثانية فسألوه أن ينصب لهم نصب العرب . فأبى وأعاد استنكاره بالأمس قائلا : مع عمر ؟ ... قالوا له كما قالوا بالأمس : انصب فإن نهاك فانته . فنصب لهم نصب العرب حتى إذا كان السحر قال له عمر : كفّ فإن هذه ساعة ذكر . ثم كانت الليلة الثالثة فسألوه أن يغنيهم غناء القيان . فما هو إلا أن رفع عقيرته بغنائهن حتى نهاه وقال له : كفّ فإن هذا ينفر القلوب .

وكان يخرج للحج ومعه من يحسن الغناء فيقترح عليه أن يغنى شعراً ويؤثر أن يكون ذلك من شعره .

خرج مرة للحج ومعه خَوات بن جبير وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف فاقترحوا على خوات أن يغنيهم من شعر ضرار ، وقال عمر : بل دعوا أبا عبد الله فليغن

من بقيات فؤاده . فما زال يغنيهم حتى كان السحر فهتف به عمر : ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا .

وجاءه قوم فذكروا أنّ إمامهم يصلى بهم العصر ثم يتغنى بأبيات من الشعر ، فقام معهم إليه واستخرجه من منزله وسأله فيما بلغه عنه ، واستنشده الأبيات التى يغنيها ، فأنشده :

وفؤادى كلما نبهته عاد فى اللذات يبغى تعبى
لا أراه الدهر إلا لاهيا فى تماديه فقد برّح بى
يا قرين السوء ما هذا الصبا فى العمر كذا باللعب
وشباب بان منى فمضى قبل أن أقضىَ منه أربى
نفس لا كنتِ ولا كان الهوى اتقى المولى وخافى وارهبي

فأعاد البيت الأخير ، وقال لمن شكوا إليه : من كان منكم مغنياً فليغنّ هكذا .

وكان مرة فى سفر فرفع عقيرته بالغناء وأنشد :

وما حملت من ناقة فوق رحلها أبرّ وأوفى ذمّة من محمد

فاجتمع الركب إليه ، فقرأ فتفرّقوا . فعل ذلك وفعلوه مرات ، فصاح بهم : « يا بنى المتكاء ! إذا أخذت فى مزامير الشيطان اجتمعتم ، وإذا أخذت فى كتاب الله تفرقتم ؟ ... » لا يلومهم على الغناء وسماعه ، إنما يلومهم أن يؤثروه على سماع القرآن مرات .

ولا شك أن الشغف بالشعر الجزل والحديث الرائق والصوت الحسن لا يجتمع فى نفس إلا اجتمع معه ذوق للجمال وسرور بكل حسن جميل . ولكن أين يقع هذا من صرامة عمر وبأسه وشدة حجره على زينة الحسان ؟ فقد دخل فى روع أناس أنها جميعاً من نقائض حب الجمال ، وقد سمعنا هذا فعلا من أدباء يجلون عمر ولا يحسبون ذوق الجمال من مأثور حسناته ، لأنه كان شديداً فى الحجاب وكان ينفى الفتيان الحسان كما صنع بنصر بن حجاج ومعقل ابن سنان ، وكان يقول : « استعينوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر »

وعندنا نحن أن هذا جميعه ينم على الإحساس بخطر الجمال وطغيان فتنته ولا ينم على غفلة عنه وقلة مبالاة بأثره . وما نخال أحداً من المترخصين فى الحجاب كان يؤمن بسلطان الجمال أبلغ من إيمان عمر بسلطانه ، أو كان يعرف حق المرأة فى الشوق إليه كما عرفه عمر وأمر برعايته ، فإنه كان ينكر على الآباء أن يكرهن فتياتهم على قباح الوجوه ويوصيهم : « ألا تكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح فإنهن يحببن ما تحبون » وجاءت له امرأة بزوج أشعث أغبر تسأله الخلاص منه ، فأمر به أن يحم وأن تقلم أظفاره ويؤخذ من شعره ، ثم قال له ولمن فى مجلسه : « هكذا فاصنعوا

لهن فوالله إنهن ليحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لكم ».

فكل ماروى عن عمر من الشدة والرفق فى معرض الجمال فهو دليل على الإحساس به وإكبار خطره وليس بدليل على الغفلة عنه واستصغار أثره ، وربما كانت الشدة والحجر أدل على ذلك من الرفق والمحاسنة .

* * *

ومن الآداب العامة التى لها حظ من ذوق الجمال فى معارض السياسة أدب الذكريات الذى لايستغنى عنه ولاة الأمر الموكلون بإحياء معالم الدول والاحتفال بمراسمها وأعيادها .

فى هذا الأدب كان لعمر النصيب الذى يغنيه . فهو الذى اختار أو وافق على اختيار يوم الهجرة بداية للتاريخ الإسلامى . وإنه لأصلح يوم يؤرخ به الإسلام لأن العقائد كما قلنا فى « عبقرية محمد » تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب ، وكل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة . أما النفس التى تعتقد حقا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقا فهى النفس التى تؤمن فى الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء » .

وكلما اقترح على عمر اقتراحٌ فيه نفحة من ذوق الذكرى كان مجيباً له سريع الإصغاء إليه . فكان يحترم وفاء بلال وإقلاعه

عن الأذان بعد وفاة النبي عليه السلام . ولكنه دعاه إلى الأذان تلبيةً لاقتراح الجلة من الصحابة فى يوم وداع دمشق بعد الفتح المبين . فبينما المسلمون يشهدون الصلاة الجامعة إذا بالصوت الذى انقطع بعد النبي يرتفع رويداً رويداً فى الفضاء ويسرى رويداً رويداً من الأسماع إلى الصدور . والتفتوا وكأنهم يسألون : ماذا ؟ هل عاد محمد إلى الأرض ؟ إن لم يكن قد عاد فقد عاد الحنين إليه أقوى ماينبعث من صوت إنسان إلى صدر إنسان ... فذابت قلوب لايذيبها الهول ، وبكى أشيب أولئك الأبطال وأصبرهم على حرّ القتال .

* * *

وإذا كان عمر المعجب بالجمال مستكنا وراء ستار يحوجنا إلى النظر من ورائه فعمر الرياضى المشغول بالرياضة البدنية ظاهر لنا بعمله وقوله ، وبسيرته فى الجاهلية وسيرته بعد الإسلام ، وسيرته بعد الخلافة إلى أن فارق الحياة .

فكان يصارع فى المواسم ويسابق على الخيل ، وكان ينوط مجد العرب بالرياضة والفروسية ويكتب إلى الأمصار أن « علموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ماسار من المثل وحُسن من الشعر » ولا يفتأ يذكرهم أنه : « لن تخور قوى مادام صاحبها

ينزع وينزو » أى يرمى بالقوس ويركب ظهور الخيل بغير ركاب .

* * *

أما الخطابة فقد كانت فيه من صفات البنية ولم تكن من صفات الذهن وكفى ، فكان له فم يمتلئ بالكلام حين يخطب كأنه خلق ليقول ، ولوحظ عليه أنه كان ينطق ببعض الحروف - كالصاد - من كلا شدقيه وهى تنطق فى الأغلب من شدق واحد .

وكان جهورى الصوت واضح النطق سليم الشفتين فى إخراج الحروف ، وكتابته كلها كأنها خطب مرتجلات تقرأها فكأنك تصغى إلى خطيب لا تفقد منه إلا الصوت المسموع .

ولانطباعه على الكلام الذى لا تصنُّع فيه كان يستسهل كلّ كلام يوافق طبعه ولا يستصعب من الخطب إلا الذى يغير من نظرته إلى الناس ويلجئه إلى المداراة والباطل . فكان يقول « مايتصعدنى كلام كما تصعدنى خطب النكاح » والتمس ابن المقفع علة ذلك فقال : ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه ونظر الحداق من قرب فى أجواف الحداق ، ولأنه إذا كان جالساً معهم كانوا أكفاءهم نظراء وأكفاء ، وإذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية » والتمس الجاحظ علة ذلك فروى عن أناس أنهم رجعوا باستصعاب عمر لخطب النكاح إلى « أن الخطيب لا يجد بدا من تزكية الخاطب .

فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زوراً وغر القوم من صاحبه ، وكلا القولين جائز فى بيان وجه المخالفة بين طبع عمر والتكلم فى محافل النكاح . فهو مطبوع على أن يتكلم إلى الناس كلام رجل يقود الرجال ، ومطبوع على الصدق الذى تثقل على صاحبه المداهنة ، وهى مما لا غنى عنه فى هذا المقام ، ولو كان الخاطب من الأكفاء .

وقد اختلفوا فى نظمه الشعر فزعم الشعبى أنه كان شاعراً ورويت أشعار لا تشبهه ولا ترضيه ، ونفى هو نظمه للشعر حين قال : « لو كنت أقول الشعر لرثيت أخى زيداً » .

ولا طائل فى هذا الخلاف لأنه لن ينتهى إلى رأى قاطع يسكت عليه ، ولكنما المهم فى هذا الصدد أنه كان مطبوعاً على التعبير وله عبقرية فيه ؛ أو أن تعبيره كان خاصاً به لا يشبهه تعبير سواه ، فهو تعبير عمرى بمفرداته وتركيبه لا يلتبس بتعبير أحد من أهل عصره حتى لا يسهل تمييز كلامه من كل كلام ، ويصعب تزوير القول عليه ولو أحكمت المحاكاة .

فمن خصوصياته فى التعبير أنه كان يقول « لولا الخلّيفى لأذنت » وهو يعنى الخلافة ولا يقصد الإغراب .

ومنها وهو ينقل خبر إسلامه إلى خاله : « وجئت إلى خالى

فأعلمته فدخل إلى البيت وأجاف الباب » أى أوصده .

ومنها وهو يصف ماوقع فى نفسه من الآية التى تلاها أبو بكر رضى الله عنه حين أنكر موت النبى فقال : « والله ماهو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلنى رجلاى » يعنى أنه عجز عن القيام .

ومنها فى الكتابة والقراءة ينهى عن العجلة فيها : « شر الكتابة المشق وشر القراءة الهذرمة ! وأجود الخط أبينه » .

ومنها وهو يذكر امرأة كانت تسق الناس يوم أحد : إنها « كانت تزفر للناس القرب » أى تحملها .

ومنها فى المشورة « الرأى الفرد كالخيط السحيل ، والرأيان كالخيطين المبرمين ، والثلاثة مرار لايكاد ينتقض » .

ومنها حين كتب إلى أبى عبيدة بعد ولايته الخلافة « ... ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس » .

ومنها حين شكا إليه الشاكى هجاء الشاعر الذى قال فيه :

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورّاد عن كل مورد

فقال ذلك أنفى « للسكاك » أى الزحام .

ومنها فى سماحه بالبكاء « مالم يكن نقع أو لقلقة » أى مالم يثر التراب ويفرط فى العويل ...

ومنها وقد حار بأهل الكوفة : « أعضل بى أهل الكوفة مايرضون بأمير ولا يرضاهم أمير » .

ومنها : « إن قريشاً تريد أن تكون مغويات لمال الله » أى مصائد تحتجنه لها دون عباد الله .

ومنها : « تمعددوا واخشوشنوا واقطعوا الركب وانزوا على الخيل نزواً » أى تزيوا بزى العرب من معد بن عدنان .

ومنها : « فرّقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين ، ولا تلثوا بدار معجزة » أى تقيموا .

ومنها : « فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذى بايعه تغرّة أن يقتلا » أى أن يتعرّضا للقتل .

ومنها : « ... إن الاقتصاد فى السنة خير من الاجتهاد فى الضلالة ، فافهموا ما توعظون به ، فإن الحريب من حرب فى دينه » يريد المسلوب .

ومنها وقد سمع بامرأة سافرة يبرزها زوجها فقال : « هذه الخارجة وهذا المرسلها لو قدرت عليهما لشتّرت بهما » أى لأغلظت القول لهما .

ومنها لما سألوه لم حصبت المسجد فقال : « هو أغفر للنخامة وألين فى الموطن » أى أستر للبصاق .

ومنها : « ثلاث من الفواقر : جار مقامة إن رأى حسنة سترها وإن رأى سيئة أذاعها ، وامرأة إن دخلت عليها لسنتك وإن غبت عنها لم تأمنها . وسلطان إن أحسنت لم يحمدك ، وإن أسأت قتلك » ولسنتك : أى تناولتك بلسانها .

ومنها وهو يخاطب سعد بن عُبادة يوم السقيفة : « لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك » أى تسقط .

ومنها وهو يتكلم عن امرئ القيس : « خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصحّ بصر » أى استنبط عين الشعر وشق طريق المعانى وأتى بالشوارد الحسان .

ومنها وهو يتكلم عن نصيب المسلمين فى الغنائم وبيت المال : « والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمرّ وجهه » أى قبل أن يخجل ويحمرّ وجهه فى طلبه .

ومنها قوله لأعرابى استفتاه فى صيد ظبى وهو محرم : « أتقتل فى الحرم وتغمص الفتيا ! » أى تعيبها ولا ترضاها !

* * *

وأشباه هذا كثير لا تخلو منه خطبة أو حديث أو كتاب ، تعمدنا أن نكثر شواهده لنرى أنه ليس بالمصادفة وليس بالتكرير لنمط واحد من العبارات .

ويلحق بهذا تسمية مواليه بين أسبق وأسلم ويرفأ وفرقد وذكوان وفروخ وما شابه هذه الأسماء . وهى تسمية مفردة تكاد تقتصر عليه ، وإنما هى الطبيعة العمرية تمثلت فى صيغة الكلام وفى اختيار الأعلام ، فلا تستطيع أن تسميها إغراباً أو عسلطة أو تعملا بنحو من أنحائه ، إذ ليس وراءها قصد متفق فى جميع هذه الصيغ ، وأبينُ ما يبين فيها أنها من عفو البداهة هنا وهناك ، وأنها تترجم عن الطبيعة العمرية أصدق ترجمة وأشبهها بصاحبها ، فهى قوية خشنة مستقلة جادة خالية من الزخرف . وهكذا كان المتكلم عمر وهكذا كان كلامه الذى ينطبع عليه حين يكون منطبعاً على التعبير ، فلو أن كلمات تتمثل رجلا لتراءى لنا من مثال هذه الكلمات شخص عمر فى خلقه وخلقه كما كان .

* * *

ومُحصّل هذه الأخبار جميعاً أن عمر كان من نخبة المثقفين فى العربية ، وكان وافر السهم فى ثقافة قومه وعصره . وكان الجانب العملى من ثقافته أغلب وأظهر من جوانبها النظرية كما هو المعهود فى ساسة الأمم وعواهل الدول : وإن كان هذا لا يمنع أنه اشتاق إلى نفائس الشعر وأطايب الأدب لما يجده من راحة النفس ومتعة الخاطر .

ويستطرد بنا الكلام على ثقافته العربية إلى الكلام على موقفه من الثقافات الأخرى فى زمانه ، وعلى حقيقة الرواية التى شاعت وتواترت عن موقفه من مكتبة الإسكندرية التى قيل إنه أمر بإحراقها . فهل هو الآمر بإحراقها كما جاء فى تلك الرواية ؟ وإذا كان هو الآمر بذلك فما دلالته على تفكيره ؟ وما وجه التبعة فيه ؟ فحوى تلك الرواية أن عمرو بن العاص رفع إليه خبر المكتبة الكبرى فى الإسكندرية فجاءه الجواب منه بما نصه : « أما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها مايوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى : وإن كان فيها مايخالف كتاب الله فلا حاجة إليه ، فتقدم بإعدامها » قال مفصل هذه الرواية : فوزعت الكتب على أربعة آلاف حمام بالمدينة ومضت ستة أشهر قبل أن تستنفد لكثرتها !

وأحرى شىء أن يلاحظ فى مسألة المكتبة هذه أن الذين أدحضوها وأبرأوا عمر من تبعتها كان معظمهم من مؤرخى الأوربيين الذين لايتهمون بالتشيع للمسلمين ، وكانوا جميعاً من الثقات الذين يؤخذ بنتائج بحثهم فى هذا الموضوع .

فالمؤرخ الإنجليزى الكبير ادوارد جيبون Gibbon صاحب كتاب الدولة الرومانية فى انحدارها وسقوطها يسرد الحكاية

ويعقب عليها قائلا : « أما أنا من جانبي فإننى شديد الميل إلى إنكار الحادثة وتوابعها على السواء ؛ لأن الحادثة لعجيبة فى الحق كما يقول مؤرخها إذ يسألنا هو أن نسمع ماجرى ونعجب ! . وهذا الكلام الذى يقصه أجنبى غريب يكتب على تخوم ميدية بعد ستمائة سنة يوازنه ويرجح عليه ولا شك سكوت اثنين من المؤرخين كلاهما مسيحى وكلاهما مصرى ، وأقدمهما البطريق يوتيخيوس Eutychius الذى توسع فى الكتابة عن فتح الإسكندرية . وأن القضاء الصارم الذى نسب إلى عمر لبغيض إلى أصحاب الفهم الصحيح المستقيم من فقهاء المسلمين الذين يفتون بتحريم إحراق الكتب الدينية التى تغنم من اليهود والمسلمين فى الحرب ، وما كان من الكتب دنيويا ظنيناً سواء ألفه المؤرخون أو الشعراء أو الأطباء أو الفلاسفة فحكمهم فيه أن يستخدم على الوجه المشروع لمنفعة المؤمنين . وقد تعزى إلى متقدمى الخلفاء بعد محمد غيرة أضرى من ذلك بالهدم والإبادة . ولكن لوصح هذا لوجب أن تنفد الأوراق سريعاً لقلة المادة المحترقة ! فلا نرجع إلى نكبة المكتبة فى الحريق الذى أصابها على غير قصد بيدى قيصر وهو يدافع عن نفسه ، ولا إلى تعصب المسيحيين الأوائل الذين كانوا يدبرون الوسائل تدبيراً لتعفية

الآثار المتخلفة من أيام عبادة الأصنام ، ولكننا ننحدر شيئاً فشيئاً من عصر أنتونين إلى عصر ثيوديسيوس فنعلم من سلسلة الأنباء المعاصرة أن القصر الملكى وهيكل سرابيس لم تبق فيهما تلك الأسفار التى جمعها البطالسة وبلغت فى إحدى الروايات أربعة آلاف وفى رواية أخرى سبعة آلاف ، ولا يبعد أن تحفل الكنيسة ومعهد البطارقة بذخيرة من الأوراق والأضابير ، فإن كانت هذه هى الوقود الذى أفنته الحمامات بما كان فيها من جدل بين القائلين بتعديد الطبيعة المسيحية والقائلين بتوحيدها فقد يرى الفيلسوف وعلى فمه ابتسامة أنها كانت فى الحمامات أنفع لبنى الإنسان ! » .

والدكتور الفرد بتلر Butler المؤرخ الإنجليزى الذى أسهب فى تاريخ فتح العرب لمصر والاسكندرية يلخص الحكاية وينقضها ابتداءاً لأن حنا فلبيوتوس الذى قيل إنه خاطب عمرو ابن العاص فى أمر المكتبة لم يكن حيا فى أيام فتح العرب لمصر ... ثم ينقضها لأسباب شتى منها أن كثيراً من كتب القرن السابع كانت من الرق وهو لايصلح للوقود ، وأنها لو قضى الخليفة بإحراقها لأحرقت فى مكانها ولم يتجشموا نقلها إلى الحمامات مع مافيه من التعب ومع إمكان شرائها من الحمامات بعد ذلك بأبخس

الأثمان ، وأننا لو صرفنا النظر عن الكتب المخطوطة على الرق لما كفى الباقى من ذخائر المكتبة لوقود أربعة آلاف حمام مائة وثمانين يوماً ، وهذا عدا الشك الذى يعتور القصة من تأخر كتابتها زهاء خمسة قرون ونصف قرن بعد فتح الإسكندرية ، ثم كتابتها بعد ذلك خلوا من المصادر والإسناد ، بل هذا عدا ما قيل من احتراق المكتبة فى السنة الثامنة والأربعين للميلاد ، وفيما تلا ذلك من الفتن والقلاقل بين طوائف المسيحيين .

والمستشرق كازانوفا يسمى الحكاية أسطورة ويقول إنها نشأت بعد تاريخ الحادثة بستة قرون ، وينقضها لمثل الأسباب التى لخصناها من كتاب بتلر ، ثم يقول : « ... وهناك اعتراض أخطر مما تقدم وهو أن ما ذكر عن يحي النحوى منقول عن كتاب الفهرست لابن النديم فى أواخر القرن العاشر ، وفيه أن يحي هذا عاش حتى فتحت مصر وكان مقرباً من عمرو ولم يذكر شيئاً عن مكتبة الإسكندرية . فحادثة المكتبة إذن من أوهام ابن القفطى أخذها عن خرافة كانت شائعة فى عصره » .

ثم يمضى فى تنفيذه فيقول : وقد تساءل ابن خلدون عن مخلفات الفرس والأشوريين والبابليين والقبط التى حرقها عمر عند فتح العرب . وقال ابن خلدون فى كلام آخر : إن العرب لما

فتحوا بلاد الفرس سأل سعد بن أبى وقاص عمر عما يأمر به فى شأن الكتب التى بها فأمره بإلقائها فى اليم" فانتقلت القصة من فارس إلى الإسكندرية مع الزمن ، وفعل الخيال فعله فى تحريفها .

« وقد وقع تحريف فى هذه الخرافة فى بعض دوائر المعارف حيث نقل عن سبرنجل أن مكتبة الاسكندرية حرقها العرب عند فتح مصر وأن الخليفة المتوكل أنشأها من جديد ، وأن الترك فتحوا الإسكندرية بسنة ٨٦٨ وأضرموا فيها النار على عهد أحمد بن طولون .. ولكن أحمد بن طولون لم يفتح مصر وإنما أقامه خليفة بغداد حاكما عليها . فلا علاقة للترك إذن بهذا الحادث المزعوم » .

قال : « وفى سنة ١٨٧٧ ذكر الكونت دى لندبرج أن أحد الضباط الإنجليز اتهم نابليون الأول بإحراق مكتبة الإسكندرية » .

قال : « وسنلم هنا بالسبب الذى من أجله ظهرت هذه الخرافة فى القرن الثالث عشر ولم تظهر قبل ذلك » .

« ففى أواخر القرن الثانى عشر رجعت مصر إلى حكم خلفاء بغداد . وأبلى صلاح الدين بلاءه فى الحروب الصليبية وانتصر على المسيحيين فلقبه الشعب بفاتح مصر وقرن بين اسمه واسم عمر بن الخطاب وكان لابن القفطى أب يعجب بصلاح الدين

ولاه صلاح الدين قضاء القدس ، وعاصر عبد اللطيف البغدادى وهو من المعجبين مثله بصلاح الدين ، فتلاقيا فى القدس وسمع منه هذه الأسطورة التى توسع ابن القفطى فى نقلها . فكان أول من ألف هذه الأسطورة من حاشية صلاح الدين لتزكية حاكم مصر الجديد . ومما يروى عن صلاح الدين أنه باع كنوز القصر والمكتبة فبقيت هذه الرواية إلى القرن الثامن عشر يوشيها ماينسجه الخيال حول الخرافة العمرية . ثم اتخذت صورتها التاريخية منذ ذلك العهد تعززها خرافات أخرى لحقت بعمر ووافقت معنى قوله ألّا كتاب إلا كتاب الله ... » .

ومن المشارقة الذين تناولوا حكاية المكتبة المؤرخ الكبير جورجى زيدان فى الجزء الثالث من كتابه "تاريخ التمدن الإسلامى" حيث قال إنه كان يميل إلى نفى الحكاية ثم عدل عن ميله هذا إلى قبولها وأورد من أسباب ذلك « أن حكاية إحراق مكتبة الإسكندرية لم يختلقها أبو الفرج لتعصب دينى ولا دسها أحد بعده بل هو نقلها عن ابن القفطى وهو قاض من قضاة المسلمين عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ، وكان صدراً محتشما جمع من الكتب ما لا يوصف وكانوا يحملونها إليه

من الآفاق وكانت مكتبته تساوى خمسين ألف دينار ، ولم يكن يحب من الدنيا سواها وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب ولم يخلف ولداً فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب ، وله مؤلفات عديدة فى التاريخ والنحو واللغة وفى جملتها كتاب أخبار مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين فى ستة مجلدات وكتاب تراجم الحكماء الذى نحن فى صدده . وأن ابن القفطى وعبد اللطيف البغدادى أخذا عن مصدر ضائع . وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بد له من سبب والغالب أنهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الإسلامى واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب فاستبعدوا حدوث ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه أو لعل لذلك سبباً آخر ، وفى كل حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبى الفرج ... »

ونرى نحن أن ابن القفطى كان أولى ممن تقدموه بالسكوت عن حريق المكتبة بأمر عمر بن الخطاب لو كان الذين تقدموه قد سكتوا عنه لعرفانهم قدر الكتب وغيرتهم على سمعة الخلفاء الراشدين ، فإن ابن القفطى لا يجهل قدر الكتب ولا يسبقه سابق من المؤرخين فى المغالاة بنفاسة المكتبات . فلا بد من تعليل أصوب من هذا التعليل لسكوت المؤرخين المسلمين

والمسيحيين الذين شهدوا فتح مصر عن هـذه الحكاية ، إلى أن نجمت بعد بضعة قرون .

* * *

فمن جملة هذا العرض لآراء نخبة من الثقات فى هذه المسألة يحق لنا أن نعتقد أن كذب الحكاية أرجح من صدقها ، وأنها موضوعة فى القرن الذى كتبت فيه ولم تتصل بالأزمنة السابقة له بسند صحيح ، وربما كانت مدسوسة على الرواة المتأخرين للتشهير بالخليفة المسلم وتسجيل التعصب الذميم عليه وعلى الإسلام .

وإذا كانت هذه الحكاية من تلفيق النيات السيئة فالمعقول ألا توضع قبل القرن السادس الهجرى الذى تسربت فيـه إلى الكتب المدونة ، وهذا يفسر لنا كل غموض يستوقف النظر فى الحكاية من جميع أطرافها .

لأن تلفيق هذه الحكاية يستلزم عناصر شتى لا تجتمع كلها فى وقت واحد قبل القرن السادس للهجرة .

فهو يستلزم أن يكون الملفق عليما بالأقوال والأحوال التى أُثرت عن عمر بن الخطاب وفيها ما يجعل حكاية المكتبة قريبة التصديق مشابهة لما يتوخاه الخليفة فى أوامره ونواهيه ... ولم تكن هذه الأقوال والأحوال معلومة مستفيضة الخبر بين المسلمين

أنفسهم عند فتح الإسكندرية فضلا عن المسيحيين أو الإسرائيليين ، وإنما علمت واستفاضت بعد مادوّنت السير وجمعت المتفرقات .

ويستلزم تلفيق الحكاية ، للتشهير بالخليفة المسلم ، أن يكون الملفق عارفاً بما فى هذه التهمة من المعابة ، شاعراً بما فيها من الاعتساف والغرابة . ولم يكن هذا أيضاً مفهوماً فى أيام فتح الاسكندرية بين خصوم الإسلام ؛ لأنهم كانوا قد تعوّدوا إحراق الكتب والتماثيل واعتبار الوثنية وبقاياها رجساً من عمل الشيطان يستحق نار الدنيا قبل نار الجحيم ، وما من عارف بالكتب بينهم إلا كان يسمع بحماسة القياصرة المسيحيين فى تدمير التحف الإغريقية ولا سيما « ثاوديسيس » الذى أحرق هياكل شتى فيها ولا شك كتبٌ كثيرة من بقايا المكتبة التى عليها الخلاف .

وقد يستلزم تلفيق الحكاية أن تكون مصر وأخبارها موضع اهتمام ومثار قيل وقال ؛ ولم تكن مصر قط قبلة أنظار العالم كما كانت فى أوقات الحروب الصليبية ، يوم كانت هى ميدان الفصل ومناط الظفر والهزيمة بين جيوش الدنيا المحشودة فيها أو على أبوابها .

وقد يستلزم كذلك أن يكون العصر عصر حزازة بين الإسلام وخصومه كما كان عصر الحروب الصليبية وما قبله بقليل .

وقد يستلزم مع جميع أولئك أن يشترك فى القيل والقال

حافظو الكتب الإغريقية فى بيزنطية وشواطئ آسيا الغربيه وهى البلاد التى كانت موطئ أقدام الجيوش فى الكرّ والفرّ والقدوم والإياب ، ومنها تدفق حافظو الكتب إلى أوربا عندما أغار الترك على بيزنطية من تلك الأرجاء .

فتلفيق الحكاية إذن كان عجيباً فى أيام فتح الإسكندرية وما تلاها من الأزمنة إلى زمان القفطى والبغدادى وأبى الفرج الملطى ، ولهذا لم تظهر حكاية المكتبة فى تلك الأيام .

وتلفيقها فى عصر الحروب الصليبية غير عجيب لاجتماع الأسباب التى يستلزمها ذلك التلفيق ، ولهذا ظهرت فيه وأمدّنا ظهورها فيه بالسبب الذى يبطل العجب ويفسر الغوامض التى لايفسرها تعليلٌ معروف غير هذا التعليل .

* * *

إلا أننا على الرغم من كل هذا نفرض أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية فما هى الوصمة التى تلحقه من هذا الأمر ؟ ولماذا كان يحرم عليه أن يحرقها ويجب عليه أن يستبقيها ويفتح أبوابها ؟ ولماذا كان ينبغى أن يكون على يقين أنها شىء مفيد للمسلمين ولغيرهم من الأمم ، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لايجوز التفريط فيها ؟

أمن النقص فى تفكير الإنسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعن عصر حكماء اليونان فلا يطلع على الفلسفة اليونانية ؟ أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كل الوضوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها ، إن صح أنهم حفظوها ؟

إن أحوال الروم والقبط فى ذلك العهد لم يكن فيها دليل واحد على أنهم يحتفظون بينهم بمعرفة نفيسة ، وأن ضياع كتبهم فيه ضياع لذخيرة من ذخائر العالم التى لايجوز التفريط فيها .

فقد كانوا على شر حال من الضعف والفساد والجهل والهزيمة والشقاق والتهالك على سفساف الأمور . فإذا كان عمر غير مطالب بعلم الفلسفة اليونانية أو غير ملوم على فوات الاطلاع عليها ، وإذا كانت أحوال الأمم التى هى أهلها لاتدل على قيمتها بل تسوغ الاعتقاد بخلوها من كل قيمة ، فأين هو العيب فى تفكيره إن صح أنه فكر على ذلك المنوال ؟

إنما يعيب الإنسان أن يكون عدوًّا للمعرفة على إطلاقها ولم يكن عمر عدوًّا للمعرفة ولا معرضاً عنها ، بل كان مشغوفا بها حيث رآها دينية كانت أو أدبية ومن قومه أتت أو من غير قومه .

فكان يستشير الغرباء فى تدوين الدواوين ومنافع الصناعة ولا ينهى عن علم شىء إلا أن تكون فيه فتنة أو ضلال .

وكان ولا ريب يؤثر للمسلمين أن يقبلوا على دراسة القرآن ويقدموا فهمه على فهم كل كتاب . وهذا واجبه الأول الذى لا مراء فيه ، وما من أحد هو مطالب بهذا الواجب قبل أن يطالب به عمر على التخصيص ، لأنه الخليفة الذى فى عهده انتشر المسلمون بين أقطار المشرق وخيف عليهم أشد الخوف أن ينحل العقد الذى جمعهم وبث فيهم الهمة والبأس وسوّدهم على العالمين .

وفى الأخبار التى نقلت بهذا الصدد أن رجلا أنبأه أنهم لما فتحوا المدائن أصاب كتاباً فيه كلام معجب . فسأله : أمن كتاب الله ؟ قال لا . فدعى بالدرة فجعل يضربه بها وهو يقرأ : الرٓ تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربيا لعلكم تعقلون ... » ثم قال : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسا وذهب ما فيهما من العلم .

رويت هذه الرواية عن عمر بن ميمون عن أبيه ، وليس فيها ما يأباه العقل ولو حكمنا على عمر بحكم الدنيا وحكم التجربة الواقعية وتركنا حكم الدين والإيمان إلى حين .

فبالتجربة الواقعية أيقن عمر أن المسلمين بكتابهم خرجوا من الظلمات إلى النور وانتصروا على من حاربوه وعندهم كل كتاب .

ومافرغ المسلمون بعدُ من قراءة القرآن ولا انقضت على تداوله

بينهم سنوات . فكيف يرضى الخليفة الذى يهمه أمر رعاياه أن ينصرفوا عنه إلى كتب لا يؤمَن ما فيها ؟ وكيف يكون الحال إذا تفرقوا شذر مذر ولهم فى كل بلد قراءة غير هذا الكتاب الذى لم يفرغوا منه ولم يستوعبوا كل ما فيه ؟ أمن عداوة المعرفة هذا أو من إيثار المعرفة التى تتقدم على غيرها ؟ وإذا لم تتقدم هذه المعرفة على غيرها فى السنوات الأولى من تداول القرآن الكريم فمتى تتقدم ؟ ومتى يعطى القرآن حقه من الفقه والوعى والإقبال ؟ وأين هى الغنيمة الروحية التى تعدل فى كتاب من الكتب بعض ما غنمه المسلمون بوحى القرآن فى صدر الإسلام ؟

فعلى أى فرض من الفروض لم يكن فى تصرف عمر ما يأباه العقل الذى ينظر إلى الحقائق المشهودة والآثار الواقعة ، ويجوز أنه أمر بإحراق مكتبة الاسكندرية على أبعد احتمال ، ولكن الذى لا يجوز لمنصف أن يفهم من ذلك أنه عدو الثقافة وهو الأديب الفقيه الخطيب ، وهو قد وازن بين معرفة ظاهرة النفع ومعرفة مجهولة ظواهرها كلها تغرى باتهامها . ولا لوم عليه أن يولد حيث يجهلها ، ولا لوم عليه أن يتهمها وهى لم تنفع أهلها يوم رآهم يخبطون فى الضلالة والهزيمة ، ولا يقال عن عقل يفكر هذا التفكير أنه لم يفكر على هدى مستقيم .

فى بيته

كان الخليفة الأكبر ، صاحب الأمر فى الجزيرة العربية ، وصاحب الغلبة على ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة ، ومدبر الحكم فى الرقعة الوسطى بين قارات العالم المعمور ، رجلا فقيراً يعيش فى بيته عيشة الكفاف ، ويقنع من الغذاء والكساء بحظ لا يتمناه كثير من الرجال ، ويزهد فيه كثير من النساء .

فمن غير العجيب أن يخطب بعض النساء فيأبين عيشه ، وقد أبى مثل هذا العيش نساء النبى عليه السلام ، فلم يقبلنه إلا وقد خيرن بينه وبين الطلاق .

وما ندرى أى الشهادات لحكم الخليفة الأكبر أغلى وأجمل ، فإن الشهادات لحكمه أكثر من أن تحصى وهى جميعاً مما تغالى به السير وتزدان بجماله ، ولكننا لا نعرف بينها ما هو أغلى وأجمل من هاتين الشهادتين : أن يعيش فى بيته عيشاً لا يشتهى ، وأن تكون فى يده صولة الملك فلا ترى فيها امرأة من النساء خلابة تغرها ولا صولة تخيفها من أن ترفضها وتأباها .

إن امرأة واحدة ترفض عمر لأغلى فى الشهادة له من ألف امرأة يقبلن على بيته ويطمعن فى سلطانه .

وقد وصفته امرأة خطبها ورفضته وصفاً لم نسمع فيما قيل

عن إيمانه بالله أصدق منه ولا أوجز وأوفى ، فقالت أم أبان بنت عتبة بن ربيعة إنه رجل « أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه ، كأنه ينظر إلى ربه بعينه » .

والذى نعنيه من الوصف هو قولها عن مخافته الله أنه كان يخافه كأنه يراه بعينه .

فهو فى الحق أصدق وصف لإيمان هذا الرجل المتفرد بإيمانه كما تفرد بكثير من شؤونه . إنه تجاوز حد الإيمان إلى حد الرؤية والعيان ، وحقق مبالغات أبى الطيب المتنبي حين وصف الغاية القصوى من الشجاعة والحكمة فقال :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى   إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

ومهما يكن من إيمان بالغيب فهو لا يبلغ فى اليقين والحضور مبلغ الرؤية بالعين ، وهى قولة عائرة من قائلة أصابت مالم يصبه قائل ، ولعلها لاتدرى مدى صوابها .

وخطب عمر أم كلثوم بنت أبى بكر إلى أختها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فقالت له : الأمر إليك ، ثم سألت أختها فأبته وقالت : لا حاجة لى فيه . فزجرتها قائلة : أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم ، إنه خشن العيش شديد على النساء . وكرهت عائشة أن تجبهه بالرفض فوسّطت فى الأمر عمرو بن العاص يحتال

له برفقه وحسن تدبيره ، فجاء عمرَ وفاجأه قائلا : بلغني خبر أعيذك بالله منه . قال ماهو ؟ قال : خطبت أمّ كلثوم بنت أبي بكر . قال نعم . أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عني ؟ قال لا واحدة ، ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أمير المؤمنين في لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك وما نقدر أن نردّك عن خلق من أخلاقك . فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها ؟ كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك ! ففهم عمر أنّ ابن العاص لا يقدم على هذه الوساطة بغير موسط ، وأنّ في الأمر ممانعة على نحو من الأنحاء ... فسأله كأنه يستطلع ما وراءه من الممانعة . كيف بعائشة وقد كلمتها ؟ قال : أنا لك بها ، وأدلك على خير منها : أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب تعلق منها بنسب رسول الله .

وأمّ كلثوم بنت عليّ حدثة أيضاً ، والمحظور في إغضابها أكبر من المحظور في إغضاب بنت أبي بكر ، وإن اعتمد ابن العاص على أن عمر يملك نفسه فلا يغضبها فقد كان حريا به أن يعتمد على شيء من ذلك في خطبته لبنت الصديق ... فلن يفوت عمر - وهو يعلم من يخاطبه في الأمر - أن يفهم خبيئة سعيه وأن يتجاهله لئلا يكشف موقف الرفض والاعتذار من

عائشة وأختها رضى الله عنهما ويعمل بما يراه الصواب .

والطريف فى القصة ـ وكلها طريف ـ أن يذهب عمرو بن العاص إلى خليفته ليواجهه بما يؤخذ عليه من خلائقه وهو آمن أن يغضبه ، بل هو فوق ذلك واثق من موافقته إياه مادام على صدق فى مقاله .

وللمرأة أن تأبى الخشونة فى رجلها ولا تستريح إليها ، ولكن دارس الأخلاق لاينبغى أن يعيب هذه الخصلة إلا بمقدار مافيها من نقص فى الطبائع الإنسانية الأصيلة . إذ المحقق أن الخشونة حرمان من الصقل والمرونة ، ولكننا نخطىء كل الخطأ إن حسبناها حرمانا من البر والرحمة ، لأن المرء قد يكون ناعم الملمس وهو قاس مفرط القسوة ويكون خشن الملمس وهو رحيم مفرط الرحمة ، ويغلب فى هذه الحالة أن تكون خشونته ـ كما أسلفنا فى فصل سابق ـ درعا يستر بها مواضع اللين فى خلقه ، وضرباً من الخجل أن يطلع على ناحية فيه يتطرق إليها الضعف وتنفذ منها الرماية .

فالخشونة نقيض الصقل والنعومة وليست نقيض العطف والرحمة . وعمر بن الخطاب من أفذاذ الرجال الذين تنجلى فيهم هذه الحقيقة أحسن جلاء ، حتى فى علاقاته بالأهل والنساء .

رحمة عمر رحمة فى غلاف وليست بالرحمة المكشوفة لكل ناظر ولامس ، ولا تطول بالناس عشرته حتى ينقشع هذا الغلاف عن قلب وديع مفعم بالعطف والمودة ، مفتح الجوانب لكل عاطفة كريمة ولو لم تكن من ولىّ حميم .

فنساؤه اللائى عاشرنه قد كلفن بحبه ورضين عيشه لرضاهنّ بمودته وعطفه وكانت إحداهنّ التى سميت العاصية وسماها النبى عليه السلام الجميلة لاتطيق فراقه . فإذا خرج مشت معه إلى باب الدار فقبلته ولم تزل فى انتظاره .

وكانت من نسائه عاتكة بنت زيد وهى على قسط وافر من الجمال ومن الدين ومن البلاغة ، تولهت فى رثائه حين قتل فلم يكن بكاؤها عليه كبكاء كل زوجة على كل زوج فقيد ، وتعددت قصائدها فى تأبينه بكلام لايغيب عنه صدق المدح ولا صدق الحسرة ، وهى التى قالت فيه :

عصمة الناس والمعين على الد ... هر وغيث المنتاب والمحروب
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا ... قد سقته المنون كأس شعوب

وقالت فيه :

رؤف على الأدنى غليظ على العدا ... أخى ثقة فى النائبات منيب
متى مايقل لايكذب الله قوله ... سريع إلى الخيرات غير قطوب

وقالت فيه :

جسد لفف فى أكفانه رحمة الله على ذاك الجسد

وقالت فيه :

ياليلة حُبست علىّ نجومها فسهرتها والشامتون هجود
قدكان يسهرنى حذارك مرة فاليوم حقٌ لعينى التسهيد

ولا يُبكى الرجل هذا البكاء على مافى عيشه من الشظف إلا ومن وراء خشونته مودة قلب تنفذ إلى القلوب .

وأكثف ما تكون الدروع أرق مايكون الموضع الذى يليها وأخوفه من الإصابة . فانظر أين الموضع الحصين المحمىّ فهنالك الموضع اللين الذى يخاف عليه ، ولا يخدعنك عن ذلك خادع من إظهار أو تظاهر غير مشعور به ، وغير مقصود .

أين أكثف ماتكاثفت الغلظة فيه من درع عمر التى عنيناها ؟ المرأة ولا نزاع !

فعلى المرأة كانت له غيرة اشتهر بها وعدت من دلائل شدته عليها ، وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ الله غيور يحب الغيور ، وإنّ عمر غيور » .

وعلى المرأة ومن المرأة كان حذره أن تتخايل للعيون وتتبرج فى مضطرب الفتون .

وكلما أوصى بوصية فيها فإنما هى الفتنة التى يتقيها ، فلما قال عليكم بالأبكار لم يقل عليكم بالأبكار لأنهن أمتع وأنضر ، ولكنه قال عليكم بهن لأنهن أكثر حبا وأقل خبا .

ولما توجس من زواج المسلمين ببنات الأعاجم لم يتوجس منه لأنه حرام بل لأن « فى نساء الأعاجم خلابة ، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم » .

فالخلابة هى المحذور الذى يتقى .

وهنا كثافة الدرع فابحث هنا عن منفذ الحذر . إنك لا تبعد كثيراً حتى تلمس الموضع الذى نم عليه الرجل حيث قال : « لو أدركت عفراء وعروة جمعت بينهما » ... أو نمّ عليه الصبى الذى عناه ابن الخطاب حيث قال : « أحب أن يكون الرجل فى أهله كالصبى فإذا احتيج إليه كان رجلا » .

ومتى كان فرط الغيرة على المرأة أو الحذر منها دليلا على أنها ذلك الشىء المهين ، وإن قال الغيور الحذور بلسانه إنها لشىء مهين ؟ .

* * *

وابحث عن جانب واحد مغلق أو مقطوع من جوانب الرحم الذى ينبغى أن يوصل فإنك لن تجده فى نفس هذا الرجل بتة ،

وإن جهدت فى البحث .

فكان ابناً باراً لاينسى التحدث عن أبيه ويعتز بذكراه على ما كان من قسوته عليه فى صباه ، ولم يزل يقسم باسمه حتى نهاه النبى ، فانتهى وهو يقارب الكهولة .

وكان أباً يحب أبناءه ويعرف وجد الآباء بالأبناء ، وينزع الثقة من وال لايحنو على صغاره ... أمر بكتابة عهد لبعض الولاة فأقبل صبى صغير فجلس فى حجره وهو يلاطفه ويقبّله فسأله المرشح للولاية : أتقبل هذا ياأمير المؤمنين ! إنّ لى عشرة أولاد ما قبلت أحداً منهم ولا دنا أحدهم منى ... فقال له عمر : وما ذنبى إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك ... إنما يرحم الله من عباده الرحماء ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزق وهو يقول : إنه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ؟

وكان كلاب بن أمية الكنانى فى غزوة فاشتاق إليه أبوه الهرم وحزن لغيابه ، واتصل نبأه بعمر فكتب إلى قائد الجيش يستعيد كلاباً إلى المدينة . فلما عاد ودخل عليه سأله : ما بلغ من برك بأبيك قال : كنت أكفيه أمره ، وكنت أعتمد إذا أردت أن أحلب لبناً أغزر ناقة فى إبله وأسمنها فأريحها وأتركها حتى تستقر ثم أغسل أخلافها حتى تبرد ، ثم أحلب له فأسقيه .

ثم بعث إلى أبيه فجاء يتراوح فى مشيته ضعيفاً بصره محنياً ظهره فسأله : كيف أنت ياأبا كلاب ؟ قال كما ترى ياأمير المؤمنين ... ثم جاءه بلبن حلبه ابنه ففطن الرجل وقال وهو يدنى الإناء إلى فمه : لعمرُ الله ياأمير المؤمنين إنى لأشم رائحة يدى كلاب من هذا الإناء ! فقال عمر : هذا كلاب عندك حاضر قد جئناك به . فوثب إليه ابنه وطفق الأب الذى لم يكد يراه يضمه ويقبله ... وبكى عمر ، وأمر كلابا أن يلزم أبويه مابقيا وله عطاؤه كأنه يجاهد فى سبيل الله .

ومن حنانه على الأطفال أنه كان يشفق عليهم أن يحزنوا فى لهوهم ولعبهم فلا يترك الخائف منهم حتى يأمن على لهوه ومحصول لعبه ، فحدث سنان بن سلمة أنه كان فى صباه يلتقط البلح فى أصول النخل مع بعض الصبية إذ أقبل عمر فتفرق الغلمان وثبت هو فى مكانه ، فلما دنا منه أسرع قائلا : ياأمير المؤمنين ! إنما هذا ماألقت الريح . قال عمر : أرنى أنظر فإنه لايخفى علىّ . فنظر فى حجره ثم قال صدقت . إلا أن الصبى لم يقنع بهذا حتى يحرسه أمير المؤمنين إلى بيته ! فقال : ياأمير المؤمنين ! أترى هؤلاء الآن ؟ وأشار إلى الصبية الهاربين . ثم قال : والله لئن انطلقت لأغاروا علىّ فانتزعوا مامعى ، فمشى

معه عمر حتى بلغه بيته !

وكثيرٌ على المصدقين المفرطين فى التصديق أن يعرفوا هذا عن عمر ثم يصدقوا أنه وأد بنتاً فى الجاهلية على تلك الصورة البشعة التى انتقلت إلينا فى بعض الروايات ، وخلاصتها « أنه رضى الله عنه كان جالساً مع بعض الصحابة إذ ضحك قليلا ثم بكى . فسأله من حضر فقال : كنا فى الجاهلية نصنع صنما من العجوة فنعبده ثم نأكله وهذا سبب ضحكى . أما بكائى فلأنه كانت لى ابنة فأردت وأدها فأخذتها معى وحفرت لها حفرة فصارت تنفض التراب عن لحيتى فدفنتها حيّة .

فهى قصة يعتورها الشك من ناحية ضحكها ومن ناحية بكائها ومن ناحية اجتماعهما فى لحظة واحدة لتمكين واضع القصة من التفرقة بين عصرى عمر فى جاهليته وإسلامه ، وأدعى مافيها من الشك تلك الخاتمة التى يتم بها اختراع الفجيعة والبلوغ بهـا إلى ذروتها ، وهى نفض الطفلة الصغيرة تراب حفرتها عن لحية أبيها .

فالوأد لم يكن بالعادة الشائعة بين جميع القبائل العربية ، ولم يشتهر بنو عدىّ خاصة بهذه العادة ولا اشتهرت بها أسرة الخطاب التى عاشت منها فيما نعلم فاطمة أخت عمر وحفصة أكبر أولاده وهى التى كنى أبا حفص باسمها .

وقد ولدت حفصة قبل البعث الإسلامي بخمس سنوات فلم يئدها . فلماذا وأد الصغرى المزعومة وهي في السن التي تفهم فيها كيف تنفض التراب عن لحية أبيها ؟ ولماذا انقطعت أخبار هذه الصغرى المزعومة فلم يذكرها أحد من إخوانها وأخواتها ولا أحد من عمومتها وخؤلتها ؟

ما نحسبها إلا إحدى جنايات الإغراب على من خلقوا وفي سيرتهم مثال للإغراب والإعجاب . فهي اختراعة تضعفها قرائن التاريخ وتضعفها خلائق عمر التي لا تتبدل هذا التبدل من النقيض إلى النقيض بين جاهليته وإسلامه . وقد كان عمر في جاهليته لم يسلم بعدُ يوم أشفق على أخته وهي دامية الوجه . وكان في جاهليته يوم أحب أخاه حبه المفرط وبقي عليه . فليس وقوع القصة المزعومة في الجاهلية مانعاً لغرابتها ومقرباً لتصديقها . وغير هذا الأب وهذا الأخ يطيق هذه القسوة التي لا تطاق .

* * *

إن قليلا من الآباء من أحب أبناءه كما أحب عمر أبناءه ، وإن قليلا من الإخوة من أحب أخاً كما أحب عمر زيداً أخاه ، فما سمع اسمه بعد مقتله إلا سالت عبرته ، وما هبت الصبا كما قال إلا وجد نسيم زيد وتمنى نظم الشعر لينظمه في رثائه .

بل إن قليلا من الأصدقاء من أخلص لأصدقائه وعشرائه كما أخلص عمر لكل صديق وعشير ... وهو القائل : « لقاء الإخوان جلاء الأحزان » وهو القائل حرصاً على المودة وضنا بها : « إذا أصاب أحدكم وداً من أخيه فليستمسك به ، فقلما يصيب ذلك » .

* * *

فإذا أردنا أن ننقب عن وشائج الرحم وصلات المودة فى نفس هذا الرجل المهيب المخيف فلننقب عنها فى ينابيعها الخفية التى تسرى منها وترقرق فى نواحيها ، ولا ننقبن عنها فى الصخور التى تكتنفها وتطفو عليها وترفع أعلامها .

أو نحن حريون أن ننقب عنها بين هذه الصخور والأعلام ولكن على هدى وبصيرة . فلا نقنع منها برأى العين من بعيد أو قريب ؛ ولا نغتر بما تبديه كأنه كل شىء تحتويه .

فما هذه الصخور والأعلام التى كانت تروع الناظر من هيبة عمر ومن ملامح سيماه ؟

هى مظهر قدرته على نفسه لا أكثر ولا أقل ، وهى الحارس اليقظ الذى يحمى تلك النفس أن يتسرب إليها الوهن وأن تؤخذ على غرة ، من حيث يخاف عليها .

والمرء لا يعتصم بقدرته على نفسه وهو آمن . ولا يوقظ الحارس على دخيلته وهو وادع فى سربه . إنما يعتصم بقدرته ويوقظ حارسه حين يحذر ، وإنما يحذر من الطارق الذى لا يستهين به ولا يزال على رقبة منه .

وقد كان عمر بن الخطاب أكثر ما يكون اعتصاماً بقدرته فى أمسّ الأمور بقلبه وسريرة طبعه : فى خشية الخديعة من ناحية الترف والمتعة فهو لا يستسلم لشهوة مأكل ولا ملبس ولا قنية دنيوية ، وفى خشية الخديعة من ناحية ولده وأهله فهو يجفل من أن يرى لهم رزقاً لا يعرف مأتاه ويجفل من أن يرى لهم إبلا سماناً بين الإبل العجاف مخافة أن يسمنها لهم الناس فى مراعيهم ... لأنهم ولد أمير المؤمنين وتلك إبل أبناء أمير المؤمنين !

وكان أكثر ما يكون اعتصاماً بقدرته حين يلمح الفتنة الكبرى التى يقتدر بها شيطان الغواية . وتلك هى المرأة لا فرق بين خيارها وشرارها . فمن شرارها استعذ بالله ! ومن خيارها كن على حذر !

وإذا اعتصم عمر بن الخطاب بنفسه فانتظرْ شيئاً واحداً لن تجد حِوَلا عنه ، وهو تقديره العدل تقدير الخائف أن يزيد فيه شعرة أو ينقص منه شعرة . فمتى اعتصم بنفسه استيقظ وانتصر ،

ومتى استيقظ وانتصر فللحق يقظته وفى سبيل الحق انتصاره .

يعرض شأن المرأة فهو الغيور الحذور وهو الواقف على الميزان فيما تعطاه وفيما تعطيه ، فلا هى بظالمة ولا مظلومة فى كل أمر يرجع إليه .

فمن همّه كان ألا تُظلم لضعفها ، ولا تغبن لحيائها وخفرها ، ومن حقها عنده ألا تكره على زواج الرجل القبيح لأنها تحب لنفسها مايحبه الرجل لنفسه ، وأن يعرف لها عذرها حيث يعرف للرجل عذره فى الصلة بينها وبينه . فسمع مرة أعرابية تنشد :

فمنهن من تُسقى بعذب مبرّد نقاخ فتلكم عند ذلك قرت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن أُجاج ولولا خشية الله فرت

فتوهم فى زوجها عيباً وأرسل فى طلبه فإذا هو متغير الفم . فخيره بين خمسمائة درهم وطلاقها . فقبل الدراهم وطلقها .

وسمع امرأة من وراء بابها تنشد :

تطاول هذا الليل تسرى كواكبه وأرقنى ألّا خليلٌ ألاعبه
فوالله لولا الله لاشىء غيره لزلزل من هذا السرير جوانبه

فسأل عن زوجها فعلم أنه خرج فى غزوة طالت غيبته فيها ، فأمر بعد ذلك ألا تطال غيبة الأزواج فى الغزوات .

وكان يقبل شكوى المرأة من زوجها الذى يهمل النظافة والزينة

لأن النساء «يحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لكم».

وقبل شكوى المرأة من زوجها الخاضب قبل البناء بها يوهمها أنه شاب وهو موخوط الرأس بالشيب، فأوجعه ضربا وقال: غررت القوم.

ولم يكن يتحرج مع المرأة مثل هذا التحرج أن تستر من سيرتها ما لا يضير ستره إن عاق زواجها. فكاشفه رجل بأمر ابنة له أسلمت وأصابها حد من حدود الله، فهمت أن تذبح نفسها فأدركها أهلها وقد قطعت بعض أوداجها فبرئت وتابت واستقامت على الهداية. فسأله: أأخبر القوم الذين يخطبونها بما تقدم من سيرتها؟ قال: ويلك! أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه؟ والله لئن أخبرت بشأنها أحداً من الناس لأجعلنك نكالا. «أنكحها نكاح العفيفة المسلمة».

فهى أولى عنده ببعض المحاباة حين لا ضير فى المحاباة. وقد عاهد الناس فيما عاهدهم عليه «ليمنعن النساء إلا من الأكفاء».

وترى أنه قضى فى الخلاف بين الزوج والزوجة بالقول الفصل فى بناء الأُسر وتعمير البيوت. حيث قال لرجل همّ بطلاق امرأته لأنه لا يحبها: أوَكلّ البيوت بُنى على الحب؟ فأين الرعاية والتذمم؟».

فإنه لبرٌّ بربات البيوت لم يدركه متحذلقة العصر الذين يلغطون بالحب والزواج ويجهلون أن الرعاية والتذمم أقمن بالدوام والتعمير من زواج يبنى على الحب وحده . لأن الحب منوط بالأهواء التى تتغير بين آونة وأخرى وأما مناط الرعاية والتذمم فهو الأخلاق التى قل أن يطرأ عليها تغيير .

* * *

وقد استشار النساء فيما يُحسن كما استشار الرجال فيما يحسنون ، ولم يتعال قط أن يرجع عن خطئه إذا ردّته عنه امرأة بالبينة الصادعة ، ومن ذاك أنه نهى الناس فى بعض خطبه أن يزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية ، فصاحت به امرأة فطساء من صفوف النساء : ماذاك لك ؟ فلم يأنف أن يسألها : ولمَ ؟ قالت : لأن الله تعالى يقول : « ... وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً » فرجع عن خطئه واعترف بصوابها .

* * *

فما للمرأة من حق تعطاه .

وما ليس لها بحق لاتعطاه وتذاد عنه .

والذى ليس لها بحق فى رأى عمر - ورأى كل رجل ذى رجولة - ألا تتعرض لعمله الذى لا نفقهه ولا يرجع إليها فى مثله ،

ولا سيما إن كان شأناً من شئون الدولة ومهمة من أخص مهام الرجال ، فتشفعت له امرأته فى وال مقصر تسأله : فيم وجدت عليه ؟ فالتفت غاضباً وقال لها : وفيم أنت وهذا ؟ إنما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين !

كلمة لا تلبس القفاز الناعم ، ولم يخلق القفاز الناعم ليلبس فى كل حين .

والذى ليس بحق للمرأة أن تعلو كلمتها على كلمة وليها ، وهذا الذى كان ينكره عمر على أهل المدينة حيث قال : « ... كنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار . وصحت على امرأتى فراجعتنى فأنكرت أن تراجعنى . قالت : ولمَ تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إنّ أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل . فأفزعنى ... » .

نعم هذا مفزع لعمر ، وقد كان ولا ريب مفزعا لرسول الله أن تعلو كلمة على كلمته فى بيته . لكنّ طريقة محمد فى تغليب الكلمة طريقة نبىّ يؤمّ متبعيه وطريقة عمر طريقة مريد مؤتم بنبوة ، ولا جناح على عمر ألا يلحق بشأو محمد فى كل ماسبق إليه .

فمحمد إنسان عظيم ، وعمر رجل عظيم . وهذا هو الفارق

بينهما كما بيناه فى مناسبة سابقة . وإنما الفارق بينهما فى المناسبة التى نحن بصددها أن الرجل العظيم يرحم المرأة كما يرحمها الجندى فى معرض القوة والنضال ، ولكنه يأنف أن يستكين لسلطانها فى معرض الهوى والفتنة ، فيكسرها ولا ينكسر لها إذا لجت فى الغرور وانطلقت فى عنانه . ومن ثم استصغر عمر ولده نفسه ـ عبد الله ـ لأنه عجز عن تطليق زوجه . فلما أشاروا عليه باستخلافه قال لمن كلمه فى ذلك : « ويحك ! كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ؟ » .

أما الإنسان العظيم فهو يشمل ضعف الإنسانية كله ويعطف عليه . ومنه ضعف المرأة فى غرورها واعتزازها بدلال الضعف على القوة ؛ لأنه فى حقيقته اعتزاز بمكانها منها وتقدير لتلك القوة فى بعض نواحيها . فهو يرى فى تكبر المرأة إذا كانت كبيرة عنده نوعا من الاعتراف بكبره ، وهو لا يقف معها فى ميدان كما يقف كل ذكر وأنثى ، لأن ميدانه هو يشمل الميدانين مجتمعين إذ هو ميدان الإنسان كله والإنسانية جمعاء .

* * *

على أن شأن الرجل مع المرأة لا يظهر من رأى الرجل فيها كما يظهر من رأيها فيه : فبعد معاملة عمر للمرأة وقوله فيها يبقى له شأن فى عالمها يظهر لنا من رأيها هى فيه .

وقد أكبرت سيدة نساء العصر عمر فوصفته بأنه كان نسيج وحده ، وهى عائشة رضى الله عنها ، وجمعت الشفاء بنت عبد الله بعض صفاته فقالت إنه « كان إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقاً » وصاحت أم أيمن مرضعة النبي يوم أصيب : اليوم وَهَى الإسلام .

وعلينا نحن أن نسأل المرأة فى عصر عمر عن مثال الرجل فى عصرها ولا نسأل فيه نساء زمان غير ذلك الزمان . وما نخالنا نعرف رأى المرأة يومئذ فى الرجل الذى يكبر فى عينها كما نعرفه من امرأة هى هند بنت عتبة زوج أبى سفيان وأم معاوية ، فليس أقدر منها على الجواب ولا أصرح فيه .

جاءها أبوها يشاورها فى رجلين من قومها يخطبانها فاستخبرته عنهما فقال يصفهما : « أما أحدهما ففى ثروة وسعة من العيش ، إن تابعته تابعك وإن ملت عنه حط إليك ، تحكمين عليه فى أهله وماله وأما الآخر فموسع عليه منظور إليه فى الحسب الحسيب والرأى الأريب . مدره أرومته وعز عشيرته شديد الغيرة لا ينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله » .

« فقالت : يا أبت ! الأول سيد مضياع للحرّة ، فما عست أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت وخافها

أهلها فأمنت ؟ ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها ، فإن جاءت بولد أحمقت . وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت . فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه علىّ بعد ! وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرّة العقيلة ، وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقة . فزوّجنيه » .

ونحن نحسب هذا رأى المرأة النجيبة فى زمان عمر ، ولو شئنا لحسبناه رأيها فى كل زمان على أن تضمره بباطن القلب ولا تلقيه بطرف اللسان ، فإن زادت خشونة العيش فى بيت عمر على القدر الذى ترضاه المرأة فهى خشونة غير محقورة السبب ، لأنها لا تحسب على عمر « الزوج » من ناحية حتى تحسب لعمر « الرجل » من ناحية أخرى : إذ هى لم تأت من قلة القدرة على العيش وإنما جاءت من كثرة القدرة على النفس ، وهى خليقة تعجب بها المرأة فى الرجل الذى تكبره ، لأنها من أقوى خلائق الرجولة فيه .

* * *

وليس لدينا بيان واف عن النساء اللائى تزوج بهن عمر يعيننا على التمييز بين سماتهن والبحث فى المياسم الشخصية التى يتعددن فيها أو يختلفن ، ويجيز لنا أن نسهب فى الكلام عن موقع كل منهن من نفسه وأثرها فى حياته ومبلغ حظوتها عنده وسبب هذه الحظوة فى رأيه وشعوره ، وما يدل عليه جميع ذلك

من نوازع فطرته وذوقه ـ فقد سكت التاريخ وسكت عمر عن كل بيان واف فى هذا الباب ، فلم يبق لدينا منه إلا أسماء وأعوام ونوادر مقتضبات ، لا تساعدنا على تكوين سمات واضحات فضلا عن التفرقة بين تلك السمات .

غير أننا نعتقد أن التاريخ لم يفقدنا شيئاً كثيراً فى هذا الباب لأننا مستطيعون أن نعوض ما فقدناه بالقياس إلى ما عرفناه ، فلا نخطئ إذا رجّحنا أن سمات هؤلاء النساء جميعاً تدخل فى نطاق الوصف الذى كان يستحبه عمر فى المرأة ولا يطيق منها أن تخالفه وتخرج عليه .

فأفضل ما كان يشرطه فى المرأة أن تكون ولوداً ودوداً وألا تعاب بالحمق فيسرى حمقها فى دماء وليدها . إذ « لم يقم جنين فى بطن حمقاء تسعة أشهر إلا خرج مائقاً » كما قال .

أما ذوق الجمال فقد كان عمر فيه كما كان فى جميع خلائقه عربيًّا بحتاً يستملح ما يستملحه كل عربى صميم ويستحسن الحسن عنده وهو أعم من الملاحة ، ويروى عنه أنه قال : « تزوجها سمراء ذلفاء عيناء ، فإن فركتها فعلىّ صداقها » وأنه قال : « إذا تم بياض المرأة فى حسن شعرها فقد تم حسنها وهذان هما الملاحة والحسن كما وصفا فى الشعر العربى من قديم إلى حديث .

ومن القليل الذى بقى لدينا من أخبار نسائه نعلم أنه كان موفور الحظ من هذا الجمال فى الزوجات . فقد وُصف أكثرهن بالحسن البارع وضرب المثل بملاحة إحداهن بين نساء قريش وهى قريبة بنت أبى أمية بن المغيرة . فروى فى مأثور الحديث الشريف أن سعد بن عبادة قال يوما فى حضرة النبى عليه السلام : ما رأينا من نساء قريش ما كان يذكر من جمالهن ! فقال له عليه السلام : هل رأيت بنات أبى أميـة بن المغيرة ؟ هل رأيت قريبة ؟ وهى إحدى زوجات عمر قبل إسلامه .

وروى أن جميلة بنت ثابت سميت بهذا الاسم لجمالها ، وكان اسمها فى الجاهلية عاصية فكرهته بعد إسلامها وسألت عمر ثم سألت النبى فى تغييره فاتفقا على تسميتها بوصفها ، ونوديت بعد ذلك باسم جميلة .

وروى عن عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل أنها أعطيت شطر الحسن مع ما رزقته من الفصاحة والتقوى .

وروى مثل ذلك عن زوجات أخريات ، وإن لم يتفوقن هذا التفوق المشهور .

ومن أخبار زوجاته أنه طلق اثنتين من أشهر نسائه بالجمال وهما قريبة وجميلة ... تزوج بالأولى وطلقها قبـل إسلامه ، وتزوج بالثانية وطلقها بعد إسلامه ؛ ولا ندرى على التحقيق

ماسبب تطليق هاتين الزوجتين الجميلتين ، فهل هو دلال الجمال ضاق به صدر عمر وهو على شموس المرأة غير صبور ؟ ... لعله ذاك ، ولعل الذى أبقى عاتكة بنت زيد فى عصمته أنها تجاوزت دلال الصغر حين بنى بها ، أو غضت من دلالها بالفطنة والتقوى .

وكذلك بقيت فى عصمته أم كلثوم بنت علىّ بن أبى طالب وهى جميلة صغيرة ، وولدت له ابناً سماه باسم أخيه زيد الذى كان يحبه ويذكره ويطيل البكاء عليه ، وأعزها عنده النسب والأدب والمحافظة على آصرة النبوة ، فلم يفترقا فى الحياة ، ولم ينشب بينهما خلاف إلا حين جاءتها الهدية من ملكة الروم فضمها إلى بيت المال .

وله مع إحدى أولئك الزوجات قصة صغيرة لا يفوتنا إيرادها فى الكلام على حياته الخاصة لأنها كثيرة الدلالات عليه : تدل على عمر فى أبوّته ، وتدل على عمر فى سورة طبعه ، وتدل على عمر فى مثوبته إلى الحق كلما وجب أن يثوب إليه .

فقد طلق جميلة وله منها ولد صغير . فرآه يوماً يلعب مع الصبيان فحمله بين يديه ، فأدركته جدته الشموس بنت أبى عامر وجعلت تنازعه إياه حتى انتهيا إلى أبى بكر رضى الله عنه وهو خليفة . فقال له أبو بكر : خلّ بينه وبينها فهى حاضنته ، فرده إليها ولم يراجعه بكلمة .

ولعمرى إن فى هذه القصة الصغيرة من الدلالة عليه لما يغنى عن قصص ، وفيها عمر إنسان عطوف ، وفيها عمر رجل سوّار الطبيعة ، وفيها عمر صاحب خلق مكين يكبح من طبيعته كل سورة جاوزت حدّ العدل والإنصاف ، وهذا هو عمر فى شتى نواحيه .

وقد تدل هذه القصة على شىء يبرئه من بعض اللوم فى تطليقه أم هذا الولد . فاسمها عاصية واسم أمها الشموس ، وكأنهما -كما ينبئ عنهما هذان الاسمان - من أسرة تباهى بدلال بناتها وشموسهن وتختار لهنّ من الأسماء مايدل على هذه الخصلة ، وقد يضيف إلى توكيد هذه الخصلة فيهن أنّ عاصية غضبت حين اختار لها عمر اسم جميلة وقالت له : سميتنى باسم الإماء ! ثم اختار لها النبى هذا الاسم فقالت : يارسول الله ! أتيت عمر فسمانى جميلة فغضبت ، قال عليه السلام : أوماعلمت أن الله عز وجل عند لسان عمر وقلبه .

فكأنها نشأت فى قوم يعتقدون أن التحسين والترغيب إنما هو من شأن الإماء ، وأن الشموس والعصيان أليق بالحرائر وإن أحببن أزواجهن وأحبوهن ، فإن كان فى تطليقها مأخذ على عمر فقد يكون فيه مآخذ عليها تفسر لنا افتراقهما بعد ما أحبها وأحبته .

* * *

ورزق عمر الذرية من ذكور وإناث نجباء ونجيبات ،

فقرت عينه بهم لأنه كان كأهل البداوة كافة يستكثر من الذرية ويوصى الناس أن يستكثروا منها ، وكانوا جميعاً عنده بمكان الحب والمودة لايخشى الانحراف عن العدل من جانب كما يخشاه من جانب هذه الذرية أوجانب أهله على التعميم ، ولهذا كان يجمعهم إذا نهى الناس عن حوزة حق من الحقوق فيبلغهم أنه قد نهى عنه ويذكرهم « إن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم » ويقسم لهم لئن فعله أحد منهم ليضاعفن عليه العقوبة !

وليس بنا أن نحصى فتاواه وأقضيته فى محاسبة أهله أو محاسبة أبنائه خاصة قبل سائر أهله . فذلك عمل له لم ينقطع عنه طوال حياته ، ولكنا نكتفى بمثل من أمثال عديدة متواترة وهو قضاؤه فى اتجار أبنائه بمال من بيت مال المسلمين ، وذاك أن ابنيه عبدالله وعبيد الله خرجا فى جيش إلى العراق ، فلما قفلا نزلا بالبصرة وذهبا إلى أبى موسى الأشعرى وهو أميرها ، فقال لهما : لو أقدر على أمر أنفعكما به؟ ثم عرض عليهما أن يحملا إلى أبيهما مالا من مال الله فيشتريا به متاعا من العراق يبيعانه بالمدينة ، ثم يؤديان رأس المال ويكون لهما الربح . فلما علم عمر سألهما : أكل الجيش أسلفه ؟ ثم أمرهما أن يؤديا المال وربحه ... فسكت عبدالله وقال عبيد الله : ما ينبغى

لك يا أمير المؤمنين هذا . لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه!
وقال رجل فى المجلس : يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً ؟ فأخذ رأس المال ونصف ربحه، وأخذ ابناه نصف ربح المال .

وإنما كان عمر يتقى محاباة الولاة لأبنائه وذويه وإقرار هذه المحاباة بإذنه ، ولكنه كان يقترض من بيت المال ليتجر ويربح ما يعيش به فى أهله ، ويلجأ إلى التجارة لقلة رزقه الذى فرضه لنفسه من بيت مال المسلمين ، وقد فرض رزقه لنفسه بعد مشاورة أصحاب رسول الله . فقال عثمان : كلْ وأطعم ، وقال علىّ : ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ، وقال هو : إن افتقرت أكلت بالمعروف وإن أيسرت قضيت .

وكان يقترض فيعسر فيتأخر قضاؤه ، فيأتيه صاحب بيت المال ويشتد فى تقاضيه ، فيحتال له عمر ويؤجله إلى أن يستحق عطاءه مع عطاء المسلمين ، فيسد به دينه .

ومع هذا كان يشفق أن يقترض من بيت المال إلا أن يتعذر عليه الاقتراض من بعض صحبه . فأرسل مرة إلى عبد الرحمن بن عوف فى طلب أربعة آلاف درهم يجهز بها عيراً إلى الشام ، فعاد الرسول يقول له : خذها من بيت المال ثم ردها . ! وشق ذلك عليه فلقى صاحبه وعلم منه صدق ما بلغه

فقال : أفإن مت قبل أن تجىء قلتم أخذها أمير المؤمنين دعوها له وأوخذ يوم القيامة ؟ : « لا ولكنى أردت أن آخذها من رجل حريص شحيح مثلك ، فإن مت أخذها من ميراثى » .

وحدث ماتوقعه من مجىء الأجل قبل سداد ديونه جميعاً فلم يشغله الموت ولاشغلته كبار الخطوب التى يضطلع بتصريفها قبل موته أن يسأل عن ديونه ويوصى بسدادها من ماله ومال أهله وقال لآبنه « إن وفى به - أى بالدين - مال آل عمر فأدّه من أموالهم وإلا فاسأل فيه بنى عدى فإن لم تف أموالهم فاسأل فيه قريشاً ولاتعدُهم إلى غيرهم » وكان عبد الرحمن بن عوف حاضراً فأشار عليه مقترحاً أن يستقرضها من بيت المال حتى تؤدّى ؟ فلم يقبل عمر ، ودعا بابنه عبد الله فقال : اضمنها ! فضمنها ، ووفى بوعده . فلم يدفن أبوه حتى أشهد بها على نفسه أهل الشورى وعدّة من الأنصار ، وما انقضى أسبوع حتى حمل المال إلى عثمان ، وأحضر الشهود على البراءة بدفعه وقد بيعت لعمر دار فى هذا الدين وسُميت زمناً باسم دار القضاء ، لأنها بيعت فى قضاء دينه .

ولأن يموت عمر مديناً موفى الدين لهو أعظم الشرفين ... وأيسر من ذلك شرفاً أن يموت غنيًّا بغير دين .

———

صُورة مجملة

صحبنا عمر بن الخطاب فى حالات كثيرة تختلف فيها صور الرجال .

صحبناه فى جاهليته وإسلامه ، وفى سره وعلانيته ، وفى بيته وحكومته ، وفى دينه وثقافته ، وفى اتصاله بالله واتصاله بالناس .

فإذا الصورة المجملة من جميع هذه الصور المختلفة صورة رجل عظيم من معدن العبقرية والامتياز بين الناس على اختلاف العصور ، وإذا هو صاحب مناقب وأخلاق من أنبل الصفات الإنسانية توافقت فيه على قوة نادرة وتلاقت فيه إلى غاية واحدة : وهى إحقاق الحق وإدحاض الباطل ، ووسمته جميعاً بسمة الجندية المجاهدة التى تحمى الحدود للناس وتحميها من الناس ، وهو هو فى طليعة من يحمى وفى طليعة من يحتمى على السواء .

ورسخت فى طويته خليقة المساواة فى العدل حتى أصبحت كالوظيفة العضوية التى لا تنفصل منه ، وحتى أصبح يتجرد من نفسه أو يجرد منها شخصاً آخر غريباً عنه لا فرق بينه وبين أحد فى حدود الله وحرماته ، وتمكنت هذه الخليقة منه حتى جرت على لسانه عامداً وغير عامد ، فكان يتكلم عن نفسه كما يتكلم عن غريب : بخ بخ يا عمر ! ويحك يا ابن الخطاب ؟ ماذا يقول عمر ! وهذا فلان بن عمر وليس بفلان ولدى ... إلى أشباه هذه التجريدات التى

تنبعث فيه من خليقة التسوية بين جميع الناس ، وبينهم وبين نفسه قبل جميع الناس .

وكانت فيه خشونة الأقوياء الصرحاء ، ولكنه كما قال عارفوه من الصحابة « باطنه خير من ظاهره » أو كما قال فيه الصديق من كلامٍ فحواه أن مبغضيه هم المبغضون للخير .

وكان له محبون من كرام الناس لايعدلون بحبه حب أحد من أمثاله ، فكان عبدالله بن مسعود يقول : « لو أعلم عمر كان يحب كلباً لأحببته . والله إنى لأحسب العضاه [1] قد وجدت فقد عمر » .

والغالب فى أمثال عمر من أصحاب الطبائع القوية المهيبة أن تحجب عنهم الهيبةُ أُلفةَ الغرباء الذين لايختلطون بهم فى السر والعلانية ، بل تحجب عنهم أُلفةَ الأقربين فى كثير من الأحيان ، لأنهم من تفردهم بالصراحة والحق فى عزلةٍ دائمة بين ألصق الناس بهم وأقربهم إليهم :

أعاذك أُنس المجد من كل وحشة فإنك فى هذا الأنام غريب

ولكنهم لا يَكرهون إلا عن خطأ أو حسد لئيم . وكان عمر على التخصيص ممن لايثيرون شعور الكراهية فى قلب إنسان ؛ لأنه كان على عظم « شخصيته » مبرءاً من العنصر

---

(١) جمع عضاهة وهو شجر كبير له شوك .

الشخصى ، فى معاملة الأصدقاء والخصوم . وإنما ينجم العداء الشديد من الإحساس بهذا « العنصر الشخصى » ومقابلته بمثله مقابلة اصطدام وانتقام .

فالذين كانوا يذوقون إنصاف عمر كانوا يستمرئونه ويحبونه ، والذين كانوا يذوقون عقابه كانوا لايشعرون بعمر بن الخطاب معاقباً لهم صوالا عليهم ، وإنما يشعرون بميزان الشريعة منصوباً على رؤسهم ، يتساوون فيه وعمر وأبناء عمر لو وجب العقاب . فلا موضع هنا للضغينة ولا لأصطدام النفس بالنفس واحتدام الحزازة بالحزازة .

ولهذه الخصلة ذكره بالحب والإعجاب من ابتلوا بعدله أشد ابتلاء ، وانطبعت نفوسهم على الدهاء أو الهجاء .

فعمرو بن العاص ومعاوية كانا يثنيان عليه وشدّ ما ابتليا فى حياته بضربات عدله وهيبته ، والحطيئة أهجى الشعراء وأبخلهم بالثناء كان رفاقه يذكرونه آسم عمر بعد موته فيرتعب ثم يهدأ فيقول : يرحم الله ذلك المرء ! ... ويثنى عليه .

وقد قال عمرو بن العاص إذ رأى عمر يبكى لأستعطاف الحطيئة إياه فى سجنه : ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكى على تركه الحطيئة !

وقد شاء القدر أن يموت عمر قتيلا فلا يكون قتله دليلا على بغضاء « شخصية » أو خلة ترتبط بحياته الفردية . فإنما البغضاء « الوطنية » هي علة التآمر على قتله بين المغلوبين في ميدان القتال على التحقيق ، وهكذا كل بغضاء بقيت بعد موته مقرونة بذكراه فإنما هي في أصلها « بغضاء وطنية » كامنة وراء الدعاوى الطائفية والمجادلات المذهبية ، وإن تطاولت الأيام .

فالمعلوم أن عمر مات بطعنات من خنجر فيروز « أبي لؤلؤة » من سبايا الفرس بالمدينة ، وأن فيروز هذا جاء عمر قبل مقتله بأيام فشكا إليه مولاه المغيرة بن شعبة لأنه فرض عليه خراجاً درهمين في كل يوم ، فسأله عمر عن صناعته فأنبأه أنه « نجار نقاش حداد » ... فلم يستكثر عمر هذا الخراج على من يصنع هذه الأعمال . وقال له : قد بلغني أنك تقول « لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلت » وطلب إليه أن يصنع رحى على هذه الصفة ، فقال له : لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ... ثم انصرف وهو يقول « وسع الناسَ عدله غيري ! . » فقال عمر لسامعيه : لقد توعدني العبد آنفاً ... ولم يؤاخذه بهذا الوعيد ، بل كان من نيته أن يلقى المغيرة ليخفف عن مولاه .

هذا هو السبب الظاهر الذى لايستر ماوراءه، لأن أبا لؤلؤة لم يكن إلا منفذاً للكيد الذى اتفق عليه كثيرون، وقد روى عبد الرحمن بن أبي بكر أنه رأى هذا الرجل مع الهرمزان وجفينة قبل مقتل عمر جالسين يتحدّثون. فلما فاجأهم قاموا وقوفا فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه، وهو الخنجر الذى حمله فيروز لقتل عمر وقتلِ نفسه إن أُخذ بفعلته.

والهرمزان أمير زالت عنه الإمارة بعد ذهاب الدولة المجوسية، وجفينة من أهل الأنبار وهم على ولاء للفرس، وأبو لؤلؤة فارسى شديد الحقد على المسلمين لم ينس أسره ولم يزل كلما جيء إلى المدينة بأسرى من وقعات فارس مسح رؤسهم وتوعد المسلمين أجمعين.

وقد شاركهم فى هذه المؤامرة يهودى مغلوب تظاهر بالإسلام وهو المسمى بكعب الأحبار. ولعله أراد أن يكسب سمعة العلم بالأسرار من علمه بالمؤامرة، فذهب إلى عمر قبل ثلاثة أيام من مقتله ينذره أن يختار ولى عهده لأنه ميت فى ثلاثة أيام ... فسأله عمر: وما يدريك؟ قال أجده فى كتاب الله التوراة. فلم تجز هذه الدعوى على عمر وعاد يسأله: «آلله! إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة؟» فأشفق الرجل أن ينكشف

دجله وقال : بل أجد صفتك وحليتك وأنه قد فنى أجلك . ثم كرّر له النذير مرتين فى اليومين التاليين .

فعمر إنما ذهب رحمه الله شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الإسلامية لاشك فيها ، وما كانت قصة الخراج إلا الستار الذى يتوارى به المتآمرون بالمدينة والبلاد الأخرى مخافة القصاص الذى يحيق بهم إذا جهروا بما دبروه ، أو جهروا بالعلة التى من أجلها تربصوا بذلك التدبير .

* * *

إن مقتل عمر أحرى أن يعدّ جزءاً من أكبر أجزاء سيرته ولا يحسب نهاية تختم تلك السيرة دون أن تضيف إليها .

فقد تمثلت فى مقتله مزاياه الكبار التى تمثلت فى جلائل أعماله وعظائم مساعيه وخصاله ، فكان عمر الصريع قدوة فى الشجاعة وتقديم الواجب والإيثار على النفس ومحاسبة الضمير وسداد التدبير ، كما كان عمر فى أصح ساعاته وأسلمها للعمل والتفكير .

وكان رضى الله عنه ينظر إلى الحياة كأنها رسالة تؤدّى ماآستطيع أداؤها ثم لامعنى لها إذا فرغ من رسالتها أو حيل بينه وبين أدائها ، فبعد الحجة التى مات على أثرها أناخ بالأبطح

ثم كوم كومة من البطحاء ألقى عليها طرف ردائه واستلقى عليها ورفع يديه إلى السماء ، ودعا الله : « اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط . اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك » .

ومضت أسابيع فخرج يوماً قبيل الفجر يوقظ الناس ثم يسوى الصفوف للصلاة ، فلم يكد يؤم الناس حتى فاجأه القاتل بطعنتين إحداهما فى كتفه والأخرى فى خاصرته ، وقيل ثلاث طعنات إحداهن تحت السرة وقد خرقت الصفاقين قضى بها نحبه رحمه الله ، وقيل بل ست طعنات منها تلك الطعنة القاتلة .

فلم تشغله هذه الطعنات المفاجئات عن الصلاة ، ولم يفكر أن يشغل المسلمين بمقتله عن أداء فريضتهم فى موعدها . وسأل عن عبد الرحمن بن عوف ليصلى بالناس .

ثم جعل يغمى عليه ولا ينتبه إذا دعوه . حتى قال بعض عارفيه : إنكم لن تفزعوه بشىء مثل الصلاة إن كانت به حياة ... فنودى : الصلاة . الصلاة ! فلما سمع النداء فتح عينيه وفاه بكلمات متقطعات : « الصلاة ! ها ... الله ... إذن ... » ثم قال : لاحظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة .

ولم يهمه من قتله بعد أن حُمل إلى منزله إلا أن يعرف

أ لِمظلمة كان قتله أم لبغى من القاتل ؟ فلما علم أنه أبو لؤلؤة قال : ولِمَ قاتله الله وقد أمرت به معروفاً ؟ ثم حمد الله قائلا : « الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجّنى عند الله بسجدة سجدها له قط . ما كانت العرب لتقتلنى » .

وهَمّه بعد ذلك أن يلقى حسابه عند الناس وهو وشيكٌ أن يلقى حسابه عند الله . فأمر ابن عباس أن يخرج إلى المهاجرين والأنصار يسألهم : أعن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذى أصابنى ؟ فصاحوا معلنين : « لا والله . ولوددنا أن الله زاد فى عمره من أعمارنا » .

واشتد البكاء كأن الناس لم يصابوا بمصيبة قبلها ، فنهاهم أن يبكوا عليه . ثم سقوه نقيع التمر فخرج من الجرح أحمر كما هو فلم يعرفوا أدمٌ هو أم النقيع خرج بلونه ... فسقوه اللبن فخرج أبيض يشوبه صديد . فأشار عليه الطبيب : أن يعهد ... فقال : لو قلت غير هذا لكذبتك » .

وكان قد أنكر على الناس أن يجيئوه بالطبيب قبل أن يفرغ من وصاياه : ويحكم أيها الناس أأنظر فى أمر نفسى قبل أن أنظر فى أمور المسلمين ؟ ... فلما قال الطبيب مقالته أخذ فى تدبير المهم من شؤن الدولة وأولها الخلافة ، فجعلها شورى

ليستقر بها القرار ما ٱستطيع إقراره ، ونجا بأهله منها وهو يقول : « ... أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى ، وإن نجوت كفافاً لاوزر ولا أجر إنى لسعيد » .

وهو فى هذا كله لايخالف ديدنه من صراحة ولا يكتم طبيعة أهل الفناء من حب الحياة : ولا يخفى « إن للحياة لنصيباً من القلب وإنّ للموت لكربة ! » ولكنها لم تمنعه قط أن يعطى الحق حيث وجب للموت أو للحياة .

فلما فرغ من شئون الدولة نظر فى أمر دَيْنه فأبى أن يدفن قبل أن يضمن سداده ، وأقبل يطمئن إلى مضجعه فى جوار صاحبيه وقد فرغ من حقوق الدنيا . فدعا بابنه عبد الله ينطلق إلى عائشة أمّ المؤمنين ويقرئها منه السلام ... ونهاه أن يسميه عندها أمير المؤمنين لأنه ليس اليوم للمؤمنين أميراً ... ثم يستأذنها أن يدفن إلى جوار صاحبيه يعنى النبى عليه السلام وخليفته الصديق .

ووجدها عبد الله تبكى فسلم عليها واستأذنها فأذنت وقالت : كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنه به اليوم على نفسى !

فلم يكفه هذا حتى يستوثق كل الاستيثاق من رضاها ، فعاد يخاطب ابنه : ياعبد الله بن عمر ! انظر ، فإذا أنا قبضت فاحملونى

على سريرى ثم قف على الباب . فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت لى فأدخلنى ، وإن ردّتنى فردّنى إلى مقابر المسلمين ، فإنى أخشى أن يكون إذنها لى لمكان السلطان » .

قال شهود دفنه : « فلما حمل فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة إلا يومئذ » ... وفارق الدنيا أعدل العادلين وهو مظلوم أو متهم بظلم ، فما دلها شىء على عظم فضله ولا عظم الحاجة إلى العدل فيها كما دلها هذا الختام ؟

تمّ

فهرس

ما يدرس منه